



139

المسلمون والاستعمار الاوروبي لافريقيا

تأليف

د. عبد الله عبد الرازق إبراهيم

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت



سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ الكويت

صدرت السلسلة في شعبان 1998 بإشراف أحمد مشاري العدواني 1923 ـ 1990

139

المسلمون والاستعمار الاوروبي لافريقيا

تأليف

د. عبدالله عبد الرازق إبراهيم



المحتوى

المحتوى
المحتوى
المحتوى

المؤلف في سطور

المقدمه

بسم الله الرحمن الرحيم

شهدت القارة الأفريقية مع إشراقة العصور الحديثة موجة من الصراع الاستعماري بعد خروج المسلمين من الأندلس، وسقوط آخر معقل لهم في غر ناطة عام 1492 م. وكان الهدف من هذه الحركة الاستعمارية هو تعقب المسلمين القادمين من الأندلس، والقضاء على آخر معاقلهم على الساحل الأفريقي، ثم إجهاض أي محاولة للتفكير في العودة إلى هذه البلاد. وترتب على هذه الغزوة الاستعمارية محاولة تطويق المسلمين؟ وذلك بالاتصال بالمملكة المسيحية في بلاد الحبشة بزعامة برستر جون (Prester John) وأدّت هذه الحركة إلى قيام الكشوف الجغرافية التي انتهت بالدوران حول أفريقيا، والوصول إلى شاطئها الشرقي، ودخلت في صراع دموي مع الإمارات والممالك الإسلامية سواء في شمال القارة أو في شرقها أو غربها.

اتخذت هذه الموجة صبغة صليبية ذلك لأن البابوية باركت هذا العمل العدائي ضد المسلمين، واعتبرت كل من يستشهد في سبيل تحقيق هذا الهدف من شهداء الكنيسة، وبالتالي أيّد الملوك والأمراء في كل من إسبانيا والبرتغال هذا العمل، ورصدوا مبالغ ضخمة للإنفاق منها على الحملات التي تتجه ضد المسلمين. فكانت موجات الغزو

بسم الله الرحمن الرحيم
﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا﴾
«سورة الأحزاب آية 23»

الأوروبي تحت هذا الستار الصليبي عاملا كبيرا في تقويض جزء من الحضارة الإسلامية في القارة الأفريقية.

وشهد البحر المتوسط والدول الإسلامية المطلة على ذلك الصراع الاستعماري الذي لم يشهده تاريخ المنطقة من قبل، فلم يحدث في التاريخ أن استمرت موجة استعمارية مثل ما حدث في القارة الأفريقية، ولم يحدث أن استنزفت موارد قارة بشرية وطبيعية لصالح أوروبا مثل ما حدث لأفريقيا، كما لم يحدثنا التاريخ من قبل عن قارة قسمت إلى أشلاء ودويلات قزمية بأيدي الأوروبيين مثل ما حدث في أفريقيا.

لقد أصبحت القارة الأفريقية بعد موجة التحرر والتحرير في النصف الثاني من القرن العشرين تعاني من التمزق والتجزئة، وتلك الحدود المصطنعة التي قسّمت أبناء القبيلة الواحدة بين اكثر من وحدة سياسية. وكانت هذه الحدود التي ساومت عليها الدول الأوروبية في القارة الأفريقية في الربع الأخير من القرن التاسع عشر هي أساس الحدود الحالية، وهي بلا شك حدود من صنع الاستعمار، ولا تتفق مع واقع القارة ولا شعوبها، فأصبحت مشكلات الحدود من أعقد الأمور التي تواجه قادة أفريقيا في مرحلة البناء والتعمير بعد الاستقلال.

كانت هذه الموجة الاستعمارية تتركز في المقام الأول على المسلمين في شمال القارة باعتبارهم الحصن الحصين، والدرع المتين الذي يدافع عن الإسلام وعن المسلمين، وهذا ما أعطى حركات التوسع البرتغالي والإسباني صبغة صليبية من أجل القضاء على المسلمين، ومن أجل تتبع الهاربين من الأندلس، وقد تطلب ذلك الأمر الدخول في صراع مع مسلمي شمال أفريقيا، واحتلال هذه الأجزاء وقيام أكبر عملية جهاد بحري في تاريخ البحر المتوسط استمرت منذ عام 1492 م حتى أواخر القرن التاسع عشر، وذلك عندما بدأت دول استعمارية جديدة تدخل الميدان، وتتطلع إلى استعمار القارة بقصد القضاء على حضارة المسلمين، وبهدف التحكم في المناطق الاستراتيجية في القارة وبغية السيطرة على أجزائها لضمان الحصول على المواد الخام اللازمة للثورة الصناعية التي قامت في القارة الأوروبية. ومن هنا صارت أفريقيا هدفا جديدا أمام الغزو الاستعماري لتصبح موردا للخامات، وسوقا لتوزيع المنتجات، ومكانا لنهب الثروات، ثم القضاء على ما

فيها من حضارات.

وجد أبناء القارة أنهم هدف هذه الغزوات الاستعمارية التي جاءت لاحتلال أراضيهم، واستعمار أوطانهم، وتدمير حضارتهم. فكان لابد من التصدي دفاعا عن شرف الإسلام، وكلمة التوحيد وصار الجهاد أمرا محتما، ومطلبا فرضه الله على المسلمين الذين أحسوا غزو ديارهم، وتحطيم مقدساتهم، وتدنيس حضارتهم الزاهية عبر العصور. من هنا شهدت مختلف مناطق القارة الأفريقية ملاحم بطولية حقق المسلمون فيها انتصارات باهرة على جيوش المعتدين الأوروبيين المدججة بأحدث الأسلحة وفنون الحرب الحديثة، وسجل المسلمون على أرضهم أمجادا لا مثيل لها في تاريخ الحضارات، وجعلوا من أرض القارة طريقا وعرا مفروشا بالأشواك، وأجبروا أوروبا على إسقاط وزارات، وتغيير قيادات، وإرسال الإمدادات والمساعدات للوقوف أمام عنف المقاومة الأفريقية الإسلامية.

ولقد أغفل الأوروبيون-للأسف-وهم يسجلون تاريخ استعمار القارة هذه البطولات، وأشاروا إليها في ثنايا مؤلفاتهم باعتبارها حدثا عارضا لا قيمة له أثناء غزوهم للقارة الأفريقية، بل أنكروا على هذه البطولات تلك الانتصارات، ووصل الأمر بهم إلى حد اتهام هذه القيادات الإسلامية بالجنون، وركزوا على وسائل القضاء على هذه الزعامات الإسلامية، فجاءت كتاباتهم تتويجا لبطولات أبنائهم من القادة العسكريين، واتسمت أعمالهم بالتحيز والبعد من الموضوعية والتركيز على النواحي والسير الذاتية.

كانت هذه الأسباب من دواعي الإقدام على إعداد دراسة تتناول بعض النماذج الإسلامية في القارة الأفريقية ليستفيد أبناء هذا الجيل من تجارب أجدادهم وهم يخوضون أنبل المعارك في سبيل الحفاظ على حضارة الإسلام الزاهرة، والأمة الإسلامية العريقة «خير أمة أخرجت للناس،» ولقد راعيت في اختيار هذه النماذج الإسلامية أن يكون التركيز على زعماء القارة في جنوب الصحراء لأن هؤلاء الزعماء لم ينالوا القدر الكافي من الدراسة، ولأنهم ظهروا في بلدان ليست من الأمة العربية، فكان التركيز على هذه الزعامات الأفريقية الإسلامية بقصد إلقاء الضوء على الزعامات الأفريقية التي ضحت وناضلت وجاهدت وحملت السيف والقلم حيث إن كل زعماء الجهاد الذين تم اختيارهم كانوا أرباب دعوة إسلامية لنشر الدين الحنيف

بين السكان الوثنيين، أو الجهاد من أجل العودة بالدين إلى منابعه الأولى جنبا إلى جنب مع مقاومة الاستعمار الذي جاء بجيوشه الجرارة لنهب موارد القارة الأفريقية. وتمشيا مع هذا الهدف فقد تم تقسيم الكتاب إلى مقدمة عن الاستعمار الأوروبي للقارة، وستة فصول تناول كل فصل منها حياة أحد الزعماء المسلمين في منطقة من مناطق القارة. يعالج الفصل التمهيدي «الاستعمار الأوروبي للقارة الأفريقية»، فيركز حول تلك الموجة الاستعمارية في أواخر القرن التاسع عشر، والصراع من أجل تقسيم القارة، ومؤتمر برلين 1884/885 1 الذي عقدته الدول الأوروبية لتوزيع أفريقيا دون أخذ أي دولة أفريقية واحدة، ثم الصراع الذي دار بعد المؤتمر، وكيف تحولت أفريقيا في خلال عشر سنوات بعد المؤتمر إلى مستعمرات تابعة للدول الأوروبية، وانقلبت الصورة من وجود 10٪ مستعمرا فقط قبل المؤتمر إلى حوالي 8٪ فقط من الدول المستقلة بعد المؤتمر.

أما الفصل الأول فقد جاء باسم «المسلمون والغزو الأوروبي لإمبراطورية الفولاني»، ويعالج الحركة الإصلاحية التي قادها زعيم الحركة الإصلاحية القادرية ويدعى عثمان بن فودي في أوائل القرن التاسع عشر، وكيف نجح هذا المجاهد في تأسيس إمبراطورية إسلامية واسعة، طبقت الشريعة الإسلامية في هذه المنطقة. وأنشأ الشيخ عثمان نظاما خلافيا تولى أبناؤه الحكم من بعده مدة قرن من الزمان. ولما بدأت عمليات التقسيم الأوروبي لأفريقيا صارت منطقة شمال نيجيريا ضمن مناطق النفوذ البريطاني، ولما بدأ التوسع البريطاني داخل هذه الإمبراطورية الإسلامية تصدى الخلفاء المسلمون من سلالة الشيخ عثمان لتلك الموجة الاستعمارية، ودارت معارك مستمرة قدم فيها المسلمون نماذج مشرفة من الكفاح والنضال والفداء حتى استشهد الخليفة محمد الطاهر الأول على أرض بورمي، وكان استشهاده خاتمة سلسلة من الكفاح ضد التوسع الأوروبي، كما كان لهذا الجهاد أثره في الحفاظ على تراث المسلمين، وإجبار الأوروبيين على احترام هذه التقاليد الإسلامية، وعدم المساس بهذه المقدسات الدينية حتى يومنا هذا.

ويعرض الفصل الثاني الذي حمل «المسلمون والغزو الأوروبي لإمبراطورية التوكولور» لسيرة زعيم جهاد آخر حمل معه الطريقة التيجانية إلى بلاد التوكولور في غرب القارة، وجاهد من أجل بناء إمبراطورية إسلامية. ولما

وجد الفرنسيين يتربصون به ترك المنطقة واتجه شرقا حتى وسع إمبراطوريته، لكنه دخل في صراع مع القوى الوطنية. وكان عليه أن يجاهد في جبهتين حتى استشهد عام 1864 تاركا الإمبراطورية لأبنائه الذين واصلوا الجهاد وقاوموا الفرنسيين فترة من الزمان حتى سقطت دولتهم في أواخر القرن التاسع عشر. أما الفصل الثالث فيعالج حركة مقاومة أخرى باسم «المسلمون والغزو الأوروبي لمنطقة سانجامبيا» وفيه عرض لزعيم جهاد آخر هو الحاج محمد الأمين الذي تصادف قيام حركة جهاده مع التوسع الفرنسي في منطقة سانجامبيا، فقاوم هذا التوسع الفرنسي، واحتك بدولة أحمدو شيخو بن الحاج عمر الفوتي. وظل يقاوم داخليا وخارجيا مدة عامين حقق خلالهما انتصارات على الفرنسيين، وعلى قوات الشيخ أحمدو حتى انتهت هذه الدولة التي أقامها هذا المجاهد المسلم.

وجاء الفصل الرابع تحت عنوان «المسلمون والغزو الأوروبي لإمبراطورية ساموري توري». أسس ساموري توري دولة إسلامية في بلاد الماندنجو بغرب القارة وطبق الشريعة الإسلامية فيها، ولما أحس بخطر الفرنسيين دخل في صراع معهم، وظل يقاوم هذا التوسع الفرنسي الذي استهدف دولته مدة بلغت عشر سنوات سجل خلالها العديد من الانتصارات والبطولات على القيادة الفرنسية، وحافظ على كيان الدولة الإسلامية التي كافح طويلا من أجل إنشائها حتى سقطت أخيرا تحت السيطرة الفرنسية في أواخر القرن التاسع عشر.

أما الفصل الخامس فهو بعنوان «المسلمون والغزو الاستعماري الأوروبي لدولة رابح فضل الله». ويعالج هذا الفصل نشأة هذا الزعيم المسلم الذي استطاع التحرك من السودان بعد خدمة الزبير باشا رحمت، وذهب إلى منطقة بحيرة تشاد حيث أسس دولة إسلامية ودخل في صراع مع الفرنسيين الذين كانوا قد خططوا لاستعمار المنطقة، وحاولوا إغراء رابح بالأموال، ولكنه رفض كل العروض وحارب الفرنسيين مدة سبع سنوات كبدهم خلالها الكثير من الأرواح والمعدات حتى جاءت نهاية هذا الزعيم الوطني المسلم وهو يدافع عن دولته وعن شرف الإسلام والمسلمين في هذه المنطقة من غرب أفريقيا.

وأما الفصل السادس فقد جاء تحت عنوان (المسلمون والغزو الأوروبي

للصومال. وهو يعالج جهاد زعيم الطريقة الصوفية الصالحية الذي حاول نشر طريقته في بلاد الصومال، وفي قلب بلاد الحبشة، ولكنه وجد معارضة من الأحباش والإيطاليين والبريطانيين فدخل في صراع معهم، وتكاتفت هذه القوى ضده فما لان ولا استسلم بل قاوم وحارب وناضل حتى أجبرهم على توقيع شروط السلام والأمان. ولما أحس بأنهم غير جادين في احترام شروط السلام هددهم، ثم هاجمهم وهزمهم في أكثر من موقع، وظل يقاوم مدة عشرين عاما متصلة سجل خلالها العديد من الانتصارات وأجبر البريطانيين على استخدام الطيران لأول مرة في معارك القارة الأفريقية، ورغم كل هذا عجز البريطانيون عن القبض عليه حيا أو ميتا، وأخيرا سقط صريع المرض بعد أن أدى الواجب، وحمل الأمانة وصار بطلا للقومية الصومالية.

وفي الخاتمة استعراض لظروف وملابسات هذه الحركات الإسلامية في أفريقيا جنوب الصحراء، ومحاولة إيجاد أوجه التشابه بين هذه الحركات التي سادت في القرن التاسع عشر والربع الأول من القرن العشرين، وحاولت بقدر ما جمعت من وثائق أن أستجلي الحقائق من كفاح هؤلاء الزعماء المسلمين، وأرجو أن أكون قد وفقت في عرض هذه الشخصيات الإسلامية في هذا الإطار، وإن أخطأت فلي أجر المجتهد.

ولا يفوتني أن أقدم خالص الشكر إلى المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب على إعطائي فرصة لنشر هذا الكتاب الذي يعالج شخصيات إسلامية لعبت دورا في مقاومة التوسع الأوروبي، لكنها لم تجد حظها من المؤرخين الأوروبيين والعرب على حد سواء، وإسهام المجلس في نشر هذا الكتاب يعد إضافة حقيقية لتراث الأمة الإسلامية في القارة الأفريقية. كما أوجه الشكر للدكتور إبراهيم الجندي بجامعة عين شمس وعضو البعثة التعليمية بلندن على تجشمه عناء التعب في البحث معي، وفي تصوير معظم وثائق هذه الدراسة. وعلى الله قصد السبيل.

الاستعمار الأوروبي للقارة الأفريقية

(مؤتمر برلين 1884 - 1885 وآثاره)

تمهيد

من البديهي ونحن نعالج المقاومة الإسلامية للاستعمار الأوروبي للقارة الأفريقية أن نحدد بشكل سريع الملامح الرئيسة لذلك التكالب الاستعماري على القارة في أواخر القرن التاسع عشر، تلك الفترة التي توافقت مع جهاد زعماء المسلمين في القارة، وخصوصا في أفريقيا جنوب الصحراء ومحاولات زعماء حركات الجهاد أن ينشروا الدين الإسلامي الصحيح بعد قيام حركات الإصلاح والتجديد بزعامة الشيخ عثمان بن فودي في شمال نيجيريا وانتشار حركته على نطاق واسع، وتأثر العلماء المسلمين في غرب القارة بتلك الحركة الإصلاحية التي وجدت صداها في إمبراطورية الحاج عمر الفوتي التكروري وفي الحركة التي قادها الزعيم المسلم الشيخ محمد الأمين في بلاد التكرور وأيضا في حركة الجهاد الإسلامي للزعيم الإمام ساموري توري، ولم تتوقف هذه الحركة الإسلامية عند هذه المنطقة من غرب القارة بل امتدت إلى منطقة بحيرة

تشاد حيث ظهرت حركة زعيم آخر هو رابح فضل الله، وامتد هذا الأثر الجهادي إلى بلاد الصومال، بزعامة السيد محمد عبد الله حسن ومن الطبيعي أن تواجه هذه الحركات الإسلامية مقاومة عنيفة من الدول الاستعمارية التي كانت قد خططت لاستعمار القارة الأفريقية بعد مؤتمر برلين لعام 1884/1885. ونظرا لأهمية هذا المؤتمر في دفع عجلة التكالب على القارة فإنه من الضروري أن نسلط الأضواء على أوضاع القارة قبل انعقاد المؤتمر وظروف عقد هذا المؤتمر والآثار التي ترتبت عليه، وآثارها على القارة حتى تتضح خلفية الصراع حول القارة.

وإذا ما استعرضنا مواقف الدول الأوروبية قبيل عقد هذا المؤتمر الدولي الذي كان بعيد الأثر في القارة الأفريقية، وكان عاملا كبيرا في تقويض جهود زعماء القارة في حركتهم الإصلاحية لوجدنا أن دراسة كل دولة أوروبية ودورها في التعجيل بعقد هذا المؤتمر هو السبيل الأفضل لإلقاء الضوء على مرحلة التكالب الأوروبي على أفريقيا.

عندما حققت ألمانيا وحدتها بانتصارها على فرنسا ودخول جيوشها مدينة باريس لإجبار الفرنسيين على توقيع معاهدة فرانكفورت عام 1871 بدأت حركة ثورية حولت الشعب الألماني إلى شعب عملي يثق بقوة الحديد والنار. وكان لابد من، توجيه هذه القوة الفتية إلى ميادين الصناعة والتجارة، واستطاعت الحكومة الألمانية أن تضع سياسة صناعية موحدة بعد توجيه أموال التعويضات الحربية التي حصلت عليها من فرنسا إلى تمويل الصناعة، كما استفادت من الصناعات الناجحة في إقليمي الألزاس واللورين. ومن هنا بدأت الصناعة الألمانية تجد طريقا لها نحو الأسواق العالمية [1].

وصارت ألمانيا غنية بمواردها الاقتصادية والتجارية وازداد حماس الشباب الألماني فأخذوا يتطلعون بدورهم إلى الاستعمار والميادين الجديدة خارج بلادهم. لكن المستشار الألماني بسمارك وجد أن من الحكمة عدم تشتيت جهود شعبه ني الميادين الخارجية خوفا من فرنسا التي لا تزال قوية وتتطلع إلى استرداد ما ضاع منها، وخشية أن تثأر منه فرنسا رسم بسمارك سياسته على أساس البقاء قويا داخل القارة الأوروبية، وفي الوقت نفسه شجع فرنسا على التوجه نحو العالم الخارجي ونجحت هذه السياسة إلى حين، وتمكن بسمارك أيضا من عقد عدة تحالفات مع دول أوروبا

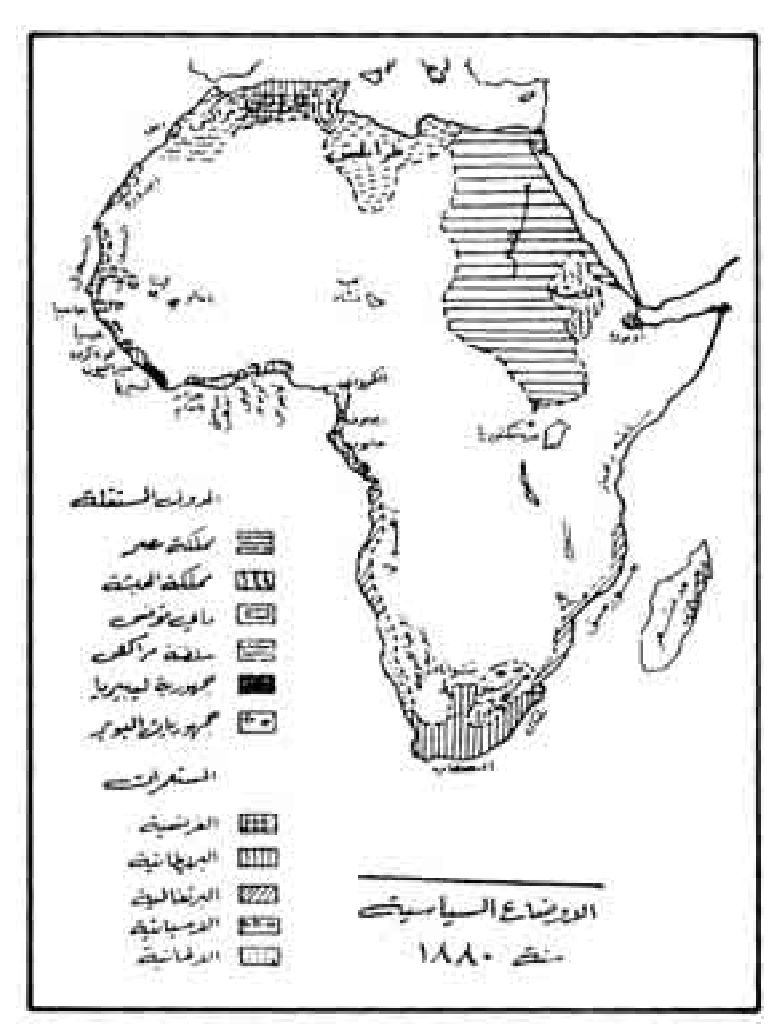
لحماية نفسه من الثأر الفرنسي، فأسس في عام 1879 التحالف الإمبراطوري الثلاثي من روسيا وألمانيا والنمسا، وانضمت إليه إيطاليا في عام 1882 [2].

لكن ألمانيا أحست أنه من أجل تحسين صناعتها وتطوير تجارتها، وقدراتها على المنافسة الدولية فلابد من البحث عن مستعمرات غنية توفر لها المواد الخام التي تتطلبها الصناعات الحديثة، وفي الوقت نفسه تجد السوق التي يمكن أن تصرف فيها هذه المنتجات. وكانت القارة الأفريقية هي المجال الحيوي الخصب أمام طموح الألمان خصوصا بعد أن عاد الرحالة والمستكشفون ونشروا رحلاتهم في مجلدات ضخمة كشفت الكثير من كنوز القارة ومواردها. ولم يكن أمام ألمانيا سوى التحرك السريع لأخذ نصيبها من هذه المواد الاستراتيجية للصناعات الحديثة [3].

ففي عام 1878 أنشئت الجمعية الألمانية للدراسات الأفريقية في مدينة برلين، وبدأ المستكشفون الألمان يعملون في المنطقة الواقعة بين زنجبار وتنجانيقا، وتكاتفت الجهود الألمانية لقيام مستعمرات لهم في القارة الأفريقية هذا في الوقت الذي عارض فيه بسمارك هذا الاتجاه خوفا من التورط في المشكلات الدولية، لكن أمام التيار الجارف نحو الاستعمار أعلن بسمارك عن سياسته الجديدة، وفي غضون عام واحد كون أربع مستعمرات في القارة الأفريقية في الفترة من أبريل عام 1884 حتى يوليه عام 1885، وشملت هذه المستعمرات كلا من تنجانيقا في شرق القارة، والكاميرون وتوجو في الغرب، ومنطقة جنوب غرب أفريقيا (حاليا ناميبيا) في جنوب القارة [4].

وكانت هذه السياسة التي أعلنها بسمارك فجأة قد أجبرت بريطانيا على تغييرسياسة الحياد والعزلة أمام هذه القوة الألمانية الناشئة، وبدأت في عهد دزرائيلي زعيم المحافظين سياسة خارجية نشطة لكي تخرج من عزلتها، وتعيد للشعب البريطاني مكانته على خريطة العالم السياسية، وكان بسمارك يدرك هذا الشعور البريطاني، ويحاول بقدر الإمكان إرضاء البريطانيين في تلك الحقبة من التنافس الاستعماري [5].

وتحركت بريطانيا في جنوب القارة الأفريقية أمام وسائل الضغط الفرنسية والألمانية ودخلت في صراعات مع الألمان في شرق القارة ومع الفرنسيين في غربها. فكان هذا بداية التكالب الأوروبي على القارة الأفريقية [6].


الدول المستقلة
مملكة مصر
مملكة الحبشة
باي تونس
سلطنة مراكش
جمهورية ليبيريا
جمهوريات البوير
المستعمرات
الفرنسية
البريطانية
البرتغالية
الاسبانية
الأوضاع السياسية
منذ ١٨٨٠

الشكل رقم (١)

وكان موقف فرنسا شبيها بالدول الأخرى حيث ظهرت عوامل جديدة ساهمت بشكل فعال في دفع فرنسا نحو الاستعمار، وتمثلت في الإنجازات التكنولوجية المشهورة في العالم، وفي الروح القومية التي تولدت لدى الشعب الفرنسي بعد هزيمته أمام الألمان في عام 1871، كما كان لفقدان الألزاس واللورين الأثر الكبير في إثارة الشعب الفرنسي نحو إظهار أنهم مازالوا أقوياء وقادرين على التوسع واستكمال مهمتهم الحضارية [7].

وبدأت هذه السياسة الفرنسية تؤتي أكلها في غرب أفريقيا حيث أخذ التجار الفرنسيون يشقون طريقهم إلى الداخل في حوض وادي السنغال بهدف ربط السنغال وأعالي النيجر بخط حديدي لكي تسيطر فرنسا على منتجات غرب القارة. وكان لهذا الإجراء أثره على المراكز التجارية البريطانية في جامبيا كما أنه يؤثر بشكل غير مباشر في الطرق التجارية المؤدية إلى سيراليون وساحل الذهب[8].

واضطرت بريطانيا إلى تقوية نفوذها القنصلي في غرب القارة خلال العقد السابع من القرن التاسع عشر. وكان لظهور الفرنسيين كقوة مؤثرة في مسرح الأحداث أثره في تغيير نظرة الساسة البريطانيين نحو المنطقة، وكان لابد من التكالب بين الدولتين. ومن هنا تبدأ مرحلة جديدة من الصراع بين الدول الأوروبية تجاه القارة الأفريقية.

وسوف نحاول التركيز على النشاط الأوروبي قبل عقد مؤتمر برلين لعام 1884/1885، ثم إبراز نتائج المؤتمر، وأخيرا آثار المؤتمر على الخريطة السياسية للقارة حتى تتضح أبعاد الصراع ويظهر الجهد الذي قام به الزعماء الأفارقة في تلك الفترة الحرجة من تقسيم القارة عشية انعقاد هذا المؤتمر الدولي.

أولا: نشاط الدول الأوروبية قبل انعقاد المؤتمر:

قبل انعقاد مؤتمر برلين لعام 1884/ 1885 كانت الدول ذات الأثر الفعال في تلك الفترة هي إنجلترا وفرنسا والبرتغال. وكانت البرتغال تدعى سيطرتها على مناطق شاسعة من القارة منذ أيام مجدها في فترة الكشوف الجغرافية في القرن السادس عشر، لكن احتلالها الفعلي لهذه المناطق لم يكن فعالا ومؤثرا وبدأت إنجلترا تعيد هذه الأمجاد في أذهان البرتغاليين

خصوصا بعد أن ظهرت نوايا الملك ليوبولد ملك بلجيكا في حوض نهر الكونغو. فشجعت بريطانيا دولة البرتغال على إحياء هذه الادعاءات القديمة في المنطقة ما بين خطي 512، ه حتى 58 جنوبا، بل راحت تسعى لعقد معاهدة معها في يوم 26 فبراير 1884. ورغم أن هذه المعاهدة قد لقيت معارضة قوية من جانب البرلمان البريطاني و لم يعتمدها. إلا أن مجرد تفكير بريطانيا في إعطاء هذه المنطقة الحيوية من أفريقيا كان عاملا قويا في دفع عجلة التكالب على القارة الأفريقية. بل أحدث تقاربا بين فرنسا وألمانيا للوقوف سويا ضد هذه المعاهدة البريطانية البرتغالية [9].

وكانت فرنسا قد استقرت في أوائل القرن التاسع عشر في الجزائر، ثم بدأت تبحث لها عن موضع قدم على الساحل الغربي من القارة، وازداد تطلعها نحو النيجر والجابون وقادها السعي نحو مناطق جديدة إلى بسط نفوذها على جزيرة مدغشقر. وكانت كل هذه الجهود سببا في أن تسلك بريطانيا أسلوبا متشابها حيث سيطرت على بعض المناطق في جنوب القارة حتى نهر أورانج وخليج دالجو في غرب أفريقيا. هذا إلى جانب السيطرة على بتشوانالاند. كما قامت بتدعيم نفوذها في مملكة المتابيلي بوسط القارة، وأخيرا مد السيطرة على منطقة زنجبار في الشرق [10].

وكانت إيطاليا تتطلع أيضا إلى السيطرة على بعض أجزاء من القارة الأفريقية، ووجدت المجال خصبا في الجانب الشرقي، فقامت بوضع قدم لها في منطقة خليج عصب شمال اوبوك، كما تطلعت إلى تونس وإلى طرابلس الغرب. وكانت تلك هي صورة الصراعات البسيطة قبل أن تفجر ألمانيا مشكلة التكالب على أفريقيا بعد الثورة الصناعية التي كانت تتطلب الحصول على مناطق المواد الخام وسوق لتصريف المنتجات الصناعية. وكانت الحاجة تتطلب أن تصبح منافذ القارة وخصوصا أنهارها حرة أمام جميع الدول. وزاد من عوامل التكالب السعي لبناء الإمبراطوريات وتحقيق الأمجاد القومية، وتطبيق نظريات العنصرية وسيادة الرجل الأبيض، ثم السيطرة وبسط النفوذ. كل هذه العوامل كانت كفيلة بخلق جو من الشكوك نحو نوايا الدول الأخرى التي يهمها الحفاظ على موارد القارة حرة أمام الجميع. وكانت هذه الشكوك التي ساورت الدول الأوروبية سببا في جعل الأوروبيين يسعون للجلوس سويا للتفاهم على مائدة المفاوضات على عملية

تنظيم التقسيم، وبشكل لا يحدث الفرقة والتعارض أو التصادم العسكري.

ودخلت بلجيكا هذه الحلبة من التنافس الاستعماري عندما أسس الرحالة ستانلي عدة محطات لملك بلجيكا ليوبولد بعد إنشاء المنطقة الدولية لاستكشاف القارة عام 1880. لكن نوايا هذا الملك وتحويل الهيئة الدولية إلى هيئة خاصة جعلت الدول الأخرى تنظر بعين الشك والريبة إلى تلك المحاولات للسيطرة على خامات نهر الكونغر، بل كانت هذه سببا في تفكير بريطانيا في تشجيع البرتغال على إحياء الادعاءات القديمة لها في مصب هذا النهر، كما كانت سببا في إرسال المستكشف الفرنسي دي برازا (De Braza) لاكتشاف بعض المناطق في حوضي النهر نفسه. وعجل هذا التكالب باحتلال فرنسا لتونس في عام 1881، وإنجلترا لمصر عام 1882[(11)].

وكان احتلال بريطانيا لمصر بداية التكالب على القارة كما يزعم بعض المؤرخين. ذلك لأن هذا الاحتلال قد دفع الدول الأوروبية نحو القارة في محاولة لبسط نفوذها على بعض المناطق الاستراتيجية حفاظا على توازن القوى. فكان احتلال مصر مقدمة لمرحلة من التكالب، وفاتحة عهد جديد في تاريخ القارة الأفريقية وإيذانا بموجة استعمارية أدخلت القارة في حسابات القوى الكبرى. ولم تتوقف عمليات التوسع الأوروبي إلا بعد تقسيم القارة إلى تلك الوحدات القزمية التي تعيش القارة في ظلها حتى يومنا هذا [(12)].

وخلاصة القول: إن هذه التصرفات من جانب بعض القوى الأوروبية وفي المناخ الذي سيطر عليه الشك والخوف تجاه القوى الأخرى أن بدأت الخيوط تتجمع والرؤيا تتضح نحو عقد مؤتمر دولي تناقش فيه كافة الاتجاهات ومختلف الزوايا التي يمكن على أساسها أن تبدأ مرحلة توزيع هذه القارة بخدماتها وثرواتها دون أي اعتبار لشعوبها. فانتهزت الدول الأوروبية عملية عقد المعاهدة بين بريطانيا والبرتغال في 26 فبراير 1884 لتكون الذريعة نحو الدعوة لعقد المؤتمر[(13)].

وبدأت ألمانيا تخطط لعقد هذا المؤتمر الدولي، وأخذت تتقارب من فرنسا عدوها التقليدي، وذلك من أجل حل مشكلات التقسيم وتنظيم عمليات التوزيع، ووجدت فرنسا في فكرة الألمان لعقد المؤتمر حلا مناسبا، فراحت تؤيد الاقتراح الذي فكر فيه بسمارك في يونيه عام 1884. وبالاتصال

بالدول الأوروبية صاحبة المصالح صار هناك شبه إجماع على الاشتراك في هذا المؤتمر الدولي حتى بريطانيا التي لم تعلم إلا مؤخرا بهذه المساعي الألمانية الفرنسية وافقت أيضا على حضور المؤتمر.

وبدأت سلسلة من الاتصالات بين الألمان والفرنسيين انتهت بموافقة فرنسا على مقترحات الألمان بشأن بنود المؤتمر في 17 أغسطس 1884 وتضمنت هذه الأسس:

أولا: حرية التجارة والملاحة في حوض نهر الكونغو.

ثانيا: تطبيق مبادئ مؤتمر فينا عام 1815 بشأن حرية الملاحة في الأنهار الدولية.

ثالثا: وضع أسس جديدة للمناطق التي يتم احتلالها في المستقبل [14].

ووافقت القوى الأوروبية على عقد المؤتمر الدولي في مدينة برلين، وبالفعل عقد المؤتمر في 15 نوفمبر عام 1884.

ثانيا: المؤتمر وأهم إنجازاته:

انعقد المؤتمر في مدينة برلين في الفترة من 5 1 نوفمبر 1884 إلى 26 فبراير 1885، وحضره مندوبو أربع عشرة دولة هي النمسا، والمجر، وألمانيا، وبلجيكا، وإيطاليا، وهولندا، والبرتغال، وروسيا، وإسبانيا، والسويد، والنرويج، وتركيا، والولايات المتحدة، وبريطانيا، عقد هذا المؤتمر عشر جلسات كاملة، بدأت الجلسة الأولى في 15 نوفمبر وانتهت الجلسة الأخيرة في 26 فبراير 1885، وهو تاريخ الذكرى السنوية الأولى لتوقيع المعاهدة البرتغالية. وصدرت قرارات المؤتمر في شكل ميثاق عام (General Act) تضمن ثماني وثلاثين مادة، ووقعه ممثلو الدول المشتركة في المؤتمر ماعدا الولايات المتحدة الأمريكية. ونصت المادة (38) من ميثاق المؤتمر على أن المواد التي تعتمدها الدول المشتركة سوف تصبح سارية المفعول بعد اعتمادها من كافة الدول.

وناقش المؤتمر خلال جلساته الرئيسة مسألة حرية التجارة في حوض نهر الكونغو، وهي القضية التي استغرق بحثها حوالي أسبوعين، وانتقل المؤتمر بعد ذلك إلى بحث قضية حرية الملاحة في حوض نهر الكونغو والنيجر واستغرقت شهرا كاملا، ثم تأجلت الجلسات بسبب أعياد رأس السنة الميلادية، وعاد المؤتمر ليستأنف أعماله مرة أخرى في السابع من يناير حيث بحث قضية شروط الاحتلال في المستقبل. وبعد مناقشات بين

الوفود تمت الموافقة النهائية على مواد الاحتلال الفعلي على أن تكون في فصل مستقل من المرسوم النهائي [15].

وهكذا تم في مدينة برلين ومن دون حضور ممثلين عن الدول الأفريقية وضع أسس تقسيم القارة الأفريقية، ذلك التقسيم الذي لم يضع في الاعتبار توزيعات القبائل والعشائر، فحول أفريقيا إلى وحدات قزمية صغيرة صارت الأساس للحدود الأفريقية الحالية [16].

وقد نجح المؤتمر في تحقيق هدفين أساسيين هما:

أولا: قيام دولة حرة كبرى في قلب أفريقيا الاستوائية تكون من الناحية الاسمية مفتوحة لكل الشعوب، وبعيدة عن المنافسات الدولية.

ثانيا: وضع المؤتمر أسس التنظيمات الاقتصادية المتعلقة بالمناطق الداخلية في القارة، وقد أيّد المؤتمر في قراراته في مبادئ الحرية والمنافسة الشريفة على عكس النظم الاستعمارية البالية، كما أتاح المؤتمر الفرصة لتقسيم القارة شمالي وجنوبي خط الاستواء بطريقة لا تحدث خلافات طاحنة بين الدول الاستعمارية كتلك التي صاحبت استعمار الأمريكتين، حيث تم تقسيم القارة بشكل سليم. وترى سابيل كرو (Sabyle Crowe) أستاذة القانون الدولي أن المؤتمر حاول أن ينظم العلاقات بين القوى الاستعمارية على أسس قانونية محددة، ولكن الذي حدث هو دفع عجلة التكالب الاستعماري على القارة الأفريقية، وأسفر في النهاية عن احتكار الدول الكبرى للتجارة في المناطق التي خضعت لنفوذها في تلك الجهات [17].

وهكذا نجد أن هذا المؤتمر قد قسم القارة الأفريقية بشكل ينسجم مع مواقف الدول الأوروبية، وأعطى المؤتمر اعترافا دوليا لموقف كان موجودا بالفعل، حيث بدأت الدول بعد المؤتمر التكالب على القارة بشكل سريع. وهذا التكالب يعني بالضرورة الاحتكاك بالقوى الوطنية الأفريقية التي كانت هي الأخرى تسعى لتوحيد الكلمة حول حركات إصلاحية إسلامية. فشهدت أفريقيا في الربع الأخير من القرن التاسع عشر تلك السلسلة المستمرة من الحروب بين القوى الإسلامية والدول الأوروبية التي سعت من أجل الاحتلال الفعلي لأقاليم القارة حسب قرارات مؤتمر برلين. وكان الالتحام أمرا محتما، وكان الصدام بين المسلمين والمسيحيين ظاهرة بارزة في تاريخ أفريقيا في أواخر القرن التاسع عشر، ولم يتوقف الصدام حتى

قيام الحرب العالمية الأولى. ومن هنا تظهر قيمة الكفاح الأفريقي المسلح وتتضح الجهود التي بذلها الأفارقة وقواد الجهاد الإسلامي في مقاومة هذه الهجمة الاستعمارية على كل أرجاء القارة وخصوصا في أفريقيا جنوب الصحراء، حيث بدأت المواجهة بين زعماء المسلمين وقوى الدول الأوروبية التي كانت تسعى لوضع أسس الاحتلال الفعلي موضع التنفيذ، وهو ما سنوضحه خلال ثنايا هذا الكتاب. ثالثا: خريطة القارة السياسية بعد المؤتمر:

بعد أن وضعت الدول المشتركة في المؤتمر أسس تقسيم القارة الأفريقية بدأت الدول الأوروبية خطتها لتقسيم القارة، فوجدنا أن بريطانيا بدأت في يونيه 1885 تكوين محمية لها على ساحل النيجر، وفي تلك المنطقة الواقعة بين لاجوس والكاميرون، ثم توسعت شمالا لتصل إلى الدول الإسلامية في إمبراطورية الفولاني ودخولها في صراع مع هذه الدول الإسلامية [18].

وفي يونيه من عام 1885 كانت ألمانيا قد وقعت اتفاقية مع توجو، وضعت بمقتضاها مناطق ملك توجو الواقعة على الساحل الغربي لأفريقيا حتى لومي (Lome) تحت الحماية الألمانية، ثم قامت بتثبيت أقدامها وتوطيد نفوذها هناك [19].

ولما تولى سالسبوري (Salisbury) الوزارة البريطانية في عام 1885 كان أول الأعمال التي قام بها هي فتح المجال نحو التوسع شمالا من مستعمرة الكاب بإعلان الحماية البريطانية على بتشوانالاند، وهي منطقة صحراوية كبيرة تقع بين أفريقيا الجنوبية الغربية الألمانية وجمهورية البوير في الترنسفال المعروفة آنذاك بجمهورية جنوب أفريقيا [20].

ازدادت أهمية هذه المنطقة باكتشاف مناجم الذهب الضخمة في عام 1886 في منطقة ويتوترستراند (Witwaterstrand) في الترنسفال، وكانت بتشوانالاند بمثابة قناة السويس نحو الشمال، والتي عن طريقها أمكن نقل جماعة من المستوطنين البيض الذين احتلوا روديسيا الجنوبية [21].

وقام سالسبوري بالتفاوض مع الألمان في عام 1886 على تقسيم مناطق النفوذ إلى قسمين: أحدهما لبريطانيا والآخر لألمانيا، حيث تم توقيع سلسلة من المعاهدات لتسوية الحدود اعترفت ألمانيا بمقتضاها بادعاءات بريطانيا في زنجبار، وكينيا، وأوغندة، وروديسيا الشمالية، وبتشوانالاند، وشرق

أفريقيا [22].

أما فرنسا فقد قامت بعقد معاهدة مع حكومة الكونغو على أن يكون نهر اوبانجي (Ubanghi) فرع الكونغو الغربي هو الحد الفاصل بين الحدود الفرنسية وحدود دولة الكونغو، واعتبرت المنطقة شماله منطقة فرنسية. وأما المنطقة الجنوبية فكانت من نصيب دولة الكونغو الحرة. وفي عام 1890 وقّع سالسبوري معاهدة مع فرنسا بخصوص الحد الغربي لنيجيريا في مقابل اعتراف بريطانيا بالمحمية الفرنسية في مدغشقر. وفي العام التالي وقعت بريطانيا اتفاقية مع البرتغال بخصوص سالاند (ملاوي الآن)، وروديسيا الشمالية والجنوبية. وهكذا رسمت بريطانيا سياستها العريضة حيال القارة الأفريقية، وذلك قبل أن يسقط سالسبوري في عام 1892. وقد تضمنت هذه السياسة الاستمرار في احتلال مصر مع تحديد مناطق النفوذ البريطاني في غرب القارة، والتي اقتصرت فقط على أربع مستعمرات هي جمبيا، وسيراليون، وغانا، ونيجيريا، ووجدت بريطانيا في التوسع نحو الشمال من أفريقيا الجنوبية البريطانية عن طريق بتشوانالاند جنوب روديسيا، ونياسالاند تعويضا لما فقدته في غرب القارة. وكانت هذه السياسة هي ما أطلق عليه مد المستعمرات البريطانية من الكاب جنوبا حتى القاهرة شمالا بخط سكة حديدية يمر في وسط المستعمرات البريطانية المتصلة. وكان سالسبوري يرى ضرورة قيام المشروعات التجارية دون التدخل في مناوشات حربية مع القوى الأخرى [23].

وتعتبر الفترة من عام 1891 حتى قيام الحرب العالمية الأولى سنوات الحرب في أفريقيا، حيث كانت الحملات الحربية هنا وهناك، وشهدت هذه الفترة استرداد السودان، والحرب بين إيطاليا والحبشة، وحروب جنوب أفريقيا، والحروب بين إمبراطورية التوكولور والفرنسيين، وكذلك حروب الإمام ساموري مع الفرنسيين، وأيضا حروب الشيخ المجاهد محمد الأمين ضد الفرنسيين، كما شهدت هذه الفترة أيضا حروب المجاهدين المسلمين ضد القوى الأوروبية، حيث جهاد الخلفاء في دولة سوكوتو ضد التوسع البريطاني بزعامة اللورد لوجارد حتى سقطت هذه الدولة في عام 1903، وكذلك صراع السيد محمد عبد الله حسن زعيم الجهاد في الصومال ضد القوى الأجنبية في بلاد الصومال منذ عام 1899 حتى عام 1920. ولا ننسى

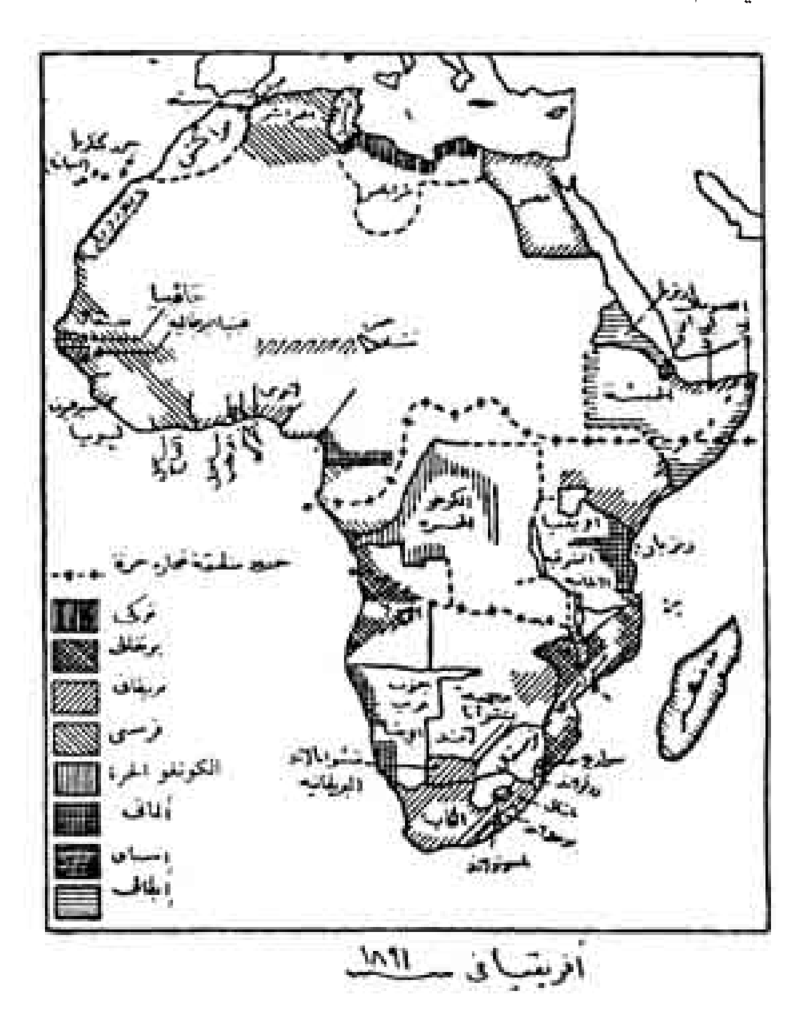
في هذا المقام حروب رابح فضل الله ضد الفرنسيين في منطقة بحيرة تشاد. وكل هذه الحروب حملت في طياتها الطابع الديني والجهاد الإسلامي ضد القوى الأوروبية التي راحت تبسط نفوذها على أجزاء القارة الأفريقية. وهو ما سنوضحه في ثنايا هذا الكتاب.

ففي عام 1893 مثلا تأسست مستعمرات فرنسية في ساحل العاج، وفي غينيا الاستوائية، ودخلت القوات الفرنسية داهومي وعزلت ملكها ويدعى ببهانزن (Behanzin)، وهو آخر ملوكها المستقلين، وصارت داهومي مستعمرة فرنسية في أوائل عام 1900.

وبدأ التوسع الفرنسي الكبير في غرب أفريقيا في حوض نهر السنغال، حيث التقت القوات الفرنسية بإمبراطورية التوكولور بزعامة أحمدو شيخو نجل الحاج عمر الفوني التكروري زعيم الطريقة التيجانية في القارة الأفريقية وخليفة والده في حكم الإمبراطورية، واستمرت الاشتباكات بين القوات الفرنسية وقوات الشيخ أحمدو حتى انهارت هذه الإمبراطورية، ودخل الفرنسيون وادي النيجر الأعلى، واستولوا على باماكو في عام 1883، كما التقت مجموعة من الفرنسيين بساموري توري أحد قواد المسلمين من بلاد الماندنجو الذي نجح في عام 1870، وبعد سلسلة من الغزوات، في توحيد قبائل الماندنجو في المنطقة الشاسعة ما بين حوض نهري الفولتا العليا والنيجر، وصار خصما عنيدا للفرنسيين. ورغم احتلالهم لمعظم مناطقه في عام 1891 إلا أنه لم يهزم نهائيا إلا في عام 1898 [24].

وفي عام 1894 استولى الفرنسيون على مدينة تمبكت، واستولوا على ساي (Say)، ولكنهم وجدوا مقاومة من القوى الوطنية، كما وجدوا معارضة من بريطانيا صاحبة الادعاءات في هذه المناطق، فبعد أن تولى تشامبرلين مسؤولية وزارة المستعمرات في عام 1895 أدرك أن شركة النيجر الملكية عاجزة عن مجاراة المنافسة الفرنسية في هذه المنطقة التي كانت قد امتدت إلى برجو (Borgu)، ولبتاكو (Liptako)، وساي (Say) وهي مناطق قريبة من مجال النفوذ البريطاني في دولة سوكوتو. فبمجرد احتلال الفرنسيين لبرجو عين تشامبرلين الكابتن فريدرك لوجارد (F.Lugard) في عام 1897 ليتولى الإشراف على قوة حدود غرب أفريقيا (West Africa Frontier Forces) التي استطاعت السيطرة على هذه المنطقة، وضمها إلى التاج البريطاني بعد أن

وقعت معاهدة مع فرنسا في 14 يونيه 1898 قبل الفرنسيون بمقتضاها ادعاءات بريطانيا في دولة سوكوتو. وبعد عامين تولت الحكومة الإشراف على نيجيريا الشمالية، وهذا يعني الدخول في صراع مع الدولة الإسلامية في سوكوتو، وهو الصراع الذي استمر ثلاث سنوات متصلة من الكفاح والنضال الإسلامي المشرف ضد القوى الأوروبية حتى سقطت دولة سوكوتو في عام 1903 [25].



أفريقيا في ١٨٩١

ولقد سوّت بريطانيا مشكلاتها مع فرنسا في غرب القارة، وصار من المتفق عليه أن تستولي فرنسا على المناطق الداخلية فيما وراء الجزائر حتى الحدود الشمالية لمجال نفوذ شركة النيجر الملكية، وتمتد إلى الجانب الغربي من بحيرة تشاد [26]. وكانت فرنسا حريصة على عدم تدخل أي قوة أوروبية ما بين ممتلكاتها في شمال أفريقيا وإمبراطوريتها في النيجر، وفعلا حصلت فرنسا في عام 1890 على اعتراف الحكومة البريطانية بامتداد مجال النفوذ الفرنسي إلى الساحل الشمالي الغربي من بحيرة تشاد والنيجر.

وفي عام 1898 بدأت الحملات الفرنسية لاحتلال مناطق السودان الأوسط والشمالي، وقامت ثلاث حملات فرنسية لتنفيذ هذه الخطة، حيث تحركت الحملة الأولى من بلاد الجزائر بقيادة الكابتن لامي (Lamy)، وتحركت الثانية من الكونغو الفرنسي، وتحركت الثالثة من السنغال بقيادة الكابتن فوليت والكابتن شانون [27](Foulet and Chanoine).

وبالطبع أدى إرسال هذه الحملات إلى الدخول في صراعات مع زعيم الجهاد الإسلامي في تلك المنطقة وهو رابح فضل الله الذي دخل في اشتباكات عديدة مع الحملات الفرنسية، وكبد الفرنسيين خسائر كبيرة في الأرواح والمعدات.

وفي أول فبراير عام 1953 وقعت فرنسا معاهدة مع بريطانيا لرسم خط الحدود بين الحد الغربي لساحل الذهب والخط الشرقي لساحل العاج، كما وقعت بريطانيا في العام نفسه معاهدة مع ألمانيا بشأن الحدود بين منطقة يولا (Yola) وبحيرة تشاد [28].

وفي 8 أبريل 1904 أبرمت بريطانيا وفرنسا اتفاقيتين: الأولى بشأن نيوفوندلاند وغرب ووسط أفريقيا، والثانية بشأن تحسين العلاقة بين الدولتين، وهو ما نطلق عليه الاتفاق الودي، ذلك الاتفاق الذي أعلنت فيه فرنسا بأنها لن تعرقل عمل إنجلترا في مصر مقابل إعلان بريطانيا أنها لن تعرقل أعمال فرنسا في مراكش [29]. وفي عام 1904 أيضا وقعت ألمانيا معاهدة مع بريطانيا بشأن الحدود بين ساحل الذهب وتوجولاند [30].

وهكذا نجد أن مؤتمر برلين جاء تتويجا لجهود ومحاولات القوى الأوروبية لتنظيم عمليات التكالب والسيطرة على القارة الأفريقية، ويعتبر هذا المؤتمر خاتمة المطاف لذلك الصراع الدولي على تلك القارة. كما أنه ثمرة من ثمار

الدبلوماسية الأوروبية في تكالبها للسيطرة على القارة برمتها، وتكشف لنا النظرة الشمولية لخريطة أفريقيا قبل انعقاد المؤتمر أن حوالي ١٠٪ من مساحة أفريقيا كانت تحت السيطرة الاستعمارية، ويتمثل هذا الجزء الضئيل في سيطرة فرنسا على الجزائر، وبريطانيا على حوالي مائة وثلاثين ألف ميل مربع في جنوب القارة. ولكن الصورة تغيرت تماما بعد المؤتمر حتى أنه في أقل من عشرين عاما بعد عقد المؤتمر استولى الأوروبيون على الجزء الباقي من القارة باستثناء مراكش وطرابلس.

وهكذا غيّر مؤتمر برلين الملامح الرئيسة لتلك القارة الأفريقية بعد أن نظمت عمليات السيطرة، وتنتهي بذلك قصة الصراع الأوروبي على أفريقيا، وتظل بصمات هذا المؤتمر وآثاره السياسية تنعكس على القارة الأفريقية حتى بعد استقلالها، وستظل مشكلات الحدود الأفريقية بشكلها الراهن، وهي ثمار مؤتمر برلين لعام 1884/ 1885، من أبرز المشكلات التي تواجه أبناء أفريقيا في مسيرة التقدم الاقتصادي والاستغلال الوطني لمواردهم التي مزقها الأوروبيون، واستغلوها بشكل سيئ طوال الحقبة الاستعمارية.

لكن إذا كانت الدول الأوروبية قد سوت مشكلاتها مع بعضها، وقسمت القارة فيما بينها فإن هذه القوى نسيت أن القارة الأفريقية غنية بأبنائها وخصوصا من المسلمين الذين واجهوا هذه القوى الأوروبية، وأعلنوا الجهاد ضد هؤلاء الغزاة، ولم تجد الجيوش الأوروبية الطريق مفروشا بالورود، بل واجهت أوروبا مقاومة إسلامية قوية. وكانت هذه المقاومة الإسلامية هي الموضوع الرئيس لفصول هذا الكتاب الذي سيعالج بعض نماذج المقاومة الأفريقية للاستعمار الأوروبي أثناء التكالب على القارة مع التركيز على زعماء القارة في أفريقيا جنوب الصحراء حتى نقدم بالدليل القاطع صورة حية لتلك المقاومة الأفريقية التي أغفلها الأوروبيون وهم يسجلون تاريخ القارة الأفريقية، والتي تحتاج إلى إعادة النظر فيما عرضه الأوروبيون لإعطاء زعماء القارة حقهم الطبيعي دون تحيز أو إطراء لتلك الزعامات الوطنية الإسلامية التي كان لجهودها الفضل الأكبر في الإبقاء على الدين الإسلامي وحضارته في هذه القارة حتى يومنا هذا.

١ المسلمون والغزو الأوروبي لإمبراطورية الفولاني

انتشر الإسلام في غرب أفريقيا بفضل هجرات القبائل العربية وقبائل البربر التي أخذت تهاجر إلى غرب القارة، وتبسط نفوذها هناك، وخصوصا قبائل بنى هلال وبنى سليم، تلك القبائل التي تقدمت تجاه الصحراء الكبرى باحثة عن ظروف تتشابه مع الحياة السائدة في بيئتها الأصلية في الجزيرة العربية، وترتب على هذا التحرك وتلك الهجرات أن اضطرت القبائل المحلية من البربر والزنوج إلى التوسع جنوبا بعد اعتناقها الدين الإسلامي، فتحركت قبيلة جدالة جنوباً وعبرت نهر النيجر في طريقها إلى السودان الغربي. وكانت هذه القبائل حلقة الاتصال بين المغرب بشعوبه وثقافته والمحيط الزنجي الذي يمتد حتى بحيرة تشاد [١]. ولما قامت دولة المرابطين في شمال أفريقيا كونت جبهة إسلامية قوية امتدت من غرب أفريقيا إلى بلاد المغرب والأندلس، وكان لها فضل كبير في انتشار الإسلام في هذه الجهات، وانتشر دعاة المرابطين من السنغال إلى غينيا حتى ساحل العاج والنيجر، ودخلوا إمبراطورية غانا الوثنية في

النصف الثاني من القرن إلحادي عشر أي في عام 1076 وفتحوها، وصارت إمبراطورية إسلامية حتى انتهت في القرن الثالث عشر. ولما أسلمت اشتهرأهلها بالحماس الديني، وصاروا دعاة الإسلام في السودان الغربي[1].

ولما انتهت إمبراطورية غانا الإسلامية قامت على آثارها إمبراطورية أخرى هي دولة مالى التي ساعدت على نشر الإسلام وحضارته، وذهب ملوكها إلى بيت الله الحرام وسط مظاهر كبيرة، وطافوا ببلاد إسلامية في رحلتهم حاملين معهم الإسلام في كل مكان حلوا به، ولا ننسى موكب منسى موسى (1307-1332 م) ذلك الموكب الذي مر على مصر عام 1324 م، وأصبح هذا السلطان من دعاة الإسلام حيث امتد بدولته إلى مدينة جاو في النيجر، بل اخترق الصحراء وتوغل في المنطقة الاستوائية جنوبا [2]. لكن انتهت هذه الدولة الإسلامية لتقوم على أنقاضها دولة أخرى هي دولة صنغى التي حملت أيضا لواء الإسلام وتوسعت جنوبا، ولولا الغزو المغربي لها في أواخر القرن السادس عشر لكان لهذه الدولة شأن كبير في نشر الإسلام في بلاد الزنوج [2]. وبعد انتشار الإسلام في هذه الجهات بدأت قبائل الفولاني تقوم بدور كبير في نشر الدين الحنيف، وصار دور الفولاني لا يقل أهمية عن دور الممالك الإسلامية السابقة، واختلف المؤرخون حول أصل هذا الشعب، وانقسموا شيعا وأحزابا، فيرى ديبوى (Dubois) أن الفولاني من البربر، وأنهم انحدروا من منطقة أدرار شمال السنغال، واندفعوا إلى السودان الغربي بعد طرد المسلمين من الأندلس، واشتغلوا بالزراعة والرعي[4].

ويرى سلجمان (Seligman) أن الفولاني قد انتشروا بالتدريج في السودان الغربي وأعالي السنغال خلال ازدهار إمبراطورية غانا، وأنهم شقوا طريقهم إلى بلاد الهوصا في نهاية القرن الثالث عشر الميلادي، وصاروا قوة مسيطرة بعد نجاح حركة الجهاد الفولاني بزعامة الشيخ عثمان بن فودى عام 1804[5].

ومهما اختلفت الآراء حول أصل الشعب الفولاني فإن الذي يهمنا هو أن هذا الشعب، بعد تفكك دولة صنغى ساد منطقة السودان الغربي فترة من الفوضى استمرت حوالي قرنين من الزمان تعرض فيها المسلمون لكثير من ألوان الاضطهاد حتى نهض الفولاني بثورتهم الكبرى مع إشراقة القرن التاسع عشر [1].

وفي النصف الثاني من القرن الثامن عشر استطاعت إحدى إمارات

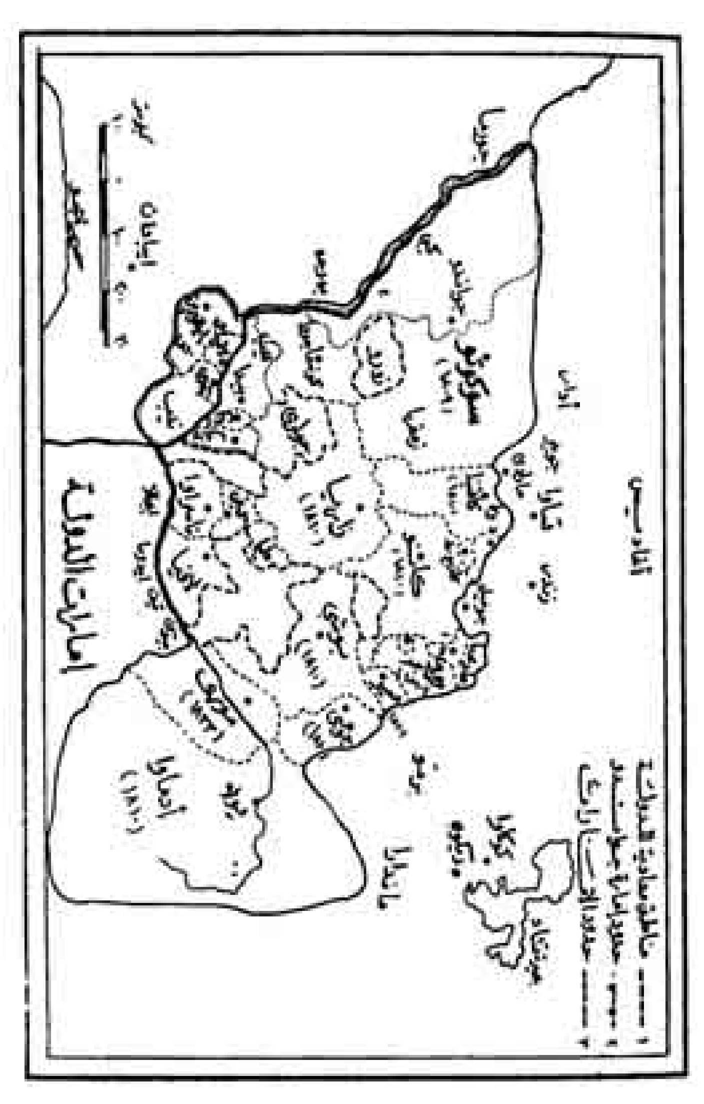
الهوصا، وتدعى إمارة جوبير، أن تنتزع السيادة من إمارة زمفرا، وصارعت إمارات أخرى مثل كيبي، وكاتسينا، وكانو وامتدت جيوشها حتى دولة برنو. ورغم كل هذا التوسع لم تستطع أن تحقق الوحدة السياسية لإمارات الهوصا لأن كل إمارة تحاول السيادة على غيرها. وكل ما فعلته إمارة جوبير هو السيطرة إلى حين على الإمارات الأخرى [2].

وخلاصة القول: إن الصراع بين إمارات بلاد الهوصا لم يساعد إلا على التفرقة وعدم الاستقرار، وعدم التركيز على النواحي الثقافية أو الدينية. فصار الدين الإسلامي غريبا بين السكان، واختلطت العادات الوثنية بالتقاليد الإسلامية، وصار الحكام يحملون لقب المسلمين شكلا دون فهم واع لأصول هذا الدين [3]. وعندما أحس أحد أبناء الفولاني المسلمين بما ألم بالدين على أيدي هؤلاء الحكام شبه الوثنيين أعلن الجهاد في سبيل الله لإعادة الدين الإسلامي إلى أصوله وقواعده، وصارت إمارة جوبير هي الساحة التي انطلقت منها هذه الثورة الإسلامية الكبرى التي غيرت مجرى حياة السكان، وأعادت للدين الإسلامي هناك مكانة لم يحققها في القرون السابقة، وصار الجهاد الفولاني لإخماد البدعة وإحياء السنة هو العمل الكبير الذي قام به الداعية والمجاهد عثمان بن فودى [1].

ويجدر بنا أن نتوقف قليلا لنستعرض سيرة هذا الزعيم الذي كان له ولحركته الإسلامية فضل كبير في نشر الدين الإسلامي على نطاق واسع في غرب أفريقيا. وما زالت نيجيريا الإسلامية تدين حتى يومنا هذا لحركة ذلك المجاهد الذي جعلها أكبر دولة إسلامية في غرب أفريقيا، بل في أفريقيا بأسرها. ولم يتوقف جهاد هذا الرجل عند حدود إعلان حرب على الوثنيين، بل تعداه إلى إقامة دولة إسلامية حملت لقب الخلافة الإسلامية في سوكوتو، وظل أبناؤه يحكمون في هذه الدولة الواسعة طوال قرن من الزمان، وكان لأحفاده شرف النضال والكفاح ضد الأوروبيين الذين جاءوا غازين ديار الإسلام والمسلمين، فكانوا حماة الدين، وشهداء العقيدة الإسلامية في أوائل القرن العشرين [2].

ظهور الشيخ عثمان وإعلان الجهاد:

لقد كان ظهور الشيخ عثمان بن فودى في إمارة جوبير إيذانا بقيام دولة



الشكل رقم (3)

إسلامية في غرب أفريقيا. ولد هذا الشيخ في مكان يدعى مارتا (Marta) في أرض جالمى بإمارة جوبير في 15 ديسمبر عام 1754، واشتهر والده باسم فوديو أو فودي (Fodi) التي تعنى بلغة الفولاني «المتعلم»، وانتقلت أسرته إلى ديجل (Degel) حيث حفظ القرآن الكريم، وعاش في بيئة متدينة. وعندما بلغ مرحلة الشباب تفتح عقله وازدادت مداركه، واندهش لحال المسلمين في تلك الجهات حيث ظهر الدين أمامه وقد شابته البدع، واختلطت به الخرافات، وعبثت به أيدي المضللين [3].

ولما بلغ العشرين من عمره بدأ حلقات التعليم، وسلك طريق القادريين، حيث كانت الطريقة القادرية أكثر انتشارا في غرب أفريقيا، ويصفه ابنه محمد بلو في كتاب «إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور» أن والده نشأ عفيفا متدينا، ذا خصال مرضية، وهو عالم العلماء ورافع لواء الدين، أحيا السنة وأمات البدعة، ونشر العلوم وكشف الغموم، وبهر علمه العقول، وكان فصيحا، فاضلا، حسن الخلق، جميل العشرة [1].

الحديث عن الشيخ طويل، وحياته حافلة بالنضال والكفاح لأنه وهب نفسه لخدمة الدين الإسلامي، وأعلن حربا لا هوادة فيها على المشركين، ولكن سنحاول التركيز على دوره الجهادي والأحداث التي جعلت منه قطبا لكل أفريقيا الغربية. فبعد أن حفظ كتاب الله واهتدى بسنته، واحتك بعلماء عصره، سواء بطريق مباشر، أو غير مباشر توافدت عليه جموع المسلمين وازداد أتباعه يوما بعد يوم، الأمر الذي أقلق مضجع أمير جوبير فحاول اعتراض طريقة، ولكن أحس بخطورة الموقف فانحنى للعاصفة وترك الشيخ وسبيله [2]، بل وافق على قيام مجتمع إسلامي في مدينة ديجل من دون أن يتعرض للشيخ وأتباعه لأنه أحس أن الشيخ عثمان لم يهيئ نفسه لملك أو سلطان، بل كان عاكفا على العلم والتعليم [3].

مات حاكم إمارة جوبير وجاء من بعده حاكم آخر يدعى نافاتا، فأدرك قوة أتباع الشيخ عثمان، وأحس بالخطر على ملكه، فما كان منه إلا أن أصدر مرسوما يتضمن من الأمور ثلاثة:

أولها: عدم السماح لأي شخص باعتناق الدين الإسلامي إلا من ورثه عن أجداده.

وثانيها: لا يسمح لأحد بلبس العمامة بعد تاريخ المرسوم، وألا تضرب

امرأة بخمارها على وجهها.

وثالثها: عدم السماح لأحد بالوعظ إلا الشيخ عثمان نفسه [1].

وإذا حللنا بنود هذا المرسوم النافاتي نجد أنه حركة للحد من نشاط الشيخ وعدم السماح لدخول أناس جدد لا الدعوة المحمدية، وعودة النساء إلى السفور والخروج عن تقاليد الشريعة الإسلامية، وقصر الوعظ على الشيخ نفسه، وكل هذه الأمور تعرقل مسيرة الكفاح والجهاد، ونشر الدعوة [2].

كان من الطبيعي أن يعارض فريق من أتباع الشيخ هذه الأوامر، وخصوصا عبد الله بن فودى الأخ الأصغر للشيخ وساعده الأيمن في حركته الإصلاحية، فقرر الوقوف بعنف ضد هذه الإجراءات مهما كلفهم ذلك من مشاق، لكن الشيخ عثمان عارض استخدام القوة لأنه في بداية طريق طويل، ولا يريد الدخول في صراع مع الطبقة الحاكمة حتى لا تتشتت جهوده وتتبدد محاولاته، وينصرف عن هدفه الأسمى وهو إعلاء كلمة الدين، ورفع راية الإسلام والمسلمين خفاقة بين السكان الوثنيين. وفي الوقت نفسه أدرك الشيخ أن الصدام مع الحكام مؤجل إلى حين، وأن الوقت لم يحن للقضاء على أعداء الدين، فقبل المرسوم وهو يعلم علم اليقين أن الدائرة سوف تحل على هؤلاء المشركين لأنه يؤمن بانتشار الدعوة الإسلامية بالطرائق السلمية حتى يحين الوقت لإعلان الجهاد المسلح ضد كل من يقف في سبيل الله والدين [3].

كان هذا المرسوم بداية مرحلة جديدة من جهاد المسلمين في غرب أفريقيا. ويعتبره بعض المؤرخين الطلقة الأولى التي أشعلت نار الجهاد، لكن شاءت الأقدار أن يموت هذا الحاكم بعد قليل من إصدار مرسومه في عام 1803. وخلفه ابنه يونفا (Yunfa) أحد تلاميذ الشيخ عثمان، ووعد الحاكم الجديد بإلغاء ما جاء في المرسوم وإطاعة أوامر أستاذه، والسماح له بحرية الوعظ والإرشاد. لكن هذا الحاكم شعر بخطر الشيخ فانقلب رأسا على عقب، ووصلت به الحال إلى التفكير في قتل سيده وأستاذه، والتآمر على أتباعه وأعوانه، وتعقدت الأمور وازدادت العلاقات سوءا بعد رفض الشيخ أن يسلم أحد رجاله ويدعى عبد السلام لهذا الحاكم الجوبيرى الذي هاجم بلدة عبد السلام، وقتل الناس وهم نيام في شهر الصيام.

وتمادى هذا الحاكم في إذلال المسلمين وعلى رأسهم الشيخ عثمان حيث طلب منه ترك الجماعة، والعيش في المنفى وحيدا [1].

لكن الشيخ رفض ترك جماعته، وقرر التحرك بهم إلى مكان بعيد يدعى جودو (Gudu). وهنا أصدر الحاكم أمرا بالقبض على الشيخ، وطلب من حكام الإمارات قتل المسلمين ومصادرة أموالهم، وغزو القرى الإسلامية، ونهب ما فيها. فكان هذا العمل بداية الجهاد وإعلان قيام الإمبراطورية الإسلامية [2].

بعد أن صار الشيخ قائدا وإماما لجماعة من المسلمين من الفولاني الذين وجدوا فيه ارتفاعا لشأنهم، وتمجيدا لآمال طالما كانوا يحلمون بها فصاروا عدته وسلاحه ضد قوى البغي والضلال [3].

إعلان الجهاد وبداية تأسيس الدولة الإسلامية:

كانت الهجرة إلى مدينة جودو بداية تأسيس إمبراطورية الفولاني التي اتخذت من مدينة سوكوتو عاصمة لها، وأخذ الشيخ معه الأنصار والأتباع إلى أطراف الصحراء، وهناك أقروا له بالطاعة والولاء، وحلفوا اليمين على طاعته على الكتاب والسنة، وحمل الشيخ لقب أمير المؤمنين ذلك اللقب الذي استمر مع الخلافة حتى نهايتها في عام 1903، كما حمل لقب خليفة في بعض الأحيان وهو اللقب الذي حمله أبناؤه وذريته من بعده [1].

كانت هذه البيعة بداية الجهاد، وإيذانا بتأسيس الخلافة الإسلامية، ذلك لأن البيعة كانت تعني نقل الجهاد من الدور السلبي إلى الدور الإيجابي الجديد، وانتشرت أخبار الجهاد ضد حكام الهوصا، وأصدر الشيخ «وثيقة أهل السودان» التي صارت إعلانا رسميا للجهاد، حيث حدد الشيخ الأسس التي بنى عليها الجهاد، وأقرت هذه الوثيقة مبادئ منها: أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجب إجماعا، وأن الهجرة من بلاد الكفار واجبة إجماعا، وأن الجهاد واجب إجماعا، وأن قتال البغاة واجب إجماعا [2].

كان الرد العملي على هذه الوثيقة أن أرسل الحاكم إلى إخوانه الأمراء في كاتسينا، وكانو، ودورا يطلب منهم يد المساعدة لأنه أهمل إطفاء شرارة من النار في إمارته حتى اتسعت رقعتها وزادت حدتها، وصار فوق احتماله القضاء على خطورتها [3].

تزعم سلطان جوبير جبهة المعارضة ضد الشيخ عثمان، وصارت الحرب وشيكة بين المؤمنين والوثنيين، ولم يجد الشيخ بدا من إعلان الجهاد في سبيل الله، فلبى تلاميذه النداء لأن ارتباطهم به لم يكن مجرد حلقات درس تنتهي، بل كان الارتباط عميقا بالحب والتقدير، فكانوا له مؤيدين. تكبدوا المعاناة وتحملوا عبء الكفاح عندما هاجم الشيخ إمارة جوبير إثر قرار حاكمها بتأديب الشيخ عثمان، فحدث الالتحام وبدأت الحرب وانتقلت الدعوة من مرحلة السلم إلى مرحلة الهجوم المسلح، وبعد أن أغار حاكم جوبير على قرى المسلمين وممتلكات الموحدين [4].

وفي الرابع من يونيو عام 1804 تقدمت قوات الجهاد بزعامة عبد الله بن فودى الذي أخلى مواقعه في جودو توقعا لهجوم من سلطان جوبير، واتجه إلى بحيرة تابكين كوتو، وعلى ضفاف هذه البحيرة أطبق المسلمون على قوات البغي والعدوان ودارت عليها الدائرة، فهرب من وجد سبيلا لذلك وسقط في ساحة المعركة الكثير، وتفرق شمل الأعداء في أول مواجهة حاسمة في الجهاد، لكن النصر لم يكن نهائيا لأن قوات المشركين عادت، بعد أن جمعت قواتها في 1805، وبدأت الهجوم من جديد على الشيخ وجماعته، ودارت معركة تسونسو التي هزم فيها المسلمون في البداية، وراح منهم أكثر من ألف قتيل ولكنهم صمدوا للهجوم [1].

استمرت الحرب سجالا بين الطرفين دون تفوق طرف على الآخر، وتمكنت قوات الجهاد من السيطرة على إمارة كيبى (Kebbi)، واتخذتها عاصمة للجهاد. وتوالى سقوط إمارات الهوصا في أيدى المسلمين حيث سقطت زاريا-عام 1805، واستمر النصر حليفا للشيخ وأتباعه حتى تحقق النصر المبين، ودخل عاصمة الإمارة وتسمى الكالاوا في عام 1808، وتم قتل السلطان يونفا مع عدد من أتباعه، وانتهت مقاومة الوثنيين، وصارت كلمة الذين آمنوا هي العليا، وتوافدت القبائل زرافات ووحدانا إلى معسكر الشيخ تعلن الدخول في الإسلام والانضمام إلى حلف المسلمين، وتوسعت إمبراطورية الفولاني، وتكونت إمارة جديدة، وأعطى الشيخ أعلاما لأتباعه لإعلان الجهاد في مختلف المناطق، فتوسعت رقعة الدولة، ودخل الناس تحت راية الجهاد، وانتقل الشيخ إلى مدينة سيفاوا عام 1809، بينما استقر ابنه محمد بلو في مدينة سوكوتو.

وعادت المنطقة إلى حكم المسلمين، ولأول مرة تشكلت وحدة سياسية كبرى أطلق عليها إمبراطورية الفولاني. واختلفت التفسيرات حول هذا الجهاد فمنهم من رأى فيه صراعا سياسيا بين الهوصا والفولاني، استخدم الفولاني عامل الدين كهدف، أو مناورة عسكرية من أجل تحقيق أهدافهم للسيطرة الفولانية على بلاد الهوصا [1]، أما العالم النيجيري عبد الله سميث فيرى في الحركة أكثر من محاولة مجموعة من الرجال المحرومين من أجل السيطرة السياسية لصالحهم، بل هي حركة فكرية تهدف إلى خلق مجتمع مثالي تسوده الشريعة الغراء [2].

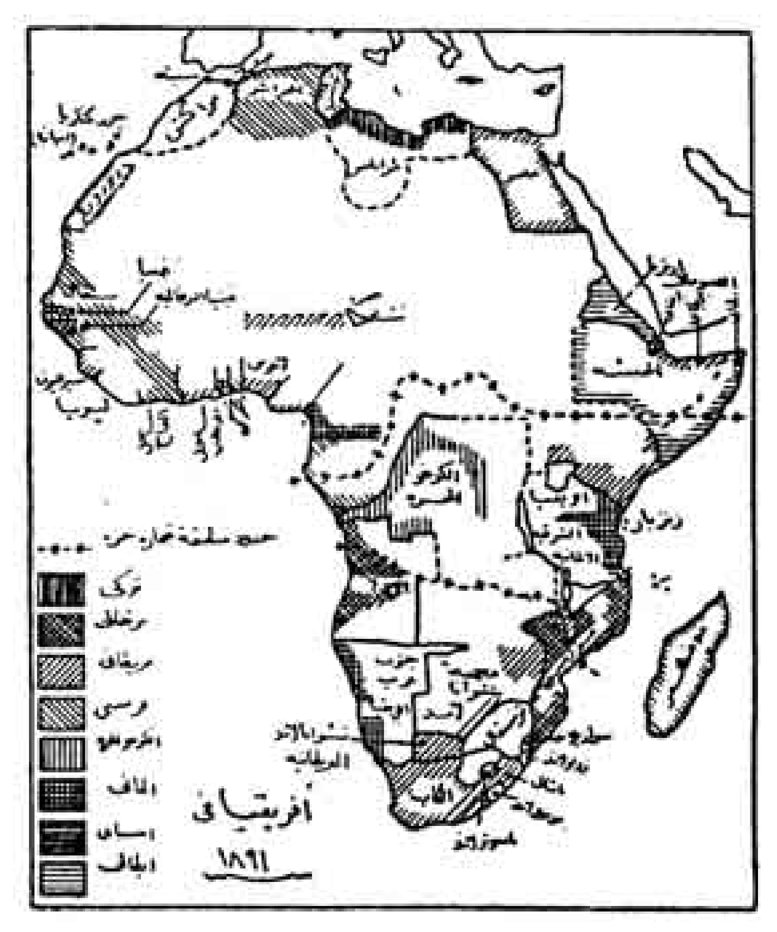
وحاول أعداء الشيخ تفسير الجهاد على أنه جهاد يخفى وراءه أطماعا سياسية في ثوب الإصلاح الديني، بل ذهب فريق آخر إلى أن هذه الثورة قد خططت من أجل مساعدة الفولاني على السيطرة على أمور البلاد، وتحقيق امتيازات كانوا قد حرموا منها من قبل [3].

لكن مهما اختلفت الآراء حول أسس الجهاد فإن الجميع يتفق على أن الحركة شمولية ارتكزت أساسا على الناحية الدينية، وأن الشيخ عثمان نفسه حدد الغرض من الجهاد في وثيقة أهل السودان وهو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والهجرة من بلاد الكفار، وتنفيذ أحكام الشرع، وقتال الملك الكافر الذي لا يقول «لا إله إلا الله» [4].

وقامت دولة الفولاني على نظام الخلافة الإسلامية، وصار الخليفة يشرف على كل إمارات الدولة التي أحيت الخلافة الإسلامية التي كانت أيام مجد العباسيين. وتأصلت جذور الدعوة الإسلامية فنمت وترعرعت وآتت أكلها، وتمسك المسلمون بالشريعة الغراء وساد الأمن الذي كانت تحكم به المنطقة، وازدهرت الحضارة الإسلامية في كل أرجاء الإمبراطورية[5].

وفي عام 1812 اقتصر دور الشيخ على التأليف والوعظ والإرشاد بعد أن قسم الإمبراطورية إلى قسمين: قسم شرقي تحت إشراف ابنه محمد بلو، والآخر غربي تحت إشراف أخيه عبد الله بن فودى، وكرّس الشيخ الجزء الباقي من حياته في التأمل والدراسة في مدينة سيفاوا (Sifawa) حتى وافاه الأجل المحتوم في عام 1817 بعد أن أرسى قواعد دولة إسلامية، استقرت فيها الخلافة، وحكم أبناؤه من بعده مدة قرن من الزمان حتى

سقوط هذه الخلافة في أيدي البريطانيين في عام 1903 [1].



الشكل رقم (4)

لقد لعب أبناء الشيخ وأحفاده دورا بطوليا ضد الاستعمار الأوروبي الذي تكالب على مناطق الدولة الإسلامية ابتداء من الربع الأخير للقرن التاسع عشر. وسوف نستعرض بشيء من التفصيل قصة صراع هذه الدولة الإسلامية ضد الجيوش البريطانية التي حاولت القضاء على هذه الحضارة الإسلامية الزاهرة، لكن رغم سقوط الدولة عسكريا إلا أن الأسس التي

وضعوها، والنظم الإسلامية التي ساروا عليها أدهشت الأوروبيين وجعلتهم عاجزين عن إبدال تلك الحضارة الراسخة بنظم جاءوا بها، فاضطروا للإبقاء عليها، ولم يحاولوا التدخل في شؤون المسلمين في تلك الدولة الإسلامية، فعاشت حضارتهم وازدادت ازدهارا حتى يومنا هذا. ولسوف نعرض لدور الجهاد الإسلامي ضد الزحف الأوروبي، ونحلل أسباب الصراع وعوامل الهزيمة والبطولات التي حققها المسلمون ضد جحافل الأوروبيين الطامعين في ثروات المسلمين.

جهاد المسلمين في إمبراطورية الفولاني ضد القوى الأوروبية:

بدأت قصة صراع المسلمين ضد الأوروبيين بعد طرد المسلمين من الأندلس وسقوط غرناطة عام 1492 م، ومحاولات الأوروبيين تعقب المسلمين في شمال أفريقيا والوصول إلى مملكة غانا الإسلامية، ثم التحالف مع الأحباش لضرب المماليك والعثمانيين. وشهدت العصور الحديثة حركة الكشوف الجغرافية وما تلاها من محاولات للقضاء على المسلمين، ثم دخول دول أوروبية في مجال التنافس والاستعمار بعد الثورة الصناعية، وبعد الانتهاء من كشف القارة الأفريقية وأنهارها وتكالب دول أوروبا على القارة، وعقد مؤتمر برلين عام 1884/1885، وما أصدره من قرارات لتقسيم القارة الأفريقية، وتطبيق مبدأ الاحتلال الفعلي قبل إعلان السيادة على أي إقليم من القارة، وكانت مناطق نيجيريا الجنوبية والشمالية قد وضعت حسب قرارات المؤتمر ضمن مناطق النفوذ البريطاني بعد أن نجحت شركة النيجر الملكية في بسط نفوذها على هذه المناطق ابتداء من عام 1886، وحصولها على براءة ملكية لممارسة التجارة في هذه المناطق من جنوب نيجيريا [1].

وظلت الشركة تمارس هذا النشاط على الأطراف الجنوبية لدولة الخلافة في سوكوتو حتى عام 1900، عندما ألغت الحكومة البريطانية مرسوم الشركة وأنشأت قوات حدود غرب أفريقيا لبسط النفوذ البريطاني على كل مناطق المسلمين، وعهدت بهذه المهمة إلى اللورد فريدرك لوجارد أحد بناة الإمبراطورية البريطانية في غرب أفريقيا [2].

كان تعيين اللورد لوجارد يعني بسط السيطرة البريطانية على دولة

الخلافة في سوكوتو كما يعني ضرورة القضاء على زعماء المسلمين في هذه الجهات، تلك القصة التي ستجر وراءها سلسلة من الحروب المستمرة والمناورات العسكرية والدبلوماسية التي استخدم فيها لوجارد كل الوسائل المتاحة، شرعية كانت أو غير شرعية، حتى أمكنه القضاء على هذه الدولة الإسلامية في عام 1903 بعد سقوط خليفة المسلمين وهو يدافع عن ديار المسلمين والإسلام ويذود عن الإمبراطورية التي كوّنها الشيخ عثمان بن فودى، فكان استشهاده خير مثل للبطولة والفداء، وسجل على صفحات من نور مثالا يحتذى للتضحية والدفاع عن العقيدة ضد قوى البغي والعدوان، ولنبدأ القصة من أولها حتى نهايتها في السابع والعشرين من يوليو عام 1903.

لكن قبل استعراض مراحل النضال والكفاح تتطلب طبيعة الدراسة إلقاء ضوء خفيف حول نظام الجيش في الإمبراطورية الإسلامية التي خاضت من المعارك ما لا يحصى طوال القرن التاسع عشر من أجل مقاومة الوثنيين أو أطماع الطامعين لبسط نفوذهم على أجزاء من الإمبراطورية. ومن هنا كان النظام الحربي مطلبا أساسيا في هذه الإمبراطورية، وكانت وسائل الدفاع والأمن من الأمور التي شغلت بال الخلفاء طوال القرن الماضي حيث كان الجهاد مستمرا والدفاع ممتدا في كل مكان، وليس حادثة عارضة تنتهي بحملة أو معركة حربية. لكنه رغم تلك المساحات الشاسعة التي امتد إليها سلطان الدولة، ورغم جسامة المسؤوليات الملقاة على عاتق الخلفاء، ورغم كثرة الأعداء الذين يتربصون بالدولة وأبنائها فإنه لم يوجد لدى الدولة جيش كامل ومنظم ومركزي، بل على العكس كانت كل إمارة لها جيشها ولها قوتها، وتستقل في كل شؤونها الحربية. وكان الأمراء يكلفون أتباعهم بإرسال الجنود والمعدات بناء على طلب الخليفة للقيام بحملات الجهاد، أو للقضاء على تمرد قد يحدث في إحدى الإمارات التابعة للدولة. وكان الخليفة يكلف أحد الموظفين بقيادة الجيوش حسب طبيعة كل معركة، وحسب أهمية الحمل الموجهة إلى منطقة من المناطق، وكان الخليفة نفسه يشارك في بعض المعارك بل يقود الجيوش المشتركة[1].

وكانت قوات المشاة هي أكثر القوات عددا وتضم أساسا حاملي الرماح والحراب، وحاملي السيوف، ورماة الأسهم المزودين بالأسلحة النارية، وكانت

هذه القوات من عامة الشعب، ومن المتطوعين من الفلاحين وأهل الذمة الذين يدفعون ضريبة الجزية، أو من المرتزقة الأجانب الذين أسروا في حروب سابقة. وإلى جانب قوات المشاة كانت قوات الفرسان الذين يمثلون الصفوة في جيش الأمير من الموظفين وأتباعهم، ومن حكام المقاطعات.

وكانت أسلحتهم تضم الدروع والحرب والسيوف والسكاكين والخناجر0[1].

وزود الجيش بمعدات إضافية مثل الخيام والدواب من الخيول والأبقار والحمير التي كانت تستخدم لنقل المواد والطعام وأسلحة المحاربين [2].

وكانت الدولة تعتمد على نظام الرباط الذي أدى أدوارا هامة لدولة سوكوتو لدرجة أنه يمكن أن نطلق على هذه الدولة «دولة الرباط» لأنها منذ البداية حتى النهاية كان الرباط يشكل أمرا جوهريا في حياة الدولة، حيث انتشرت الرباطات في كل موقع من المواقع الهامة في أرض الخلافة، وصارت قوة دفاعية أمام أعدائها، ناهيك عن انتشار الزهاد والعباد الذين جاهدوا في سبيل الله [3].

وعلى الجانب الآخر نجد أن لوجارد عندما بدأ إدارته الجديدة كانت قوات حدود غرب أفريقيا (West Africa Frontier Forces) لا تزيد عن كتيبتين من المشاة، وكتيبة من الفرسان، لذا نجد أنه بدأ السعي لإقامة علاقات طيبة مع الخليفة في سوكوتو، وأرسل للخليفة وإلى أمير جواندو ترجمة حرفية للمرسوم الذي أصدره باللغة العربية في أول يناير 1900، وأعلن في فقرته الأولى أن شركة النيجر الملكية قد حكمت هذه المناطق، لكنه نظرا لأنها لجأت إلى أسلوب القوة والعنف في إدارتها فقد أحست الحكومة البريطانية بإنهاء مرسومها وإلغاء إدارتها، وتحويل الإدارة إلى الحكومة ذاتها [4]. وعلى عكس ما كان لوجارد يتوقع في بداية إدارته، حيث أظهر الخليفة وأمير جواندو (الجزء الغربي من الإمبراطورية) العداء الواضح والمكشوف للأوروبيين. وعبّر الخليفة لرسول لوجارد ويدعى كياري (Kiari) عن رغبته في عدم قبول أي رسائل من الأوروبيين، بل عجل بطرد هذا المبعوث من سوكوتو، وهكذا فشلت أولى المحاولات السلمية من جانب لوجارد، وأدرك أن الحل الوحيد هو العمل التدريجي على إسقاط إمارات الدولة. والدخول خطوة خطوة في صراع مع المسلمين حتى سقوط العاصمة سوكوتو

في عام 1903.

أولا: سقوط إمارات كونتاجورا ونيب والإمارات الجنوبية.

بدأ لوجارد سياسته التدريجية بالسيطرة على بعض المناطق التي كان قد امتد إليها نفوذ شركة النيجر الملكية، وحصل على موافقة وزارة المستعمرات على غزو إمارتين من الإمارات الإسلامية، وتعلل بأن الأمراء هناك يشجعون الرق والرقيق وأنه لابد من القضاء عليهم. هذا بالإضافة إلى عرقلة قوات نيب لقوة حدود غرب أفريقيا أثناء قيامها ببعض العمليات الكشفية بين منطقة كادونا ومرتفعات بوش في عام 1901.

وبعبارة أخرى استخدم لوجارد أسلوب مقاومة الرق كوسيلة للتقدم نحو الإمارات الإسلامية في الجنوب. وبالفعل جهز لوجارد حملة وعهد بقيادتها إلى الكابتن مورلاند (Morland) ومعه خمسة عشر ضابطا، و 356 جنديا، وأربعة مدافع عيار 75 مم. ورفض أميريولا تسلم خطاب لوجارد وهدد بالقضاء على هذه الحملة البريطانية [1].

وتمكنت القوات البريطانية بفضل استخدام الأسلحة النارية وقاذفات اللهب أن تتقدم نحو المدينة. وبعد مقاومة عنيفة من سكان المدينة استطاعت القوات البريطانية دخول مقر الأمير، وفر الأمير إلى مدينة جورن (Gurin) وأرسل خطابا إلى الخليفة في سوكوتو ينقل إليه أخبار المعركة، وكيف سقطت مدينته في أيدي البريطانيين، ويطلب منه الدعم والتأييد حتى يعود إلى مدينته مرة ثانية ويطرد البريطانيين منها، كما طالب سكان المدينة بعدم التعامل مع البريطانيين، لكن الخليفة لم يحرك ساكنا، ولم يرسل قوة إنقاذ لهذا الأمير الذي تعقبته القوات البريطانية حتى قبضت عليه وأعدمته في عام 1901 أثناء الدفاع عن ديار المسلمين [1].

ولقد ساعدت الظروف الخارجية بريطانيا على التوسع في إمارات الدولة الإسلامية، ذلك أنه بعد تعقب الفرنسيين للمجاهد الإسلامي رابح الزبير وقتله في عام 1900 كان على بريطانيا أن ترقب هذا الخلاف لأن فضل الله بن رابح كان قد طلب مساعدة البريطانيين. وكان إرسال أي حملة لبلاد برنو يعني بالضرورة المرور على إمارتي بوش وجومبي التابعتين للخلافة الإسلامية، ولهذا حتمت الظروف إخضاع هاتين الإمارتين اللتين

رفضتا إعلان الولاء للبريطانيين. وأعد لوجارد قوة بقيادة الكولونيل مورلاند في عام 1902 الذي تقدم نحو مدينة بوش التي استسلمت للبريطانيين الذين عزلوا أميرها وعينوا أميرا جديدا أعلن الولاء لهم، وعين البريطانيون تشارلز تمبل (Charles Temple) مقيما في بوش [2]. وبعد سقوط إمارة بوش تحركت القوات البريطانية نحو إمارة أخرى ألا وهي إمارة جومبي التي وافقت على الحماية البريطانية، وذلك لأن أميرها كان في صراع مع أمير آخر هو المعلم جبريل جاني الذي أعلن نفسه المهدي. وبعد أن أعلنت جومبي قبول البريطانيين بدأت القوة في البحث عن عدوه الذي قاوم تلك الفئة الباغية وصمد في وجه الأسلحة البريطانية المتطورة، لكنه اضطر إلى التفرق بقواته في النهاية بعد أن أشعل البريطانيون النار في مدينته، وهرب المعلم جبريل إلى مدينة بورمي، لكنها قامت بتسليمه إلى البريطانيين الذين أرسلوه أسيرا إلى لوكوجا، وظل هناك حتى مات في عام 1907 [3].

- وتوضح هذه الأحداث البسيطة أن الصراعات المحلية بين الأمراء كانت في بعض الأحيان من العوامل التي ساعدت البريطانيين على بسط نفوذهم التدريجي على أملاك الدولة، ولم يحاول الخليفة في سوكوتو إنقاذ هذه الإمارات لعدم وجود جيش مركزي عنده، ولأن الإمارات الجنوبية لم تكن متعاونة بل كان التنافس بينها شديدا، وهذا ما سهل مهمة لوجارد والبريطانيين في السيطرة التدريجية على أملاك المسلمين في دولة الخلافة الإسلامية. وكان سقوط هذه الإمارات الجنوبية قد أعطى البريطانيين فرصة إقامة حصون جديدة في المناطق التي تم الاستيلاء عليها، وكان هذا عاملا مساعدا للبريطانيين نحو التقدم رويدا في أملاك الخلافة بعد السيطرة التدريجية على إمارات الدولة، وكان الدور على إمارة أخرى هي إمارة زاريا التي زارها الكولونيل كمبل (Kemball) في أوائل عام 1900 في محاولة لتحسين العلاقة مع هذه الإمارة. ولما عارضت بعض القرى تقدم كمبل قام بإحراقها وبالتالي ضيع هذا الرجل فرص الصداقة مع أمير زاريا [1].

وأكد الأمير في خطاب إلى لوجارد بعدم الموافقة على جعل إمارته تابعة له، وأنه لن يوقف غارات الرقيق لأنه تابع لخليفة المسلمين في سوكوتو وليس لنفوذ البريطانيين. ومنع الأمير رسل البريطانيين الذين يرغبون في

الذهاب إلى سوكوتو بالجزية السنوية من المرور في أرضه. كل هذه الأسباب أعطت مبررا للبريطانيين لغزو إمارة زاريا الإسلامية هذا في الوقت الذي أتاحت الإمارة ذاتها الفرصة للبريطانيين عندما استنجدت بهم للقضاء على أمير كونتاجورا الذي كان يغير على قرى الإمارة.



الشكل رقم (5)

انتهز لوجارد هذه المناسبة التي كان ينتظرها بفارغ الصبر، وعلى الفور أرسل قوة بقيادة الكابتن بورتر (Porter) الذي دخل الإمارة وفرض السلطة البريطانية عليها، وأقام في زاريا، وصار المقيم أبادي هو حاكم زاريا، وبدأ قلق الأمير وشعبه من التواجد البريطاني، لكنه لم يستطع أن يفعل شيئا لطردهم. وأرسل الأمير خطابا إلى الخليفة في سوكوتو يشرح له ما أصابه، كما أرسل أيضا خطابا إلى أمير كانو، لكن لم يتحرك أحد لإنقاذه، واستمر الأمير على عصيانه للمقيم. وعندما طلب منه التوجه إلى لوكوجا لمقابلة لوجارد أعلن أنه لن يعترف بالأوروبيين وحكومتهم [1].

كان رد المقيم إيجابيا حيث أغلق بوابات المدينة ووضعها تحت الحراسة، وبدأ القناصة الإنجليز يجوبون الشوارع بحثا عن الأمير حتى قبض عليه فأخذوه أسيرا، وصار سقوط زاريا أمرا واقعيا، وفقد الأمير استقلاله جزاء لما اقترفه من ذنب، ونتيجة اللجوء إلى مساعدة البريطانيين ضد حاكم مسلم طرد من أرضه، ولم يجد ملاذا إلا في الإمارات المجاورة، وهذا يوضح أن حكام الإمارات أثناء تنافسهم لم يتعاونوا، بل تفرقوا وطلب بعضهم مساعدة الأعداء الذين أطبقوا عليهم، وانتهزوا فرصة الفرقة ليفرضوا السلطان والجاه على بلاد المسلمين.

وتوضح هذه العمليات الحربية بين القوات البريطانية المحدودة وقوات إمارات دولة سوكوتو الكثير من الحقائق منها:

أولا: عجز ترتيبات الدفاع لدى إمارات الدولة الإسلامية، وأصبحت كل إمارة تواجه مصيرها بنفسها بأسلحتها المحدودة غير المتطورة، كما أن الحصون التي أقيمت داخل مدن الإمارات قد أثبتت عدم قدرتها على تقديم مساعدات ملموسة من جانب الإمارات الأخرى، أو من الدولة مما جعلها فريسة سهلة أمام القوات البريطانية.

ثانيا: فضل أمراء المسلمين الذين سقطت إماراتهم تحت سيطرة البريطانيين الهروب مثل ما فعل أمراء كونتاجورا، ونيب، وأدماوا، وبوش، ولو اتخذ هؤلاء الأمراء سبيلا للتحالف والتكاتف والحصول على المساعدات من الخليفة لتغيرت صورة المقاومة، ولوجد البريطانيون عنفا أشد ومقاومة أصلب، وتقدما بطيئا في ظل تلك الجهود الإسلامية لصد هذا التوسع الأوروبي [1].

ثالثا: خلق هذا التواجد البريطاني في إمارات دولة سوكوتو موقفا جديدا لم يكن موجودا من قبل، حيث بدأت كل إمارة، وفي ظل غيبة السيادة العليا للخليفة، الاعتماد على نفسها في مسألة العيش والبقاء، وصار كل أمير يبحث عن أنسب الوسائل التي تحافظ على إمارته حتى اضطر إلى التحالف مع الأعداء، ومصداق ذلك ما فعله كل من أميري زاريا وجومبي حينما استعان كل منهما بالبريطانيين للتغلب على أمير مسلم من بني جنسهم.

ثانيا: السياسة الدبلوماسية للوجارد مع الخليفة.

رغم سقوط الإمارات الجنوبية في أيدي البريطانيين ورغم الاحتلال التدريجي لمعظم الإمارات إلا أن الهدف النهائي كان دخول العاصمة سوكوتو وإسقاط الخلافة، وضم المنطقة لنفوذ البريطانيين. وحاول لوجارد إقامة جسور الصداقة مع الخليفة لكنه لم يجد منه إلا كل رفض وتعنت. وكل مبادرة مع الخلافة صار مصيرها الفشل. وكان لوجارد مترددا ومشتت الفكر، وكانت القوات لديه محدودة، ومعظم الجيش كان قد اتجه لحروب الأشانتي، وكان عليه الانتظار حتى تعود هذه القوات، وفي الوقت نفسه كان يخشى مخاطر إرسال حملات شمالا نحو العاصمة سوكوتو لأنها يمكن أن تنعزل عن قواعدها وتتعرض للضرب من الخلف.. لكل هذه الأسباب راح لوجارد يبحث عن وسائل دبلوماسية يحاول بها كسب الخليفة الذي كان بين رحى القوى المعادية، حيث الألمان من الشرق والفرنسيون من الشمال، بالإضافة إلى رابح الزبير وما يثيره من أخطار على إمارات الدولة الشمالية.

بدأ لوجارد يجرب الوسائل الدبلوماسية، وراح يعيد جسور المودة رغم أن مرسومه للخليفة في عام 1900 لم يصل رد من الخليفة عليه. ورغم إرسال وكيل لوجارد ويدعى والاسي عدة رسائل إلى الخليفة لكنه لم يحرك ساكنا. ورغم هذا أخذ لوجارد يشرح للخليفة بعد سقوط إمارتي نيب وكونتاجورا أسباب عزلهما، وهي لأنهما يمارسان تجارة الرقيق التي حرمتها القوانين الدولية، وطلب من الخليفة تعيين أمراء محلهما أكثر عدلا. لكن الخليفة شعر بتدخل لوجارد في شؤونه، وتعقدت الأمور بين الطرفين عندما وصل الخليفة خطابا من والاسي يفيد بعزم البريطانيين على تعيين مقيم

لهم في مدينة سوكوتو وطلب من الخليفة قبول هذا العمل [1].

ولما باءت كل هذه الأمور بالفشل، ورفض الخليفة الرد على مراسلات البريطانيين حاول لوجارد الاستعانة بجهود اللورد كرومر في مصر، وطلب منه أن يرسل للسير ريجنالد وينجت في السودان لكي يتوسط لإرسال بعض السودانيين لتحسين العلاقات وبدء مرحلة مفاوضات مع الخليفة [2].

وأسفرت هذه المساعي البريطانية عن إمكانية لوجارد إرسال خطاب إلى الخليفة في عام 1902، لكن عندما عاد رسول لوجارد أخبره أن اللقاء كان فاترا، وأن جو الخوف من الأوروبيين يسيطر على الخليفة، وليس هناك أمل في أن تتحسن العلاقات بعد استيلاء البريطانيين على الإمارات الجنوبية [3]. وكان رد الخليفة معتدلا وأفاد لوجارد بأنه لم يطلب مساعدات من البريطانيين، ولم يطلب الدخول في مفاوضات لتهدئة الأحوال في الإمارات الجنوبية، وأعرب له عن أنه لا توجد قوة أو سلطة أعلى من الله العلي العظيم (4).

وصورة هذا الخطاب معتدلة والرد منطقي، فلم يحاول الخليفة إثارة البريطانيين ولم يحاول إقامة جسور العلاقات مع الأوروبيين الذين احتلوا أجزاء من دولته، وليس فيه ما يسيء إلى لوجارد وإلى البريطانيين رغم احتلالهم أجزاء من أرضه وتشريد أبناء دولته. كان الخليفة مؤدبا وكان يكظم غيظه، ولم يحاول إثارة الأوروبيين الذين كانوا يترصدون له من كل الجهات.

لكنه في مايو عام 1902 أفاد لوجارد حكومته بأنه قد تسلم خطابا من الخليفة يقول فيه: «منا إليكم، يجب أن تعلموا أنني لا أوافق على أن يقيم أي واحد منكم بيننا، وأنني شخصيا لن أتسامح معكم، ولن أسمح بالتعامل معكم فيما بعد، ومن ثم فليس هناك أي تبادل بيننا وبينكم سوى ما بين المسلمين والكفار. إن الحرب المقدسة قد فرضها الله علينا، وليست هناك قوة فوق قوة الله».. يثير هذا الخطاب الكثير من الغموض لأنه لا يشير إلى أي علاقات لمراسلات سابقة، ومما يزيد الأمر غرابة أن الأصل العربي لهذا الخطاب مفقود، وبالتالي أثار الشكوك حول ادعاءات لوجارد ضد الخليفة.

وإذا ما حللنا مواد هذا الخطاب نجد أن الغموض يعتريه منذ الجملة

الأولى، «منا إليكم، يجب أن تعلموا أنني لا أوافق على أن يقيم أي واحد منكم بيننا» إذا تساءلنا عن هذه العبارة، من الذي طلب هذا الشيء؟ هل طلب لوجارد مثل هذا الشيء من الخليفة؟ إن طلب تعيين مقيم كان من والاسي نائب لوجارد الذي أرسل الخطاب عن طريق الضابط المسؤول في مدينة ايللو (Illo)، لكن اتضح أن هذا الخطاب لم يصل إلى الخليفة، ويدل على هذا اعتراف والاسي نفسه بأنه لو استخدم وسائله الخاصة لسلم الخليفة أضعاف هذا الخطاب ولحصل على رد عليها [1].

وإذا كان خطاب الخليفة إلى لوجارد يحمل نذير الحرب، فلماذا ماطل لوجارد مدة ثمانية أشهر ولم يخطر الحكومة البريطانية؟

إن أمور الحرب عاجلة، ولا يمكن أن تؤجل طوال هذه المدة إلا إذا كان هناك سر غامض، أو عدم وجود دليل قاطع يمكن أن يقدمه لوجارد إلى حكومته، ومن الواضح أن لوجارد كان يخطط لحملة عسكرية حتى تحين الفرصة المناسبة لذلك. وكان لوجارد واقعا تحت تأثير بعض الرجال الذين كانوا يؤيدون الحل العسكري مثل أبادي الذي كان قد ذهب إلى زاريا وفشل في إقامة علاقات ودية معها. وانتهى الأمر بالقبض على أمير زاريا. ذلك العمل الذي أغضب نائبه في إمارة كيفي (Keffi) والذي قام على الفور باغتيال المقيم البريطاني الكابتن مولوني، وهرب إلى إمارة كانو.

ساعدت كل هذه الأحداث على تأكيد الحل العسكري خصوصا وأن الجهود الدبلوماسية قد فشلت مع الخليفة عبد الرحمن الذي مات بعد حادث مصرع المقيم مولوني، وكان من الممكن للوجارد أن يفتح صفحة جديدة مع الخليفة الجديد إلا أن لوجارد رفض الإقدام على ذلك، ورفض إخبار حكومته بهذه التطورات، وأضاع فرصة دبلوماسية بإخفاء هذه الأحداث حيث لم يخبر وزارة المستعمرات بوفاة الخليفة إلا في 21 ديسمبر عام 1902 أي بعد وقوع الحادثة بشهرين [1].

والخلاصة أن لوجارد افتعل هذا الخطاب، وخطط له ودبر كلماته حتى يجد مبررا لتحميل الخليفة مسؤولية إجبار البريطانيين على الحرب.

ثالثا: القتال يتجدد وسقوط إمارات الدولة في الشمال:

بعد أن استنفد لوجارد كل الوسائل الدبلوماسية، وبعد إخضاع الإمارات

الجنوبية وفشل كل الجهود لإخضاع الخليفة بالوسائل الدبلوماسية بدأ لوجارد يستعد للحل العسكري. وكان احتلال إمارة كانو من أهم مراحل الغزو البريطاني نظرا لعراقة هذه المدينة، وقوتها العسكرية، وسورها الضخم الذي أعيد بناؤه في عام 1902 بالإضافة إلى الخندق الكبير الذي يحيط بالمدينة [2].

وبعد استكمال الاستعدادات قرر لوجارد في أبريل 1902 الهجوم على إمارة كانو، وكان عليه أن يجد من المبررات ما يقنع به حكومته للقيام بهذه الحملة، فكانت عملية مصرع الكابتن مولوني في إمارة كيفي هي الدليل الكافي. فبعد الحادث اشتبكت قوات لوجارد مع قوات إمارة كيفي، وهاجمت القوات البريطانية المدينة، وهرب نائب الحاكم مع أتباعه إلى إمارة كانو، فأرسل لوجارد عدة حملات عسكرية لمتابعته، ورصد جائزة لمن يسلمه نائب الحاكم في كيفي. وأرسل لوجارد إلى حكومته يفيد أن حياة الرجل الأبيض قد صارت في خطر على حد زعمه [1].

وفي 29 يناير 1903 تقدمت القوات البريطانية بقيادة الكولونيل مورلاند (Morland) نحو مدينة كانو، وواصلت القوات تقدمها حتى صارت على بعد ستة أميال من مدينة كانو، وأرسل لوجارد مرسوما باللغة العربية إلى سكان المدينة يعرب فيه عن نيته السلمية، وأنه يحارب فقط نائب الحاكم الهارب من كيفي.

أما أمير كانو فلم يكن متواجدا حيث ذهب مع نوابه إلى العاصمة سوكوتو لتقديم فروض الطاعة والولاء للخليفة الجديد، وانتهز لوجارد هذه الفرصة وأصدر أوامره في الثالث من فبراير لاقتحام المدينة التي أحكم جنوده السيطرة على أسوارها، وبدأت مدافع المكسيم تضرب المدينة بعنف، ولكن فشلت كل المحاولات في إحداث أي ثغرات في أسوارها المنيعة، وأمام هذا العجز تحركت القوات البريطانية نحو بوابة أخرى من المدينة؟ وأشعلت فيها النيران، فساعد ذلك على دخول المدينة. وبالطبع تدفق البريطانيون بأسلحتهم الحديثة نحو الداخل، فاضطر الحراس إلى الهروب أمام قصف النيران البريطانية، وتقدمت القوات نحو قصر الأمير، واستولت عليه بعد استبسال دفاع القائد المسلم شانو محمد الذي رفض تسليم القصر، وفضل الموت على الاستسلام، وسقط شهيدا مع حفنة الرجال الذين قاوموا حتى

الشهادة [2]. واضطر أميرها إلى استكمال الحرب، وكوّن قوة عسكرية اتجه بها إلى كانو، لكن هذه القوة اضطرت إلى التراجع أمام عنف المدافع البريطانية، ورغم ترك الأمير الجيش إلا أن الوزير محمد بخاري (1886-1903) واصل القيادة لبقايا جيش لم يزد على 3500 جندي وتقدم بهم نحو مدينة كانو ودارت معركة عنيفة بين جيش المسلمين وقوات البريطانيين بالقرب من مدينة رويا (Rawiya)، وظهرت شجاعة المسلمين، وكبدوا البريطانيين خسائر فادحة لكن خسارتهم كانت أشد، وقتل الوزير مع عشرة من الرؤساء المحيطين به الذين فضلوا أيضا الشهادة في سبيل الله على الاستسلام لقوات البريطانيين.

وكانت هذه الهزيمة بداية النهاية لمقاومة المسلمين في إمارة سوكوتو، وتوجه الأمير إلى العاصمة سوكوتو حيث حصل على خطاب من الخليفة إلى حاكم إمارة جوبير لكي يسمح له بالمرور ببلاده حتى يواصل الجهاد ضد البريطانيين في كانو، ولكن أمير جوبير سلم أمير كانو إلى البريطانيين الذين نقلوه إلى مدينة يولا ثم إلى لوكوجا، وظل هناك حتى مات عام 1907، وأنهى موته مرحلة بطولية من كفاح المسلمين ضد القوات البريطانية، ودلت مقاومته هو وأعوانه على تلك الروح الإسلامية الفدائية في معظم إمارات الدولة، ولولا التفوق الأوروبي لتغيرت مسيرة المعارك، ولحقق المسلمون بطولات وانتصارات على القوات البريطانية.

وهكذا سقط أحد الأعمدة الرئيسة في دولة الخلافة، وصارت إمارة كانو بموقعها الممتاز في أيدي البريطانيين الذين استفادوا كثيرا من هذا الانتصار، حيث أصبحت مهمتهم سهلة للتوغل شمالا نحو العاصمة سوكوتو.

رابعا: الزحف البريطاني على العاصمة

ما إن سقطت إمارة كانو في أيدي البريطانيين حتى صار الطريق سهلا أمام جيش لوجارد نحو العاصمة سوكوتو التي صارت وحدها الجزء الباقي بعيدا عن سيطرة بريطانيا. وأسرع لوجارد يجهز الجيوش، ويقيم المواقع الحصينة على الطرق المؤدية إليها، وتشكلت قوة بريطانية بقيادة الكابتن ميريك (Merick) استعدادا للتقدم والزحف نحو آخر معقل للمسلمين ورمز الموحدين في شمال نيجيريا [1].

كان الموقف في العاصمة معقدا، فالإمارات سقطت الواحدة بعد الأخرى أمام الزحف البريطاني، وجيوش هذه الإمارات لم تستطع أن تقف أمام أسلحة متطورة ومدافع ميكانيكية حديثة، وقوات مدربة على نظم حربية تخالف ما كان سائدا في أفريقيا في القرن التاسع عشر، وزاد الأمر سوءا موت الخليفة عبد الرحمن الذي كان يقف ندا للأوروبيين، ورفض مرارا وتكرارا أن يستعين بهم، أو أن يتنازل لهم عن السيادة. مات هذا الخليفة في أكتوبر عام 1902، فدار صراع حول من يخلفه في تلك الحقبة الحرجة من تاريخ دولة الفولاني، وأخيرا استقر الرأي على الطاهر بن أحمد، الذي حمل لقب الطاهر الأول، في نوفمبر 1902. وكان على هذا الخليفة الجديد أن يتحمل مسؤولية الدفاع عن بقايا دولة سقط معظم أجزائها في أيدي البريطانيين، وكان عليه أن يقرر مصير الدولة الإسلامية في هذه المنطقة. من هنا بدت مظاهر الحياة الإسلامية صعبة أمام هذا التحدي الأوروبي لدولة عاشت قرنا من الزمان تطبق شريعة الإسلام الغراء، ولم يكن من السهل على خليفة المسلمين أن يتنازل بسهولة عن هذا التراث الكبير لقوة أوروبية تتربص بالإسلام والمسلمين، وكان على هذا الخليفة أن يحافظ على اللقب الذي حمله وعلى الشعب الذي ولاه الخلافة، وعلى دين الإسلام الذي يتعرض لموجة عاتية أمام حركة صليبية من نوع جديد. كل هذه المواقف تجعل من مقاومة الخليفة في تلك الظروف الصعبة ملحمة نضال تشرّف كل مسلم يحافظ على دينه وأمته، ملحمة بين طرفين غير متكافئين، طرف يحمل أحدث الأسلحة وأحدث ما وصل إليه العلم من وسائل حربية متطورة، وتنظيمات عسكرية حديثة، وجيوش مدربة على أحدث نظم القتال، وطرف آخر فقد أملاكه، وتطاير الكل من حوله، ولم يبق من جيشه إلا حفنة من الرجال، زادهم التقوى، وسلاحهم الإيمان بالله، وهدفهم الصمود حتى النهاية دفاعا عن الدين وحماية لأرض المسلمين من جحافل الغازين الأوروبيين. ولنبدأ قصة المرحلة الأخيرة من بدايتها حتى تكتمل صورة النضال أمام كل مسلم يحافظ على دينه، وحتى يتضح لنا مدى ما فعلته قوى الاستعمار الأوروبي بحضارة الإسلام في تلك الأصقاع من أفريقيا.

انقسم الرأي في العاصمة سوكوتو قبل الغزو البريطاني لها ما بين مساند لعقد اتفاق سلام مع البريطانيين، أسوة بما فعلته أمارة كاتسينا،

ومحفزا للنضال حتى النهاية حفاظا على شرف الإسلام والمسلمين، وبين الرأيين برز رأي ثالث يرى في الهجرة من سوكوتو قبل قدوم الأوروبيين وسيلة لجمع شمل ما بقى من المؤمنين، والاستعداد للحرب بعد ذلك ضد قوى الغزو الأوروبي. وكان الخليفة الجديد رجلا ورعا تقيا، لم يخبر المعارك، ولم تحنكه السنون، رأى في الهجرة شرقا خير سبل الأمان، لكن الأحداث كانت سريعة ولم يكن الوقت يسعفه لاتخاذ قرار بهذا أو ذاك، ووجد نفسه أمام جيش بريطاني يتقدم نحو عاصمته وليس أمامه إلا الاستسلام أو الصمود والحرب حتى يأتي الله أمرا كان مفعولا.

اجتمع الخليفة بالبقية الباقية من رؤسائه للتشاور في الأمر، وتحديد موقف محدد أمام الوضع الحالي الذي انتهى باحتلال معظم إمارات الدولة، وكان من الصعب، والأمر كذلك، اتخاذ قرار مصيري في هذا القرار العصيب، وكانت فكرة وزير سوكولو، ويدعى محمد بخاري، الهجرة، لكن هذا القرار وجد معارضة من بقية الرؤساء لأنهم وجدوا فيه تحطيما لروح الجهاد وضياع الخلافة دون مقاومة، الأمر الذي يقلل من هيبة المسلمين أمام الغزاة البريطانيين. وأخيرا قرر الخليفة بعد وصول أنباء تقدم البريطانيين نحو العاصمة أن يكتب خطابا إلى الكابتن مورلاند، اعتذر فيه عن تأخره عن الرد على خطاب سابق، وطلب منه الانتظار لحين عقد جلسة ثم يرسل له برأيهم الجماعي [1].

عندما وصل هذا الرد إلى مورلاند اعتقد أن الخليفة يحاول كسب الوقت لوضع ترتيبات واستعدادات دفاعية، وكان الخليفة بالفعل قد تخلى عن فكرة الهجرة، وقرر إقامة معسكر لجيشه خارج أسوار المدينة بعد صلاة الجمعة يوم 12 مارس 1903. هذا في الوقت الذي تحرك فيه الجيش البريطاني من مدينة باكور Bakura ووصل إلى مدينة شاجاري (Shagari). وفي 11 مارس 1903 انضم الكابتن ميرك Merick إلى مورلاند وصار الجيش البريطاني الزاحف نحو العاصمة سوكوتو يضم حوالي خمسة وعشرين ضابطا و596 جنديا، و 4000 من الحمالين للمعدات، وأربعة مدافع مكسيم، أما جيش سوكوتو فكان يضم حوالي 2000 فارس و 4000 من جنود المشاة وصلاحهم عبارة عن حراب وسهام وبنادق مع بعض المسدسات القديمة [2].

تقدمت الحملة البريطانية حتى صارت على مشارف العاصمة في الرابع عشر من مارس، فاقترب الجيش البريطاني من أسوار المدينة حيث كان السور الجنوبي يضم حوالي 2000 فارس و4000 من المشاة، وكان الخليفة يقود وسط الجيش، وعلى الميمنة محمد ميتوراري، وعلى الميسرة إبراهيم راباح، والتحم الجيشان أولا في اشتباكات خارج العاصمة استخدم فيها البريطانيون مدافع المكسيم التي أنهت الصراع لصالح البريطانيين وفي خلال ساعة من الزمان فقد جيش الخليفة حوالي سبعين رجلا [3].

بعد هذه المناوشات الأولى اتضح أن قوات الخليفة عاجزة عن الوقوف في وجه البريطانيين، ولذا لم يقاوم الخليفة، وانسحب إلى مدينة بورمي (Burme) شرقا، وترك العاصمة التي دخلها البريطانيون ليجدوها شبه مهجورة حيث اتجه الوزير محمد بخاري إلى مدينة مارنونا (Marnona)، وكتب إلى البريطانيين في التاسع عشر من مارس خطابا يعبر فيه عن رغبته في الصلح بشرط احترام الدين الإسلامي. ولما وجد استجابة من البريطانيين عاد إلى العاصمة سوكوتو حيث التقى بلوجارد الذي اجتمع بالمسؤول في الدولة، وتم اختيار خليفة جديد حيث صار لقب محمد الطاهر بن علي بن محمد بلو الطاهر الثاني سلطانا بدلا من لقب خليفة.

لم يعد السلطان أكثر من مجرد أمير لسوكوتو، وصارت مكانته كرئيس ديني له سلطة إشرافية، وسجل لوجارد انتهاء الخلافة الإسلامية في سوكوتو في مرسوم له أعرب فيه بأن الغزو الفولاني في الفترة السابقة بقيادة الشيخ عثمان بن فودي قد أخضع هذه المناطق، وصار للفولاني حق حكم هذه الجهات وجباية الضرائب وعزل الأمراء والحكام. لكن بسبب هزيمة الفولاني وسقوط الخلافة انتقلت كل الأمور إلى الغزاة الجدد من البريطانيين.

والسؤال الآن: هل توقفت المقاومة الإسلامية بعد دخول لوجارد إلى العاصمة سوكوتو؟

إذا استعرضنا الأحداث بعد سقوط العاصمة وذهاب الخليفة إلى الشرق نجد أن المقاومة الإسلامية لم تتوقف حيث أسرع الناس في جماعات متفرقة نحو الشمال أو الشرق وراء خليفتهم، وتجمعوا من جديد، وبدأت حركة مهدية في عام 1903 تطالب باستمرار المقاومة لهذا الغزو الأوروبي،

وأعلن الناس الولاء للخليفة المعزول، وأظهروا استعداداتهم للوقوف بجانبه رغم الهزيمة العسكرية[1]. ولما وصلت أخبار تجمع المسلمين من جديد خلف زعيمهم وخليفتهم أرسل المقيم في سوكوتو فرقة عسكرية بقيادة الكابتن جودون Goodwin لمطاردته فاضطر الخليفة إلى الاتجاه شرقا، واشتبك أثناء مروره على إمارة زاريا مع قوة بريطانية بقيادة الكابتن سورد Sword. لقد كان الخليفة في حيرة حيث لم تتضح أمامه أهداف محددة، وكان يتلقى نصائح متضاربة من أتباعه، فمنهم من يطالبه بالاستسلام، ومنهم من يشير عليه بالهجرة، ومنهم من يطالبه بالاستمرار في تحدي البريطانيين، وبالتالي تشتت فكر الخليفة، ولم يجد من يقدم له النصيحة المخلصة في تلك الظروف الصعبة التي أطبق البريطانيون عليه من كل جانب حتى الجانب الشرقي الذي يجد فيه الخليفة ملاذا للحركة، وعندما سيطر البريطانيون على بحيرة تشاد ووجد الخليفة الطريق مغلقا اتجه للشرق في إمارة ميسو (Missau)، وأخيرا اضطر إلى الذهاب إلى مدينة بورمي، وواصل المسيرة حتى استقر به المطاف أخيرا في مكان يدعى «بيما هل» (Bima Hill). وهناك انضم إليه بعض الفلاحين وكون قوة جديدة، لكن البريطانيين خافوا من ازدياد انضمام الأتباع إليه فقرروا القبض عليه أو طرده، وبالتالي تم تجهيز قوة بريطانية لتعقب هذا الخليفة [1]. ويوضح هذا الصمود من جانب الخليفة وأتباعه أنه لا يريد الاستسلام بسهولة بالرغم من تخلي كل المساعدين والمعاونين عنه، وبالرغم من سقوط دولته وتعيين سلطان جديد، إلا أن روح الفداء وروح العطاء كانا وراء هذا الصمود الذي جعل الخليفة يواصل بكل ما أوتي من قوة جهاده حتى النهاية، وحتى تكتب له الشهادة في سبيل الدفاع عن شرف الإسلام والمسلمين، وكانت النهاية في أرض بورمي آخر معقل للخليفة في بلاده.

خامسا: معركة بورمي الأولى.

بدأت المناوشات بين القوات البريطانية بقيادة براون، وقوات الخليفة في بيما هل، واضطر الخليفة إلى عبور نهر جونجولا، ولكنه لم يجد ملاذا فعاد أدراجه إلى بورمي في السادس عشر من مايو عام 1903. وبذلت القوات البريطانية جهدا كبيرا لدخول مدينة بورمي، لكن لقيت مقاومة

عنيفة من قوات المعلم موسى التي دافعت دفاعا مستميتا عن المدينة. ورغم سقوط عدد كبير من قوات المدينة ما بين قتيل وجريح إلا أنهم صمدوا ومنعوا البريطانيين من دخول المدينة، واضطرت القوات البريطانية إلى الانسحاب بعيدا عن أسوار المدينة. وفي الوقت نفسه دخل عدد كبير من سكان المدن الأخرى إلى قلب برومي للانضمام إلى قوات الخليفة، ومن ثم ارتفعت الروح المعنوية للمجاهدين، وبدأت مرحلة جديدة من الصمود أمام القوات البريطانية. ومع استمرار القتال وتجدد الاشتباكات خسرت القوات البريطانية بقيادة الكابتن سورد (Sword) أكثر من ستين قتيلا من بينهم عدد من الضباط البريطانيين جنبا إلى جنب مع عدد الجرحى، وعلى الجانب الآخر بلغت الخسائر في بورمي حوالي 250 قتيلا بما فيهم رئيس المدينة المعلم موسى نفسه الذي سقط شهيدا وهو يدافع عن مدينته الإسلامية. ورغم هذه الخسائر لم يستسلم المدافعون وأجبروا الكابتن سورد على الارتداد والانسحاب إلى مكان بعيد عن بورمي [1].

انسحب الكابتن سورد وهو يجر أذيال الهزيمة إثر الصمود العنيد لقوات الخليفة في سوكوتو في آخر حصن للمسلمين في بورمي، وتقدم سورد بقواته المنهزمة إلى إمارة بوش حيث وصلت إلى هناك في الثالث والعشرين من مايو. وكانت هذه أولى هزائم البريطانيين منذ غزوهم لدولة الخلافة في سوكوتو، وهذا يعطي دليلا واضحا على صمود المسلمين الذين لم يستسلموا بسهولة، وبالرغم من سقوط عاصمتهم، وعزل خليفتهم إلا أن روح الجهاد والصمود ظلت معهم، واستطاعوا أن يلحقوا بالأوروبيين خسائر في إحدى معارك الكفاح والنضال ضد التوسع البريطاني [2].

بعد هذه السلسة الطويلة من المعارك أحس الخليفة أن المقاومة للغزو الأوروبي عديمة الجدوى بعد أن فقد أرضه ومنصبه، ولم يبق له سوى الإيمان بالله تعالى والاعتزاز بدينه، فطلب من المقيم البريطاني في إمارة بوش السماح له بالخروج من الدولة والهجرة شرقا لأنه لم يعد يجد في الحرب أي فائدة، لكن جاء رد المقيم على غير هوى الخليفة حيث أصر المقيم على استسلامه دون شرط، أو وعود فرفض الخليفة الاستسلام للبريطانيين. ولعل رفض الخليفة للاستلام إنما يعود إلى أنه بعد عودته إلى بورمي وقع تحت تأثير جماعة من المتعصبين الذين أرادوا الحرب حتى

النهاية، ومن هؤلاء جماعة المعلم جبريل ورجال الطرق الصوفية الذين كان لهم دور في مقاومة الاستعمار الأوروبي في كل أنحاء أفريقيا بالإضافة إلى أمراء نيب، وأمير ميسو، ونائب الحاكم في كيفي، والعامل الآخر هو أن الخليفة كان رجلا ورعا يعتز بكرامته ودينه أمام أتباعه، وكان استسلامه إهانة كبرى لمكانته بين المسلمين، وكان قرار الصمود ورفض الاستسلام يعني مواصلة الكفاح المشرف حتى الشهادة في سبيل الله في معركة بورمي الثانية.

سادسا: المعركة الأخيرة وانتهاء المقاومة.

بعد أن أصيبت بريطانيا بنكسة في بورمي بدأت تستعد لهجوم جديد انتقاما من هذه المدينة ومن سكانها، وأخذت التعزيزات تصل إلى هذه المنطقة حيث وصلت قوة من ستين فارسا، وثمانين من صف الضباط تحت قيادة الميجور بارلو (Barlow)، وحدث اشتباك بسيط بين القوات البريطانية وقوات الخليفة في مدينة أشاكا، لكن لم يتحقق النصر لأي من الطرفين وعادت قوات الخليفة إلى بورمي، وتمكنت القوات البريطانية من إخضاع كل المدن المجاورة لبورمي حتى صارت مدينة منعزلة عن بقية أجزاء الدولة.

وكانت أنباء هزيمة الكابتن سورد في بورمي قد شجعت وزارة المستعمرات على إرسال برقيات إلى كل من سيراليون، وساحل الذهب، ولاجوس، وجنوب نيجيريا تفيد إرسال قوات إلى سوكوتو إذا استدعى الأمر.

وفي السابع والعشرين من يوليه عام 1903 تحركت القوات البريطانية إلى أسوار مدينة بورمي لتبدأ المعركة الأخيرة التي حارب فيها سكان بورمي أشد المعارك بسالة، وواجهوا أسلحة الأوروبيين المتطورة بإيمان صادق وعزيمة لا تلين، وكانوا يفضلون الشهادة في سبيل الله على الاستسلام للأوروبيين، ومن هنا ازداد المدافعون إصرارا، واشتد وطيس المعركة أمام الأسلحة البريطانية المتطورة.

لقد كان عجز الوسائل الدفاعية في مدينة بورمي سببا في فتح البريطانيين لبوابتين من أبواب المدينة من الناحية الجنوبية الغربية، لكن المدافعين ما إن شاهدوا القوات البريطانية حتى أطلقوا عليهم السهام والأعيرة النارية. ولما تقدم الكابتن مارش «March> نحو المدنية أصابته

قذيفة من أحد المدافعين فسقط هذا الرجل قتيلا.

واصل البريطانيون برغم عنف المقاومة زحفهم نحو داخل المدينة، وتحولت المقاومة إلى لقاء وجه لوجه، وحارب المجاهدون من شارع إلى شارع ومن بيت إلى بيت، وكان البريطانيون يشعلون النار في المنازل لإيقاف اندفاع المجاهدين، وللحد من عنف المقاومة، واضطرت القوات البريطانية إلى الانسحاب خارج المدينة مما سهل لقوات بورمي الدفاع من خارج الأسوار، وتكبد البريطانيون خسائر فادحة في الأرواح والمعدات.

اضطر البريطانيون إلى طلب تعزيزات جديدة من الكابتن بارلو، ودخل البريطانيون في صراع مستميت مع سكان بورمي، ودارت اشتباكات بالقرب من مسجد المدينة، وتحطم قصر الأمير وانتهت مقاومة بورمي تماما. وكانت هذه المعركة آخر مراحل المقاومة الشديدة التي واجهها البريطانيون في غزوهم لنيجيريا الشمالية [1].

أسفر هذا الهجوم على بورمي عن موت عدد كبير من المسلمين بسبب استخدام الأسلحة، حيث قدر عدد القتلى بحوالي 650 قتيل. وهو رقم كبير لسكان مدينة صمدت حتى النهاية، ولولا الأسلحة المتطورة، والقوات التي جاءت من أماكن كثيرة لاستمر صمود هذه المدينة الباسلة [1].

وأثناء الهجوم على المدينة كان الخليفة محمد الطاهر في المسجد، واستطاع أن يقود جماعته من المجاهدين الذين اشتبكوا مع قوة بريطانية وعرقلوا تقدم الكابتن بالمر، لكن الخليفة وقد صمد حوالي الساعة شعر بعدم جدوى المقاومة فقرر الخروج من المسجد، لكن كان الموت ينتظره لأنه عندما اقترب من السور الجنوبي أصيب بطلقة في رأسه، فسقط شهيدا ومعه اثنان من أتباعه حيث لقي الثلاثة حتفهم وفضلوا الشهادة في سبيل الله، والدفاع عن الدين حتى وهم في أسوأ حالات اليأس والقنوط، وبعد أن فقدوا كل شيء عدا سلاح الإيمان الذي جعلهم يواصلون الصمود منذ فترة طويلة، وشاركهم في هذا المصير البطولي الأمير الزبير أمير أدماوا [2].

وقبل أن تغرب شمس يوم 27 يوليه 1903، وعلى أشلاء جثث الضحايا المجاهدين، وبين الدخان والدمار في مدينة بورمي، وبين الدمار الذي حل في كل مكان، ووسط هذه الفوضى التي حلت بمدينة إسلامية ظلت تكافح وتؤوي المجاهدين في سبيل الله، جاءت النهاية المحتومة لدولة الخلافة

الإسلامية، وأسدل الستار على دولة إسلامية تأسست في أوائل القرن التاسع عشر بفضل جهاد الشيخ عثمان بن فودي الذي أحيا السنّة وأخمد البدعة، وجاهد في سبيل الله حق جهاده، وظل خلفاؤه يحكمون ويطبقون شريعة الإسلام الغراء في تلك الإمبراطورية حتى سقوطها في النهاية في أيدي القوات البريطانية بعد أن أرست دعائم الدين، وطبقت الشريعة الإسلامية في كل منحى من مناحي الحياة، وعاد عصر الخلافة المزدهر في هذه الدولة. ولما سقطت الدولة ودخلت الإمبراطورية في ظل الحكم البريطاني عجز البريطانيون عن تغيير النظم الإسلامية التي ترسخت في نفوس الناس، ومارسها الشعب طوال قرن انقضى ولم يجدوا بديلا أفضل منها، فتركوها وأبقوا عليها، وادعوا أنهم أدخلوا نظام الحكم غير المباشر، وظلت سوكوتو تمارس نشاطها الروحي في شمال نيجيريا حتى يومنا هذا، ومازال المسلمون في نيجيريا يشكلون أغلبية السكان، ومازالت نيجيريا حتى الآن أكبر دولة إسلامية في غرب أفريقيا بشكل خاص وفي القارة الأفريقية بشكل عام، وذلك بفضل جهود خلفاء دولة الفولاني الإسلامية، وبفضل روح النضال والكفاح الذي بذلوها طوال القرن الماضي، وبفضل حملات الجهاد في سبيل الله، وإنشاء مدن الرباط الإسلامية التي كانت ركائز إسلامية لنشر الدين الإسلامي في أعماق الصحراء وعلى حواف الغابات الاستوائية.

ومن العرض السابق لمراحل النضال التي قام بها خلفاء الدولة نجد الإصرار والتحدي ورفض الخلفاء عقد حلف مع الكفرة من المسيحيين وإصرارهم على الاستقلال بدولهم بعيدا عن المنافسات الاستعمارية. لقد كان رفض الخليفة عبد الرحمن لكل عروض لوجارد مثلا يحتذى في التحدي، ورغم سقوط ولايات الدولة الجنوبية في أيدي القوات البريطانية إلا أنه رفض التعامل معهم بأي وسيلة وتحت أي ظرف من الظروف. ورغم محاولات لوجارد للاتصال به دبلوماسيا وعقد اتفاق سلمي معه إلا أن الخليفة ظل حتى وفاته عام 1902 محافظا على العهد، ورافضا التعاون مع الأوروبيين ومصرا على تطبيق الشريعة، ومتمسكا بالدفاع عن بلاده ضد عدوان المعتدين.

ولما تولى الخليفة الجديد-مع كل الظروف المحيطة به-قرر المضي في

الطريق نفسه ورفض التعاون مع الأوروبيين الذين كانوا يقتربون من دولته ويستولون على إماراته التي سقطت الواحدة تلو الأخرى. ورغم كل الظروف الصعبة رفض خليفة المسلمين كل عروض الأوروبيين وقرر مع حفنة من المخلصين مواصلة الكفاح حتى النهاية، وبعد سقوط العاصمة وتولي سلطان جديد لم يستسلم الخليفة الذي تحرك شرقا، وجمع جيشا جديدا ودخل في معارك مستمرة مع البريطانيين، بل كبدهم كثيرا من الخسائر وألحق بهم الهزيمة أكثر من مرة وهو أعزل من كل شيء إلا الإيمان بقضية الإسلام والمسلمين. وحينما نفدت كل وسائله وفقد كل سبل المقاومة عرض على البريطانيين السماح له بالهجرة شرقا من بلاد صارت تحت حكم الكفار، لكنهم أصروا على استسلامه دون قيود أو شروط فأبى الخليفة أن يستسلم حتى لا يظهر أمام من بقى من أتباعه أنه يفرط في الدين، ورفض الاستجابة لأوامر البريطانيين، وفضل البقاء حتى النهاية، وحتى يكون من الشهداء الصالحين. فكان إصراره على المقاومة حتى الشهادة مثلا لكل من آمن بالله إيمانا قويا، وضرب هذا الخليفة لكل المسلمين ليس في غرب أفريقيا بل في العالم الإسلامي المثل الواضح على الدفاع في سبيل الله، وصار الخليفة رمزا للإسلام وأسطورة للنضال، وملحمة للصراع في سبيل العقيدة والدين.

لم يكن سقوط دولة الخلافة الإسلامية في سوكوتو نتيجة تقاعس المجاهدين، أو تقصير جنود المسلمين في الدفاع عن بلادهم والدين. لقد بذلوا ما وسعتهم الحيلة واستنفذوا كل وسيلة، وحاربوا من إمارة إلى إمارة، بل من حارة إلى حارة حتى ضج بهم البريطانيون وأشعلوا النار في كل مقدسات المسلمين للتنكيل بهم: وإجبارهم على الاستسلام. لكنهم قاوموا وصمدوا وانتصروا في معارك قليلة، وظلوا حتى النهاية رجالا مخلصين، وأمناء على العقيدة. والسؤال الذي يلح علينا ونحن ننهي هذه الملحمة البطولية لرجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه. لماذا انهزمت جيوش الخلافة بسهولة أمام البريطانيين؟ إن أسباب سقوط دولة الخلافة الإسلامية بسهولة أمام الأوروبيين بالرغم من المعارك الطويلة واستمرار المقاومة حتى النهاية إنما يرجع للأسباب الآتية:

أولا: أن دولة الخلافة طوال القرن التاسع عشر اعتمدت على ولاء الأمراء للخليفة الذي يقيم في العاصمة سوكوتو، ولذا لم يكن لدى الدولة

جيش مركزي دائم يستطيع التوجه إلى أي معركة تحت قيادة مركزية واحدة، بل كانت الجيوش ترسل من الإمارات أثناء حملات الجهاد، ثم تعود هذه الجيوش إلى إماراتها بعد الحملات العسكرية، وظل هذا النظام سائدا طوال عهد الخلافة. ولما بدأ التوسع البريطاني لجأ لوجارد إلى أسلوب القضاء التدريجي على جيش كل إمارة ولم يتحرك السلطان لإنقاذ الإمارات لأن الجيش محدود، ولأن القيادة غير مستعدة لتلك الجيوش الأوروبية.

ثانيا: اتضح من الغزو البريطاني التدريجي لإمارات الدولة أن كل إمارة انشغلت بالدفاع عن مصالحها الخاصة فقط، وكانت كل إمارة تواجه الموقف بنفسها وتارة تحارب وتجاهد وتدافع، وتارة أخرى يهرب أميرها إلى إمارة ثانية، لكنه لم يجد الملاذ للاستعداد للمقاومة، ومرة أخرى كانت بعض الإمارات تدخل في اتفاق سلام واستسلام للبريطانيين فتسقط الإمارة دون إدراك أميرها أنه وضع نفسه تحت رحمة الأوروبيين، وبعبارة أخرى كان الأمراء يسيرون أمورهم حسب الظروف لعدم وجود سياسة موحدة تجمع الإمارات تحت قيادة واحدة متعاونة. وحتى الخليفة نفسه كان عاجزا عن الاستجابة لصيحات الإمارات التي واجهت مصيرها بنفسها، ووجدت من الخلافة تجاهلا لها ولمستقبلها فراحت تبحث عن وسائلها الخاصة، الأمر الذي أوقعها فريسة سهلة أمام القوات البريطانية الزاحفة نحو الإمارات الواحدة تتلوها الأخرى حتى أطبق لوجارد ورجاله على جميع إمارات الدولة وانفتح الطريق أمامه للعاصمة. ولو كانت هناك سياسية مركزية وجيش دائم بقيادته العسكرية لامتدت فترة المقاومة، ولربما تغيرت الصورة، وحافظت الدولة على استقلالها.

ثالثا: يضاف إلى عدم التنسيق عدم وجود القيادة المركزية المشتركة أن حاربت جيوش الدولة بأسلحة بالية تمثلت في الحراب والدروع والسهام والسكاكين والسيوف، وهي أسلحة تصلح لمدن لها أسوارها، أو لجيوش أفريقية لها مثل هذه الأسلحة، وتحتاج العمليات الحربية إلى فترات طويلة من الكر والفر والحصار، لكن هذه الأسلحة التقليدية واجهت جيشا غازيا تسلح بأحدث ما وصلت إليه تكنولوجيا عصره من سلاح بالإضافة إلى التدريب والتخطيط للمعارك بأسلحة نارية قلما حمل الأفارقة مثيلا لها، وبالتالي واجه جيش الخلافة حربا من نوع جديد، وخططاً عسكرية مدروسة

ومعارك يمكن أن تحسمها مدافع المكسيم في أقل فترة ممكنة مع ما تخلفه وراءها من آثار مدمرة من القتلى والجرحى، فكانت الكفتان في وضع متناقض. جيش تقليدي يستخدم الفروسية والدروع والرماح، وجيش مدرب ومسلح بأحدث الأسلحة فكانت الغلبة للجيش الأوروبي الحديث.

رابعا: عاشت إمارات الدولة طوال القرن التاسع عشر في حملات جهاد مستمرة ضد الوثنيين، وكانت جيوش الإمارات على دراية واسعة بخطط المناطق التي يعلنون فيها حرب الجهاد، وبعبارة أخرى عرف المسلمون نظم الحرب لدى القبائل التي يشنون عليها حروبهم. وكانوا يتعايشون مع هذه النظم ويعرفون سبل مقاومتها والقضاء عليها، ولكن مع الغزو الأوروبي واجه جيش الإمارات أول لقاء مع الأوروبيين، وبالتالي كانوا يجهلون خططه وإمكاناته في الوقت الذي تمرست فيه القوات الأوروبية على خطط المقاومة الأفريقية في أماكن أخرى من القارة، وهذا ما سهّل على الأوروبيين مهمة الالتحام مع الأفارقة بأسلحتهم التليدة، وخططهم البالية فكان النصر حليفا لهم.

خامسا: سياسة لوجارد في احتلال إمارات الدولة بشكل تدريجي، فكان هذا التدريج يعطيه الفرصة لدخول الإمارات الواحدة بعد الأخرى. والمعروف أن قوة كل إمارة في حد ذاتها أضعف كثيرا مما لو واجه عدة إمارات في وقت واحد، أو شتت قواته في أكثر من موقع فكان التركيز على الإمارات الواحدة تلو الأخرى عاملا قويا في التوسع التدريجي في مناطق الدولة، وساعده على ذلك عدم وجود تنسيق أو تعاون بين الإمارات، كما أن موقف الخليفة السلبي من الإمارات الجنوبية وعدم إعلانه التعبئة العامة وإرسال الجيوش إلى المناطق التي بدأت تقاوم التوسع الأوروبي جنوبا سهّل للوجارد مهمته، فاضطرت الإمارات إلى الاستسلام أو الدخول في صلح مع البريطانيين.

تفسر كل هذه العوامل أسباب سقوط هذه الدولة الإسلامية أمام فئة من الأوروبيين الذين أحكموا خططهم، ونفذوا عملياتهم بشكل منظم ضد تلك الإمبراطورية الشاسعة، لكن لا يمكن أن نغفل أن طريق الأوروبيين، وهم يتوسعون للسيطرة على الدولة، لم يكن مفروشا بالورود ولم يكن سهل المنال، بل على العكس واجه الأوروبيون مقاومة إسلامية في كل خطوة

خطوها، ووجد الإنجليز التحدي من الأمراء ومن الرجال المخلصين، ومن رجال الطرق الصوفية الذين ناضلوا وكافحوا وكبدوا البريطانيين خسائر فادحة اعترف بها المقيمون البريطانيون في تقارير طويلة إلى حكومتهم.

وما أمثلة الكفاح على أرض بورمي وإصرار الخليفة على مواصلة الكفاح حتى النهاية إلا نموذجا أمام الأوروبيين على قوة تعصب المسلمين لدينهم. وأسدل الستار على إمبراطورية إسلامية في غرب أفريقيا قامت بدورها خير قيام للدفاع عن الإسلام وحضارته، ورغم سقوطها في أيدي البريطانيين في عام 1903 إلا أن الدور الذي لعبته في الحفاظ على الشريعة في ظل الحكم البريطاني غير المباشر قد أتاح لها أن تتبوأ مكانة روحية في نفوس المسلمين الذين ظلوا على الولاء لدينهم، وحافظوا على تقاليدهم، وأحيوا الخلافة الإسلامية بكل معانيها. ومازال المسلمون في نيجيريا حتى يومنا هذا ينعمون بفضائل الدين ويحافظون على العقيدة التي ترسخت بعد حركة جهاد الشيخ عثمان بن فودي.

2 المسلمون والغزو الأوروبي لإمبراطورية التوكولور

انتشر الدين الإسلامي في غرب أفريقيا عندما ظهرت طلائع المرابطين البدو الذين جاءوا من المغرب الأقصى ودخلوا عن طريق سهل المحيط الأطلسي واتجهوا جنوبا حتى حوض السنغال، ولكنهم توقفوا عند منطقة الشجيرات القصيرة، ولم يتوسع الإسلام جنوبا بسبب الغابة الاستوائية، وبسبب مقاومة أهالي البلاد من الوثنيين وخصوصا شعب البمبارا[1].

ولعبت مدن شمال أفريقيا دورا كبيرا في نشر الدين الإسلامي في غرب القارة، وتكونت ممالك ومدن إسلامية عريقة في الغرب حيث نجد دولة غانا، ومالي، وصنغي، ومدن تمبكت، وكانوا، وجاو، وصارت هذه المدن مراكز الإشعاع للحضارة الإسلامية حيث تشرّب الناس تلك الحضارة، وأقاموا دويلات إسلامية، ولعبت الطرق الصوفية أيضا دورا رياديا في نشر الإسلام، وتصحيح العقيدة، بعد أن مارس السكان بعض العادات الوثنية التي اختلطت بالمثل والقيم الإسلامية، وصار من الضروري ظهور رجال الإصلاح والتجديد الذين

ذهبوا إلى مكة، ثم عادوا إلى بلادهم ليعلنوا الجهاد ضد الوثنيين، وليؤسسوا دولا إسلامية تتخذ من الشريعة الغراء منهاجا وسبيلا للحكم. وتصادف قيام تلك الحركات الإصلاحية في غرب أفريقيا مع بدايات التوسع والتكالب الأوروبي على مناطق القارة الأفريقية[2]، فصار جهاد زعماءالمسلمين في جبهتين: جبهة ضد الوثنيين وأخرى ضد الأوروبيين. وهذا ما أعطى جهاد المسلمين صفة الحروب الصليبية، والتي سجل فيها زعماء الإسلام بطولات فائقة، ووقفوا سدا منيعا ضد محاولات التوسع الأوروبي، وكبدوا العدو خسائر فوق طاقاته، ونجحوا في إرساء أسس العقيدة الإسلامية على أساس صحيح، ومازالت شعوب غرب أفريقيا الإسلامية تدين إلى زعماء هذه الحركات الإصلاحية. ومن أبرز الزعماء الذين ساهموا بشكل فعّال في مقاومة التوسع الأوروبي ذلك المجاهد التيجاني الحاج عمر الفوني التكروري. وسوف نعرض لسيرة هذا الزعيم ونشأته والإمبراطورية التي سعى لتكوينها على أنقاض الإمارات الوثنية في حوض السنغال، ثم لبداية الصراع مع الفرنسيين من ناحية، ومع القوى المحلية من جهة أخرى، وأخيرا تتبع جهاده ومقاومة أبنائه للتوسع الفرنسي حتى سقوط دولة التوكولور.

أولا: نشأة الحاج عمر التكروري:

ولد الحاج عمر بن سعيد في قرية حلوار بالقرب من بودور (Podor) على الحدود السنغالية الموريتانية في عام 1795، وكان الحاج عمر هو الابن الرابع للشيخ سعيد الذي ينتمي إلى التوردوب الذين قاوموا الوثنية في هذه المنطقة، وبعد ذلك لعبت هذه الجماعات دورا في مقاومة التوسع الأوروبي بعد أن اعتنقت الإسلام وقامت بنشره في المنطقة، وصار أتباع هذه الجماعة من أكثر الناس حماسا لنشر الدين الإسلامي[1].

درس الحاج عمر اللغة العربية، وعلوم الدين تحت إشراف والده، فحفظ القرآن الكريم، ودرس صحيح مسلم وصحيح البخاري، وعندما بلغ سن الخامسة عشرة من عمره ترك حلوار لكي يتلقى العلم وعلوم الدين تحت إشراف العلماء المحليين في فوتاتورو، وعلى مشايخ الطرق الصوفية وخصوصا الطريقة التيجانية[1].

وفي عام 1814 ترك الحاج عمر منطقة فوتاتورو واتجه إلى مدينة ساتينا

(Satina) في فوتاجالون التي تبعد مئات الأميال عن مدينة حلوار. وفي هذه المدينة بدأ يكسب لقمة العيش من خلال تدريس القرآن الكريم والسنة الشريفة لأطفال القرى والمدن المجاورة. وظل هناك حتى بلغ من العمر واحدا وثلاثين عاما.

وفي عام 1826 قام الحاج عمر برحلة ثقافية ودينية طويلة بدأها بالذهاب إلى بيت الله الحرام لأداء فريضة الحج مع أخيه علي، وفي إحدى رحلاته إلى البلاد المقدسة التقى بالشيخ عبد الكريم النقيل أحد علماء التيجانية من فوتاجالون حيث درس على يديه مبادئ هذه الطريقة، وذهب الحاج معه إلى مدينة «حمد الله» العاصمة الجديدة لدولة ماسينا. وفي هذه المدينة توطدت علاقات الحاج عمر مع سكان ماسينا الذين عهدوا إليه بنشر مبادئ الدين الإسلامي لأبناء المدينة ولأبناء الأسرة الحاكمة[2].

وانتقل الحاج عمر من ماسينا إلى دولة الخلافة الإسلامية في سوكوتو حيث قضى سبعة أشهر غادر بعدها المنطقة إلى فزان، والسودان المصري في ذلك الوقت، وأخيرا وصل إلى مكة المكرمة عام 1828، حيث قابل هناك الشيخ محمد الغالي أحد رفاق الشيخ أحمد التيجاني وخليفته في الحجاز. وفي الحجاز اكتسب الحاج عمر شعبية كبيرة جعلته في صراع مع العلماء هناك، الأمر الذي جعله يعجل بالعودة من الحجاز[1].

وفي رحلة العودة زار الحاج عمر العديد من الدول، واستقر في بعضها حينا من الوقت، ومر بالقاهرة، وبرنو وقضى عدة سنوات هناك، ثم استقر في دولة سوكوتو. ويقول الحاج عمر: إنه جاء إلى بلاد الهوصا والتقى بالخليفة محمد بلو، وحاول التوفيق بين المسلمين في سوكوتو، وكانم، وإمبراطورية البرنو، لكنه كان على عجل للتوجه إلى غرب أفريقيا لتحقيق أهدافه في بناء دولة إسلامية[2].

لقد لقي الحاج عمر معاملة حسنة من الخليفة محمد بلو الذي زوجه إحدى بناته وتدعى فاطمة، وفي سوكوتو التقى الحاج بالرحالة الإنجليزي هوج كلابرتون الذي أشاد بذكاء هذا العالم من فوتاتورو[3].

وسافر الحاج عمر إلى القاهرة ومنها إلى بلاد الحجاز ثانية حيث التقى في هذه المرة بالشيخ محمد الغالي ثانية، وظل معه ثلاث سنوات أنهى فيها تعليمه، وحصل منه على الإجازة(الشهادة) التي تمكنه من تقلد

منصب شيخ الطريقة، وبالتالي يصير من حقه إرشاد الناس مبادئ الطريقة التيجانية إلى كل من يرغب في الانضمام إليها من المسلمين[4].

وفي طريق عودته إلى السودان زار القاهرة حيث مكث بعض الوقت في الجامع الأزهر، أكمل خلالها تفسير القرآن الكريم، ورحل مع أخيه علي وزوجته فاطمة، وابنته الصغرى إلى غرب أفريقيا، وبدلا من أن يتجه من فزان، وكاتسيا، ثم سوكوتو، سلك الحاج عمر طريقا صعبا وعر المسالك إلى برنو. وفي طريقه مات أخوه علي وواصل الباقون الرحلة حتى وصلوا إلى برنو، لكن لقاء الشيخ الأمين الكانيمي كان غير ودي بسبب علاقات الحاج عمر مع خليفة المسلمين في سوكوتو، واتجه الحاج إلى بلاد الهوصا وحاول نشر مبادئ التيجانية، ازدادت علاقات الحاج عمر وثوقا بالخليفة محمد بلو، وظل الحاج هناك حتى وفاة الخليفة في عام 1837.

استفاد الحاج عمر كثيرا من إقامته في دولة سوكوتو حيث تعلم طرائق الحكم، بل شارك في جيوش الخلافة ضد الوثنيين، وانتصر في بعض المعارك، فكانت هذه فترة إعداد وتحضير للدور الكبير الذي يعد نفسه له في المستقبل، وحقق الحاج بعض الثروات من جراء الاشتراك في الحروب والحصول على قدر من الأسلاب والأسلحة والرقيق.

ويروي أحد الرحالة الأوروبيين أن الحاج عمر أحضر معه وهو في سوكوتو عددا كبيرا من المصاحف والكتب الدينية، وبعض الرقيق الذين باعهم في الطريق، وحقق من جراء ذلك مكاسب كثيرة، وجمع ثروات كبيرة كانت ذخيرة له في بناء دولته فيما بعد[1].

بعد وفاة الخليفة محمد بلو عام 1837 غادر الحاج عمر سوكوتو في العام التالي، وتعتبر هذه الفترة من أغنى فترات الإنتاج الأدبي في حياة الحاج عمر، حيث عبر فيها عن مشاركته سياسيا وعسكريا في عمله الكبير» الرماح»، ولقد التقى الحاج عمر في هذه الفترة مع الشيخ أحمد البكائي وهو أحد أحفاد سيدي المختار الكنتي الذي كان له الفضل الكبير في نشر الطريقة القادرية في السودان الغربي في أواخر القرن الثامن عشر، ولقد رأى الشيخ البكائي في الحاج عمرشخصا طموحا يريد أن يضم الدويلات الإسلامية الموجودة في المنطقة، ولذا أخذ منه موقفا عدائيا حتى نهاية حياة الحاج عمر كما سنوضحه فيما بعد[1]. بقى الحاج عمر تسعة أشهر

في منطقة ماسينا، لكن بسبب محاولاته نشر الطريقة التيجانية حدث نوع من العداء تجاه الحاج، بل جرت محاولات لاغتيال الحاج عمر والقضاء على نفوذ الطريقة التيجانية، فاضطر الحاج عمر إلى عبور نهر النيجر وهو في حالة سيئة، حيث إن ملك البمبارا الوثني ويدعى فاما تيفلو (Fama Tyfilu) قام بسجنه في سيجو، لكن هذا الملك الوثني أطلق سراحه، وأعطاه أموالا وعامله معاملة حسنة[2].

ومن سيجو انتقل الحاج عمر عبر نهر النيجر إلى كانجابا (Kangaba) حيث مكث ثلاثة أشهر في تلك المدينة التجارية لمسلمي الماندي في القرنين السابع عشر والثامن عشر[3].

ورغم أن حاكم كانجابا شيد له منزلا في مدينته إلا أن الحاج غادر المدينة إلى كان كان، حيث قضى الحاج عامين نشر خلالها الطريقة التيجانية، وساعده الحاكم ألفا محمود، في هذا المجال، بإرسال كتيبة عسكرية وقفت بجانبه[4]. كان من الواضح أن الحاج عمر، وهو يقيم في مدينة كان كان خلال عامي 1838 و 1839، يفكر في مكان دائم يصلح كمركز يستقر فيه، ويكون قاعدة لنشر مبادئ الطريقة التيجانية كمقدمة لبدء الجهاد. وفي عام 1840 تحرك الحاج عمر إلى مدينة كومبيا (Koumbiya) التي تقع في الشمال الغربي من فوتاجالون، وتوقف في هذه المدينة فترة من الزمان، لكنه انتقل قي النهاية إلى مدينة دياجونكو (Diagonko) بالقرب من منابع نهر بافنج (Bafing) وهنا وجد الحاج عمر المكان الذي كان يبحث عنه طويلا، فاستقر في دياجونكو مدة من الزمان قاربت على السنوات الأربع (1840- 1844) حيث انتهى من تأليف كتابه «الرماح»، وحيث خصص جزءا للحديث عن رغبته في تقلد منصب الخليفة بعد أن شاهد رؤيا في المنام بهذا الشأن[1].

وعندما اتجه الحاج إلى مدينة سانت لويس القريبة من مصب نهر السنغال واجه موجة من العداء المكشوف من السلطات المحلية خصوصا في مناطق قبائل الولوف التي نظرت إليه باعتباره رجلا يسعى لبناء مملكة سياسية، بل حاولوا اغتياله.

لكن الحاج عمر عبر النهر إلى فوتاتورو، حيث مسقط رأسه في حلوار، والتي غادرها منذ عشرين عاما. واتجه أخيرا إلى منطقة باكل على نهر

السنغال[2]

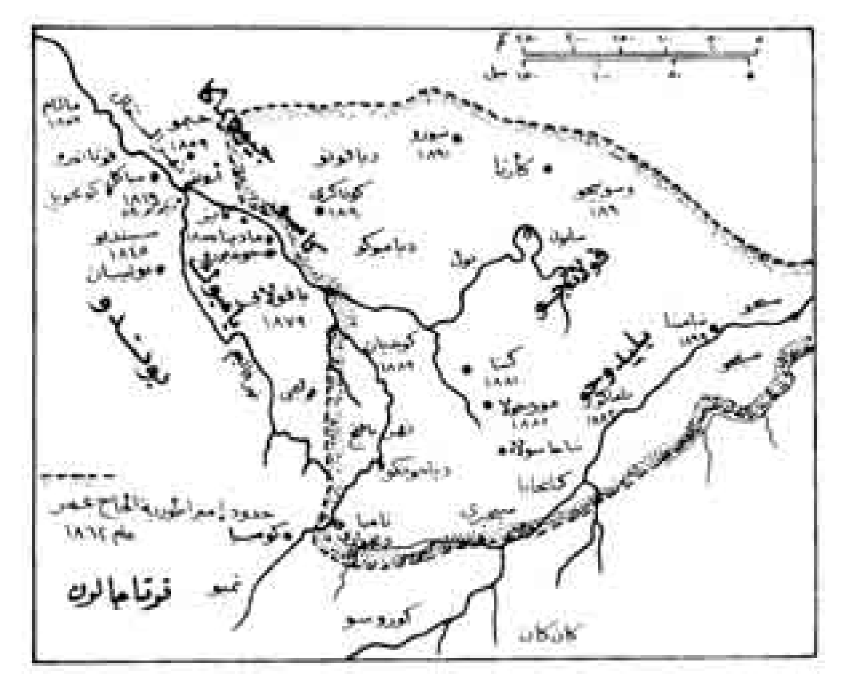
والتقى الحاج عمر بالضابط الفرنسي هيكورت (Hecquart) في المركز الفرنسي الجديد الذي احتلته قوات سانت لويس، وناقش الحاج عمر مع الفرنسيين ومع السلطات المحلية خطة جهاده في المستقبل، وأخيرا عاد ثانية إلى مدينة دياجونكو بعد أن انضم إليه عدد كبير من الأتباع. وكان الاستقبال العظيم الذي لقيه الحاج عمر خلال هذه الأسفار قد أعطاه أهمية كبرى، وأغراه بالقيام بثورة ضد الفرنسيين بين السكان الذين يعيشون على ضفاف نهر السنغال[3] وفي عام 1849 رحل الحاج عمر إلى دنجوراي (Dinguiray) التي صارت المقر الروحي والعسكري. وكانت الإمامة في فوتاجالون هي التي أجبرت الحاج عمر على الهجرة من دياجوكو إلى دنجوراي فاعتبرها الحاج شبيهة بهجرة الرسول الكريم عليه السلام من مكة إلى المدينة. واعتبر الشيخ أهل دياجوكو بمثابة المهاجرين، وأهل دنجوراي بمثابة الأنصار. ومن هنا بدأ إعلان الجهاد الذي استمر حتى وفاته في عام 1864[1].

وقبل الحديث عن المعارك التي خاضها الحاج عمر ضد الوثنيين وضد الفرنسيين نجد أنفسنا) أمام سؤال يلح علينا قبل أن نخوض في تفاصيل الجهاد والحرب وهو:

كيف كوّن الحاج عمر جيشه وهو دائم التنقل من مكان لآخر؟ لقد استطاع الحاج عمر أثناء إقامته في سوكوتو، ومن خلال المعارك التي خاضها مع الخليفة محمد بلو أن يكتسب الكثير من الأعوان المخلصين، كما أن الأسلاب التي حصل عليها من الحروب كانت تضم الرقيق الذين حررهم وضمّهم إلى جانبه.

وكان الحاج عمر يقسم قواته إلى ثلاث مجموعات: الطلاب الذين يناصرونه في نشر الطريقة، ثم الصوفيون من الرقيق وغيرهم من المسلمين الأكثر حماسا للجهاد، وأخيرا جماعات التوبورو (Tuburu) وهم الذين يتم تجنيدهم بالقوة، وكان الشيخ يكتسب أعوانا جددا في كل المناطق التي مر بها أو قام بغزوها. وبلغت قواته حوالي 12000 رجل حسب قول أحد المؤرخين بعد استيلائه على مدينة تامبا (Tamba)[2]، وزاد هذا العدد إلى 15000 جندي أثناء حصار مادينا عام 1857، لكنه انخفض إلى 7000 جندي عند

غزو ماسينا بسبب المجاعة، لكنه عاد وارتفع إلى 30000 جندي عام 1861.
وفي عام 1852 أعلن الحاج عمر الجهاد ضد الوثنيين في السودان الغربي، واستطاع في خلال عشر سنوات أن يسيطر على كل السودان الغربي من حدود مدينة تمبكت حتى حدود السنغال الفرنسية، ورغم أنه اعتبر نفسه مصلحا دينيا، وأعلن الزهد في الأمور الدنيوية المؤقتة إلا أنه كان مستعداً لتحقيق آماله من خلال الطرائق السياسية والعسكرية. واعتبر الحاج عمر أن رسالته المقدسة هي تنقية الإسلام في السودان الغربي من كل ما علق به من شوائب، ووضع حد للوثنية، وتطبيق الشريعة الإسلامية. ومن هنا وضع نفسه على رأس دولة إسلامية. واتبع أسلوب العنف في تحويل الناس الوثنيين إلى الشريعة الإسلامية. وقام ببناء المساجد ونشر المدارس القرآنية في كل أرجاء المنطقة التي امتدت إليهما حركته الإصلاحية.[1].



شكل رقم (6)

وكان حماس جيشه واضحا في تطبيق مبادئ الشريعة، وكان هذا الحماس سببا في ازدياد عدد الأتباع الذين انتشروا على نطاق واسع يدافعون عن الدين، ويعيدون للإسلام مجده في هذه المنطقة لدرجة أن حاكم السنغال الفرنسي عبّر عن دهشته لهذا الحماس الديني واندفاع المسلمين بكل شجاعة وقوة نحو نيران الفرنسيين سعيا في الاستشهاد في سبيل الله والوطن(2).

وفي عام 1854 سيطر الحاج عمر على معظم أعالي نهر السنغال، ووصل نفوذه إلى باكل، وكان يأمل في الحصول على أسلحة من الفرنسيين، لكن خطر توسعاته في الغرب غيّر العلاقات، فتحولت إلى عداء مفتوح بين الحاج عمر والفرنسيين(3)، ذلك أن قوات الحاج عمر بعد أن اكتسحت كاسو وباماكو اخترقت طريقها إلى كارتا، وبالتالي تكون قد اقتربت من المركز الفرنسي الجديد في باكل على نهر السنغال، وحاول الحاج عمر الحصول على أسلحة من الفرنسيين لكنهم وجدوا فيه خصما عنيدا فرفضوا إعطاءه الأسلحة، أو تقديم المساعدات الفنية لجيشه(4).

وكان الحاج عمر يرغب في تحسين علاقاته مع الفرنسيين مقابل الحصول على الأسلحة والذخيرة، وكان على استعداد للموافقة على تسهيل تجارة الفرنسيين عبر إمبراطوريته حتى لا يهاجموه من المؤخرة إذا ما انشغل في حروب مع كأرتا(1).

وقال الحاج عمر في لقاء مع بعض المسؤولين الفرنسيين: إنه يرغب في السلام ويكره الظلم، وإن على الفرنسيين دفع الجزية إليه حتى يمكنهم المتاجرة في أمان، وإنه بعد أن يصبح إماما لفوتاتورو فسوف ينظم الدولة، وسوف تسود علاقات الود بالفرنسيين(2).

وفي هذه الفترة لم يهتم الفرنسيون باقتراحات الحاج عمر لأنهم لا يرغبون في دفع الجزية لأي حاكم محلي مسلم، وكان رد الفرنسيين الغامض على طلب الأسلحة سببا في فتور العلاقات بين الحاج عمر والفرنسيين، وقام الحاج عمر بمقاطعة المرور في حوض نهر السنغال الأعلى، بل حاول الحاج التحرك ضد المركز الفرنسي في مادينا (Madina) فكان هذا بداية مرحلة من الصراع بين الحاج عمر والقوات الفرنسية.

ثانيا: بداية الاحتكاك مع الفرنسيين.

في أوائل عام 1854 بدأت علاقات الحاج عمر بالفرنسيين تأخذ شكل العداء الواضح والصريح، ذلك لأن الحاج يرغب في الحصول على أسلحة فرنسية، فكتب إلى الحاكم الفرنسي بروتت (Protet) بهذا الخصوص، لكن الرد الفرنسي الغامض، مع ما صاحبه من مساندة أعدائه من الماندي، جعل الحاج عمر يقوم بمصادرة بضائع الفرنسيين على طول النهر، ويعلن عن غضبه لأفعال المسيحيين، وذلك في رسالة وجهها إلى الحاكم الفرنسي في سانت لويس. وكان الفرنسيون قد خططوا على أساس تقوية مكانتهم في وادي السنغال الأعلى على حساب إمبراطورية الحاج عمر، ولذا لم يكن مناسبا أو معقولا أن يزودوه بالسلاح الذي يمكن أن يستخدم ضدهم. ولذا فقد كانت سياستهم عدم دعم قوات الحاج عمر، وتقوية مراكزهم وحامياتهم في باكل، وسنوديبو (Senudebu) في أواخر عام 1855 حتى بدأت السياسة التوسعية للقضاء على هذا الزعيم المسلم.

وضع الفرنسيون خطتهم على أساس مساندة سامبالا (Sambala) أحد أفراد الأسرة الحاكمة في كاسو، ضد الحاج عمر، مقابل سماح سامبالا للفرنسيين ببناء قلعة جديدة في مادينا (Madina)، ووقع القائد الفرنسي فيدهرب معاهدة مع عدد من رؤساء الماندي، كما شجع العبيد وأتباع الحاج عمر على تركه والتخلي عنه، والانضمام إلى البمبارا في سيجو[1].

ولكي يكمل فيدهرب شبكة المحالفات ضد الحاج عمر بحث فيدهرب عن حليف له في بوندو-تلك المملكة التي تقع على طول الشاطئ الأيسر لنهر السنغال الأعلى على مفترق طرق الشمال مع الجنوب والشرق مع الغرب. ووجد فيدهرب هذا الحليف في شخصية بوكار (Bokar) بن ساندا (Sanda) الذي مات عام 1852، وكان بوكار قد انضم إلى حملات الحاج عمر لكنه تأثر بعد مصرع عدد كبير من أقاربه من العائلة الملكية في كأرتا.

واستطاع الهرب وعاد إلى بوندو حيث تحالف مع الفرنسيين بقصد إعادة سيادته إلى مملكته بعيدا عن الحاج عمر. وفي نهاية عام 1857 تحول بوكار إلى عدو للحاج عمر، وجسد تعاونه في اتفاقية مع الفرنسيين، وصار بوكار ساندا ركيزة استراتيجية للقوات الفرنسية في السنغال الأعلى حتى عام 1885 .[2]

وواجه الحاج عمر مقاومة عنيفة في كارتا، وتحت الضغط الشديد من أتباعه تحدى الحاج الفرنسيين علانية لأول مرة في أبريل عام 1857 عندما هاجم مادينا رمز السياسة الفرنسية العدوانية ضده حيث اجتاحت قوات الجهاد المدينة، وطردت سامبالا، ولم يفك الحاج عمر الحصار إلا بعد ارتفاع مياه نهر السنغال، فغادر بقواته إلى كونديان (Koundian) حيث بنى قلعة جديدة، وواصل الحاج عمر الحرب. ففي عام 1859 هاجمت قوات المجاهدين قلعة ماتام (Matam)، وأحس الفرنسيون أنهم يواجهون حربا جديدة مثل ما حدث في الجزائر، ورغم أن الحاج عمر كان يعارض المواجهة العسكرية مع الفرنسيين إلا أنه اضطر إلى ذلك اضطرارا بعد أن انتهى من غزو منطقة كارتا التي قاومت الحاج عمر فترة طويلة. وكانت حملات الحاج عمر إلى فوتا تهدف في الحقيقة إلى الحصول على عدد من الأتباع والأعوان لتدعيم جيشه قبل القيام بسلسلة أخرى من الحملات ضد الفرنسيين. ولم يكن هدفه الرئيس مهاجمة الفرنسيين. ويتضح ذلك عندما وجه حملاته بعيدا عن مناطق نفوذ الفرنسيين، وحاول عدم الاحتكاك بهم، والتوجه إلى ممالك أعالي النيجر.

وكان الحاج عمر قد أرسل إلى المسلمين في سانت لويس يطلب منهم شن حرب مقدسة ضد حكامهم الوثنيين والمسيحيين، ووعدهم بمحاربة الفرنسيين حتى يطلبوا السلام منه وقال: «إن الحرب ضد الوثنيين يجب أن تستمر حتى يوافقوا على دفع الجزية».[1] وكانت هذه الدعاية التي نشرها الحاج عمر على طول نهر السنغال ضد الفرنسيين من العوامل التي جعلت القائد الفرنسي فيدهرب يخشى قوة الحاج عمر، ويفكر في دراسة الموقف جيدا على نهر السنغال، بل ذهب شخصيا في إحدى السفن إلى باكل لمعرفة الأخبار على الطبيعة، وأدرك فيدهرب أن الحاج عمر يرغب في أن يدفع الفرنسيون ضرائب له بالإضافة إلى منعهم من إقامة مراكز عسكرية على طول شواطئ النهر. وأكد فيدهرب في مراسلاته المستمرة إلى باريس على أن الحاج عمر ينوي شن هجوم شامل على الفرنسيين أسوة بالأمير عبد القادر الجزائري، وفي فبراير عام 1856 كتب إلى وزير المستعمرات والبحرية قائلا: «إن الحاج عمر ينظم لثورة عامة ضدنا»[1].

كل هذه الأمور كانت سببا في أن يتحفز الفرنسيون لاتخاذ إجراءات

عسكرية لمواجهة خطط قائد المسلمين، وترتب على ذلك قيام الفرنسيين ببناء قلعة في مادينا في مقاطعة كاسو (Khasso)، ووقع فيدهرب معاهدة الصلح والتجارة مع سامبالا ملك كاسو[2].

وبعد أن ثبّت فيدهرب مركز الفرنسيين على طول نهر السنغال. بدأ يسعى لعقد معاهدة سلام مع الحاج عمر، فأصدر قبل سفره إلى باريس تعليمات إلى نائبه موريل بشأن التفاوض مع الحاج عمر على مشروع الاعتراف به كملك لكارتا مقابل أن يحد من نشاطه في المنطقة[3].

ويتضح من هذه المحاولات أن الفرنسيين يحاولون التعامل مع الحاج عمر مثل ما يتعاملون مع الأمير عبد القادر الجزائري بعد توقيع اتفاق تافنا (Tafna) معه في عام 1837، ويعني هذا تدعيم موقفهم قبل الدخول في توسعات كبرى. وبعد عودة فيدهرب إلى السنغال في نهاية عام 1856 بدأ الحاج عمر كفاحه المباشر مع الفرنسيين بمهاجمة مركز مادينا وهو الأمر الذي ضيع فرص السلام بين الطرفين. وكان الحاج عمر يرغب بعد غزو كارتا في أن يضم وطنه في فوتاتورو إلى المناطق التي سيطر عليها خصوصا وأن سكان المنطقة كانوا من المتعصبين لقضيته، وكانوا يكرهون الحكم المسيحي الذي يعتبر بمثابة الشوكة في صدورهم. ذلك لأن الفرنسيين يحاولون تدمير القرى التي يسكنها أعوان الحاج عمر[1].

وفي الشهور الأولى من عام 1857 بدأ الحاج عمر هجومه على قلعة مادينا واحتل إحدى المناطق في كاسو وتدعي تومورو (Tomoro) دون قتال واقترب من النهر، وفي 14 أبريل هاجم سابوسيري (Sabousire) عاصمة مقاطعة لوجو (Logo) واتخذها مقرا لعملياته العسكرية ضد الفرنسيين، وفي العشرين من أبريل وصل جيش المسلمين إلى منطقة مادينا حيث بدأ الحصار. وكان الجيش يسير في ثلاثة طوابير بلغ عددها 15000 مقاتل، وكانت حامية المدينة تضم أربعة وستين رجلا بقيادة بول هول (Paul Holle) الذي استطاع إرسال أحد رجاله إلى باكل ليخبر القيادة الفرنسية عن الوضع في مادينا. وفعلا صدرت الأوامر لإحدى السفن الفرنسية بالتوجه إلى مكان العمليات العسكرية في مادينا، لكن تحطمت هذه السفينة على إحدى الصخور. ومنع الحاج عمر رجالها من الوصول إلى القلعة المحاصرة وظلوا في حطام السفينة.[2]

وفي أوائل يونيه قرر فيدهرب أن يقود بنفسه حملة لإنقاذ حامية مادينا، ووصل بقواته إلى حطام السفينة المحاصرة لكن جنودها كانوا قد ماتوا من الحمى. وفي الوقت نفسه كان مصير بول هول وحامية مادينا يتوقف على وصول حملة الإنقاذ. ووصل فيدهرب فعلا إلى المنطقة في 18 يوليه، أي بعد حوالي ثلاثة اشهر من بدء الحصار، فوجد عددا من سكان المدينة قد ماتوا جوعا بسبب رفض بول هول الاستسلام لقوات الحاج عمر، ونجح فيدهرب في إنقاذ مادينا. ذلك النجاح الذي كان امتحانا لقوات الحاج عمر حيث توقف نشاطه في المنطقة لمدة عامين، بل تحرك من سابوسيري، ولم يعد لهذه الأماكن إلا في عام 1859 عندما هاجم المركز الفرنسي في ماتام (Matam) الذي كان أيضا تحت قيادة بول هود الذي أصاب قوات الحاج بخسارة فادحة حيث نقص عدد الجيش إلى النصف، أي من 15000 جندي إلى 7000 جندي[1].

بعد هذه النكسة التي حلت بقوات الموحدين انسحب الحاج عمر إلى جيومو (Guemou) التي تبعد حوالي أربعين كيلو مترا عن باكل، وبنى حصنا هناك، وبدأ يعرقل تجارة الفرنسيين على طول نهر السنغال. ولهذا قرر فيدهرب تدمير حصن جيومو، وعهد بهذه المهمة إلى بعثة استكشافية بقيادة الضابط فارون (Faron). وفي 25 أكتوبر هاجم فارون الحصن واستولى عليه بعد أن أصيب بعدة جروح، لكن الحاج عمر كان قد انسحب منه قبل وصول البعثة الفرنسية متوجها إلى نيورو، وقتل ابن أخي الحاج عمر ودمر الحصن تماما[2].

بعد هذه الأحداث أدرك الحاج عمر أنه لا يستطيع مواجهة الأوروبيين في هذه المنطقة، واتخذ قراره بإنشاء دولة متكاملة في الشرق بعيدا عن مجال النفوذ الفرنسي، وفي الوقت نفسه بدأ يسعى في عملية تحسين العلاقات مع الفرنسيين حتى يتفرغ لدولته الجديدة، وحتى يأمن خطرهم فترة من الزمان يكون قد أعاد بناء جيشه، وكوّن دولته في منطقة النيجر.

وفي مايو 1860 أرسل تيرنو موسى (Tierno Musa) إلى الفرنسيين لكي يبحث معهم رغبة الحاج عمر في عقد اتفاق سلام. ونقل موسى رسالة الحاج عن طريق قائد منطقة باكل ويدعى كورنو (Cornu) إلى فيدهرب الذي قام على الفور بالاتصال بكل الرؤساء المحليين من البمبارا في باكل

ومادينا لكي يدينوا بالطاعة والولاء للفرنسيين[3].

وفي 21 أغسطس (آب! عام 1860 ناقش المجلس الإداري للسنغال طلب الحاج عمر لعقد الصلح والسلام والشروط التي ينوي فيدهرب فرضها عليه. وناقش فيدهرب ستة بنود لهذه المعاهدة التي كان يركز فيها على رسم خط حدود بين المنطقة المزمع وضعها تحت سيطرة الحاج عمر، ومنطقة السيادة الفرنسية والتي تمتد من بافنج (Bafing) حتى مادينا، لكن هذه المعاهدة لم يكتب لها أن ترى النور لأن الحاج عمر رفض هذه الشروط القاسية التي تضمنتها البنود المقترحة، وغادر منطقة كارتا للبحث عن منطقة أخرى في النيجر، ولم ينه كفاحه ضد الفرنسيين، بل كثف من دعايته ضدهم، وكلّف رجاله بعرقلة التجارة الفرنسية إلى باكل.

وإزاء كل هذا النشاط قام حاكم السنغال الفرنسي بإرسال خطابات الحاج عمر إلى السكان والتي تطالب الأهالي بالثورة ضد الفرنسيين[1]، وطالب حاكم السنغال بإرسال تعزيزات إليه لخطورة الموقف، وأنه لابد من استعراض القوة. وكان الفرنسيون يتابعون الموقف عن كثب خصوصا بعد تحول الحاج عمر نحو الشرق، والمصاعب التي كانت تواجه تحركاته، والتي انتهت باستشهاده في إحدى هذه المعارك في عام 1864 وهو يناضل من أجل بناء دولة إسلامية يستطيع بها الوقوف في وجه الغزو الأوروبي.

ثالثا: غزو النيجر ونهاية كفاح الحاج عمر:

شعر الحاج عمر أن النضال ضد الفرنسيين لن يتوقف، وأن طمع الفرنسيين لا حدود له، وأن محاولات عقد الصلح معه ما هي إلا مرحلة مؤقتة في خطط الفرنسيين لابتلاع ممتلكاته وضمها للسيطرة الفرنسية، ولذا فإنه قرر ترك هذه المنطقة والاتجاه إلى منطقة النيجر على أمل التحالف مع زعماء المسلمين هناك في محاولة لتوحيد صفوف المجاهدين ضد عدو أوروبي يطمع في السيطرة على بلادهم. كانت هذه هي استراتيجية الحاج عمر في مرحلة سدت فيها كل السبل أمام إيقاف التوسع الفرنسي، وهي استراتيجية تدل على بصيرة قوية، وعقلية عسكرية تواجه هذه التحديات الأوروبية. لكن أفكار الحاج عمر لم تجد من يفهمها في المناطق الجديدة التي أحست أنه جاء لغزوها والقضاء عليها فتحالفت ضده، وتآمرت

عليه في وقت هو في أشد الحاجة إلى مؤازرتها والوقوف معه ضد العدو المشترك. ولذا ضاعت جهود هذا المناضل الإسلامي في صراعات جانبية مع هؤلاء الزعماء المسلمين، واضطر إلى الدخول في حروب ضدهم.

كان الحاج عمر قد أرسل إلى ملك سيجو في عام 1856 يخبره برغبته في الإبقاء على علاقات الود معه. ورحب الملك برسالة الحاج عمر لكن أخاه اتهمه بالخيانة، وبأنه يسعى لتسليم سيجو إلى الفولاني فقام بقتله وصار حاكما بدلا منه[1].

وعندما بدأ الحاج عمر زحفه نحو الشرق واجه جيش سيجو بقيادة ابن الملك ويدعى تاتا (Tata)، والتقى الجيشان عند ويتالا (Witala)، ونجح الحاج عمر في هزيمة البمبارا، واستولى على سان ساندنج (Sansanding) حيث مكث بها خمسة أشهر قبل أن يواصل الرحلة إلى سيجو (Segu).

وفي تلك الفترة أرسل الملك المسلم أحمدو شيخو بن أحمدو لوبو (1853-1862) حاكم ماسينا تعزيزات عسكرية بقيادة عمه بالوبو (Balobbo) لمساعدة إمبراطور سيجو ضد أي هجوم من قوات الحاج عمر. فكان هذا العمل مبررا لكي يفكر الحاج في غزو ماسينا. وقابل الحاج عمر قوات سيجو ومادينا في يناير 1861 في تيو (Tio) وتمكن من إنزال الهزائم بهم. وأجبر بالوبو على الانسحاب، وهزم البمبارا في مارس 1861، وهرب ملكها، إلى مدينة حمد الله عاصمة ماسينا. ودخل الحاج عمر مدينة سيجو وأشعل فيها النيران، وقتل عددا من سكانها الوثنيين[1].

فكر الحاج عمر بعد ذلك في غزو ماسينا التي ساعدت سيجو، وتحدي ملكها المسلم لقوات الحاج عمر، وبالتالي دخل الحاج في صراع مع قوات مسلمة تحت إمرة حاكم مسلم يدافع عن العقيدة ضد الوثنيين منذ أيام جده الشيخ أحمدو لوبو مؤسس مملكة ماسينا. ونظرا لتعقد الموقف وحقنا لدماء المسلمين فقد كتب أحمدو شيخو الثالث خمس رسائل إلى الحاج عمر، وكلها رسائل قصيرة، نظم الحاج عمر محتوياتها في منظومة برر فيها حربه مع أحمدو الشيخ الذي تحالف مع الوثنيين ضده. وفند الحاج عمر مزاعم أحمدو بأنه ناضل ضد الوثنيين وأنه حول المنطقة إلى الإسلام، وأن حربه لهم تعني خلق الانقسام داخل المجتمع المسلم. وأجاب الحاج عمر بأن السكان رغم دخولهم الإسلام إلا أنهم ما زالوا يمارسون العادات الوثنية،

وأن تعاونهم مع الوثنيين في سيجو ضده أمر لا يقره الشرع ولذا تجب محاربتهم.

واضطر الحاكم أحمدو شيخو أن يبحث عن حليف له ضد أطماع الحاج عمر، ووجد هذا في شخصية أحمد الكنتي المعروف بالبكائي رئيس الطريقة البكائية في تمبكت، والذي كان ينتظر هذه الفرصة ضد الحاج عمر منذ زمن طويل، فأخذ يحث أحمدو على حرب الحاج عمر حتى لا يترك له سيجو، وأنه على استعداد لمساعدته.

واتهم أحمد البكائي الحاج عمر بأنه رجل عنيد يريد فقط بناء إمبراطورية وأنه رجل دجال. وأمام هذا النقد العنيف وإصرار أحمدو شيخو على قتال الحاج عمر بدأ الهجوم على ماسينا في العاشر من أبريل عام 1862 بعد أن عين ابنه الأكبر ويدعى أحمدو تال حاكما على سيجو وأعطاه لقب خليفة التيجانية. وقبل أن يواصل الحاج عمر معاركه الأخيرة في منطقة ماسينا ركز على تدعيم قوته العسكرية، وازدياد الثقة في أتباعه، واتساع حدود سلطاته حيث بلغت قواته قبل غزو ماسينا حوالي 30000 جندي. وتحرك جيش الحاج عمر نحو ماسينا حيث كان جيش أحمدو شيخو ضعف هذا العدد، ودارت المعركة في غابة قرب أحد سهول نهر باني (Bani). ورغم تفوق قوات ماسينا في البداية إلا أن المعركة انتهت لصالح الحاج عمر حيث هزم ملك ماسينا الذي قبض عليه وأعدمه. وعين الحاج عمر ابنه أحمدو أميرا على ماسينا لكن بالوبو وأخاه عبد السلام تآمرا على الحاج فقبض عليهما إلا أنهما هربا من حمد الله عاصمة ماسينا.

وكانت هذه هي الفرصة التي ينتظرها أحمد البكائي حيث ساعد كلاً من بالوبو وعبد السلام في تأسيس حلف جديد ضد الحاج عمر، وهبت ماسينا في ثورة عارمة ضد الحاج في مايو عام 1863. واشترك في هذا التمرد البمبارا والفولاني المسلمون، ولم يعد للحاج عمر أي حلفاء في المنطقة، وكان عليه الاعتماد على الجيش الذي أحضره من سيجو. وبعد أن قلّت قوات الحاج عمر تحضن في حمد الله التي كانت تعج بالسكان مع قلة الموارد، في الوقت الذي تحرك فيه أهالي تمبكت بقيادة أحمد البكائي لحصار المدينة التي شيد الحاج عمر سورا ضخما حولها. وحاصر المدينة تحالف القادرين في ماسينا وفرقة البكائي من تمبكت ومعه بالوبو. واستمر

الحصار حوالي تسعة أشهر. وطوال هذه الفترة كان ابن الحاج عمر غائبا في سيجو يحاول القضاء على تمرد هناك. وأثناء الحصار أرسل الحاج عمر ابن أخته أحمد التيجاني في 21 يناير 1864 ليطلب مساعدات من الفولاني في الجبال القريبة، لكنه لم يتمكن من العودة إلى المدينة المحاصرة.

وعندما أدرك الحاج عمر أن مؤونة الطعام لا تكفي إلا لفترة قليلة، وأنه فقد الأمل في أي مساعدات خارجية، قرر اتباع الطريق الخطر الذي لا سبيل غيره ألا وهو محاولة تحطيم واختراق الجيش المحاصر للمدينة. وفي 7 فبراير 1864 نجح الحاج عمر في تنفيذ خطته، لكن بعض عناصر الجيش المحاصر من أتباع أحمد البكائي قامت بتعقبه في منطقة مجاورة لمدينة حمد الله. وهاجموه هو ورفاقه الذين أنهكهم الجوع والعطش، وقاوم رجاله من الفجر حتى غروب الشمس. وتخلص منهم حتى وصل إلى قرية جورو (Ghoro). وهناك تعقبهم الأعداء. وكان ذلك في أول شهر رمضان، وحاصروهم في هذه القرية لمدة أربعة أيام. وعندما جاءت نهاية الحاج تحرك من هذا المكان حيث استشهد في يوم الجمعة الموافق 3 رمضان 1280 هـ (12 فبراير 1864) [1].

وهكذا استشهد هذا المجاهد الإسلامي وهو يناضل من أجل بناء دولته الإسلامية عن عمر ناهز السبعين عاما، حاول خلالها مقاومة التوسع الفرنسي بكل ما أوتي من قوة، وترك لأبنائه مسؤولية هذا العبء الكبير.

رابعا: المقاومة الإسلامية بعد وفاة الحاج عمر:

لقد أحدث استشهاد الحاج عمر مشكلات كثيرة للإمبراطورية الإسلامية، ذلك لأن وحدتها تقوم على أساس قيادته الدينية والسياسية، وإصراره على النضال والجهاد اللذين غرسهما في نفوس أتباعه. وكان الحاج قد أحس بالخطر الذي يهدد إمبراطوريته من الفرنسيين في الغرب، ومن الممالك الوثنية والإسلامية في الشرق، ولذا فإنه عين ابنه أحمدو نائبا عنه في سيجو، وطلب من إخوته القسم له بالولاء والطاعة. لكن بعد استشهاد الحاج عمر بدأت المشكلات بين أبنائه في وقت كانت الإمبراطورية في أمس الحاجة إلى التكالب والترابط ضد الفرنسيين، وضد القبائل الثائرة في سيجو، وهذا ما أعطى جهاد الحاج عمر وأبنائه لونا جديدا من النضال

ضد الاستعمار والوثنيين.

وبعد استشهاد الحاج عمر جمع ابن أخته أحمد التيجاني بقايا الجيش الإسلامي في ماسينا، واستغل المنافسة بين أحمد البكائي وبالوبو، ابن حاكم ماسينا، واستطاع أن يجعل من نفسه حاكما للدولة. ودعم أحمد التيجاني دولته وقوى مركزه، وصارت أحوال دولته أكثر ثباتا من الجزء الذي يحكمه الشيخ أحمدو تال بن الشيخ عمر في سيجو، وظل محتفظا باستقلاله حتى وفاته عام 1887. وخلفه أحد أحفاد الحاج عمر لكنه لم يعمر في الحكم طويلا حيث خلفه أحمد المدني مونيرو الذي حكم حتى عام 1890. وأثناء حكم المدني في ماسينا صارت باندياجارا (Bandiagara) من أهم مراكز التعليم الإسلامي. أما منطقة كارتا فقد آلت إلى حكم أحد عبيد الحاج عمر ويدعى مصطفى، وقد حكمها بشكل مستقل منذ أن بدأ الحاج عمر غزواته في ماسينا عام 1860، أما الشيخ أحمد تال فقد ادعى أنه سيد على كل المنطقة التي كان والده قد سيطر عليها. وفي 11 أكتوبر 1868 غيّر لقب الخليفة الذي كان يحمله من قبل إلى لقب أمير المؤمنين، وذلك في موكب حضره الشيخ أحمد بن محمد الغالي خليفة التيجاني في الحجاز، والذي قضى معه الحاج عمر ثلاث سنوات أثناء رحلة الحج عام 1827[1].

لكن حدث الخلاف بين أبناء الحاج عمر الذين اعتبروا أن أحمدو أقل منهم شأنا، وحاولوا إقصاءه عن الحكم في عام 1872، وأدّى هذا العمل إلى التفكك يبن قواد الجيش، وصار من الصعب تهدئة هذه الأمور التي تدعو إلى الانفصال، بالإضافة إلى أعمال التمرد التي كانت أكبر تهديد للاستقرار في الإمبراطورية، وظلت أعمال التمرد هذه في معظم أجزاء الدولة حتى أواخر السبعينات من القرن التاسع عشر، ونجح أحمدو في إنقاذ الإمبراطورية من هذه التجزئة، كما استطاع القضاء على مؤامرات إخوانه الثائرين، بل سحق المتورطين منهم في الاضطرابات، وشدد الرقابة على الحكام المحليين، وأشرك معهم مستشارين من قبله، وصار المستشارون مسؤولين أمامه، كما طلب من الحكام زيارته في سيجو مرة كل عام حتى يضمن ولاءهم. وهكذا استطاع أحمدو القضاء على أعمال التمرد الذي أوشك على إحداث تصدع في تلك الإمبراطورية في وقت كانت تحتاج فيه

إلى تضافر جهود المخلصين للوقوف أمام أعداء الدين، وبدأ أحمدو يعتمد على المخلصين له، وعلى الذين اعتنقوا الدين الإسلامي حديثا وأخلصوا للدعوة المحمدية، وكان هذا سببا في غضب تلاميذه القدامى الذين يشكلون الجهاز الإداري للإمبراطورية[1].

هذه هي أحوال الإمبراطورية الإسلامية بعد وفاة الحاج عمر، وقبل أن يواصل أبناؤه الجهاد ضد الاستعمار الفرنسي الذي يتربص بالمسلمين. وكان الفرنسيون منذ عام 1860 يركّزون على تطوير تجارتهم مع السودان الغربي. ولذا فإنهم حاولوا عدم اتباع سياسة عدائية مع القوى المجاورة حتى لا تتأثر مواردهم، وفي الوقت نفسه أراد التوكولور وقف العداء حتى يتمكنوا من تركيز حملاتهم ضد المقاومة في كارتا، ولنشر الجهاد في سيجو وماسينا. وفي هذه الظروف كان السلام بين الفرنسيين والتوكولور أمرا ضروريا[2].

وحاول الشيخ أحمدو الإبقاء على روح الحرب المقدسة التي أرسى دعائمها في السودان الغربي الشيخ عثمان بن فودي، والحاج عمر الفوتي، لكن العلاقات مع الفرنسيين كانت تشكل عقبة كبرى أمامه لأنه أدرك أخطار السماح لهم بالإقامة في مناطق نفوذه، لكنه في ذات الوقت كان في حاجة إلى الأسلحة الفرنسية الحديثة حتى يواصل حملاته ضد البمبارا الوثنيين. من هنا كانت مصالح الفرنسيين وأحمدو تتطلب فتح صفحة جديدة في العلاقات بين الطرفين. تلك العلاقات التي كانت قد بدأت في أواخر عام 1863 عندما أرسل الفرنسيون الكابتن ميج (Mage) إلى سيجو ليؤكد للشيخ أحمدو رغبة الفرنسيين في العيش في سلام، وعقد معاهدة مع أحمدو. وكان الشيخ قد ترك ميج منتظرا في سيجو لمدة قاربت العامين قبل أن يوافق على توقيع المعاهدة، وكانت حجته في هذا التأخير هي الرغبة في استشارة الحاج عمر الذي كان محاصرا في ماسينا. لكن بعد استشهاد الحاج عمر وقع الشيخ أحمدو المعاهدة مع ميج في 26 فبراير 1866[1].

ورغم التناقضات بين النصين الفرنسي والعربي إلا أن المعاهدة كانت واضحة حول النقطة الرئيسة التي جاء ميج من أجلها، والتي كانت ترتكز حول حق الفرنسيين في إقامة مراكز لهم على طول نهر النيجر، وهو الأمر

الذي يلقى معارضة من التوكولور لأنه يعني الاحتكار التجاري للفرنسيين في هذه المراكز. لكن هذه المعاهدة بين ميج وأحمدو خدمت مصالح الطرفين، ذلك لأن الفرنسيين كانوا يحلمون بموضع قدم على النيجر يمكنهم من استكشافات جديدة في المنطقة، كما أن الشيخ أحمدو وعد بحماية الفرنسيين وتجارتهم على شرط أخذ ١٠٪ من الرسوم على السلع التي يتم الاتجار فيها داخل الإمبراطورية، ولقد أكد ميج في تقريره الخاص على أنه كان من الأفضل للفرنسيين إقامة علاقات طيبة مع إمبراطورية التوكولوز، وأشار إلى إمكانية انتهاج سياسة بديلة بعد ذلك للسيطرة على الإمبراطورية.

ورغم كل هذا فإن الاتفاقية لم تحقق الهدف الرئيس منها، ولم تحرز تحسنا كبيرا في العلاقات الموجودة بين الطرفين، لكنها ظلت لعدة سنوات أساس العلاقات بين الفرنسيين وإمبراطورية التوكولور. ولم تفكر فرنسا في السياسة البديلة التي أشار إليها ميج إلا بعد عام 1866، ذلك لأن فيدهرب قد غادر السنغال إلى الجزائر، ولأن فرنسا أرادت الحفاظ على مصالحها التجارية خصوصا بعد أن سمح أحمدو للقوافل التجارية بالانتقال حرة في مناطق نفوذه. واستمرت علاقات الود قائمة حيث إنه في أوائل عام 1871 أرسل حاكم السنغال إلى وزير البحرية والمستعمرات أن أحمدو الموجود في نيورو يحتفظ بعلاقات ودية بقائد مركز مادينا (Madina)، وأنه يسمح للقوافل التجارية بالانتقال حرة في بلاده[1].

استفاد أحمدو من فترة السلام هذه فقام بتدعيم نفوذه حيث استطاع القضاء على تمرد اخوته الثائرين عليه، كما أنه أخضع البمبارا عندما عاد إلى سيجو في عام 1873، وفي صيف عام 1878 كتب بييردي ليل (Biere DeL'Isle) يفيد بأن أحمدو قد نجح في فرض سيطرته الكاملة على المنطقة غرب وجنوب النيجر حتى نهر السنغال، وأضاف أن نفوذه قد امتد إلى أبواب سانت لويس[2].

وطوال السبعينات واصل الشيخ أحمدو احتفاظه بعلاقات طيبة بالفرنسيين رغم أن اخوته في كارتا وديامبوكو رفضوا أوامره، وقاموا بعدة اضطرابات ضد الفرنسيين في منطقة كاسو، وحثوا المسلمين القاطنين على نهر السنغال على الهجرة إلى منطقة النيجر[3]. وحاول إخوة أحمدو تحويل تجارة مادينا ومنع الفرنسيين من إقامة مراكز فيها. وفي عام 1877

قام القائد الفرنسي باسيرو (Basiru) بغزو حصن سابوسير في منطقة لوجو (Lego) في محاولة لفك اتحاد كاسو الذي كان قد كونه فيدهرب بعد إنقاذ قلعة مادينا عام 1857. وكان هذا الغزو الفرنسي يعنى تعقيد الأمور وبداية سوء العلاقات خصوصا عندما طلب الشيخ أحمدو شراء اثني عشر مدفعا، لكن الحاكم الفرنسي بييردى ليل انتهج سياسة فيدهرب السابقة بتدعيم أعدائه وحلفاء فرنسا ضد المسلمين. وكانت فرنسا قد خططت لبناء خط سكك حديدية بين السنغال والنيجر[4].

وخلال الأشهر الأخيرة من عام 1877 بدأت السلطات الفرنسية في السنغال تدرك بداية فتور العلاقات بالشيخ أحمدو الذي أخذ يتجه إلى طلب دعم من البريطانيين في مستعمرة جمبيا، حيث بدأ السيد كوبر (Cooper) القائم بالأعمال الإداري في المستعمرة البريطانية في جمبيا يتصل بالزعماء الوطنيين على نهر السنغال والنيجر لكي يعلنوا الولاء للبريطانيين، وخشي الفرنسيون من هذه الاتصالات التي يمكن أن تؤثر في التجارة البريطانية في المنطقة، ولذا بدأ بييردى ليل انتهاج السياسة الفرنسية التوسعية التي خطط لها وزير المستعمرات والبحرية في باريس، وهي السياسة التي قامت على الخوف من البريطانيين، وأجبرت فرنسا على سياسة الغزو لإمبراطورية التوكولور[1]. ففي 13 مايو 1876 أرسل السيد كوبر خطابا إلى ملك بوندو يقترح فيه فتح باب التجارة مع الداخل عن طريق سيجو وتمبكت، «ومن عاصمتكم أستطيع المرور إلى كاسو، وأزور ملك كمبالا، ومن هناك عن طريق جيوماكورو وماركويا وحتى سيجو لأزور الشيخ أحمدو تال»[2].

لكن هذا الخطاب الذي وصل إلى السلطات الفرنسية في السنغال في عام 1877 لا أساس له في مراسلات الوثائق البريطانية في لندن، ولا يوجد ما يدل على هذه الادعاءات الفرنسية التي اتخذت من هذا الخطاب مبررا لكي يثبّت الفرنسيون أقدامهم في منطقة النيجر، وبالتالي الدخول في صراع مع الشيخ أحمدو قبل أن يتحالف مع البريطانيين. فلقد أرسل حاكم السنغال إلى باريس يطلب الاستفادة من العلاقات الطيبة بينهم وبين الشيخ أحمدو، وأن يدعموا علاقاتهم معه عن طريق عقد معاهدة جديدة[3].

كانت السياسة الفرنسية الجديدة نحو إمبراطورية التوكولور تحت قيادة

بييردى ليل حاكم السنغال تهدف إلى الضم الكامل للإمبراطورية داخل النظام الاستعماري الفرنسي. ولتنفيذ هذا المشروع قامت فرنسا بإنشاء القيادة العليا للسنغال الأعلى في 6 من سبتمبر 1880، وكانت هذه القيادة مستقلة تماما عن حكومة السنغال ومسؤولة عن التوسع الفرنسي في داخل أفريقيا، واتخذت من مادينا مقرا لها، وتم تعيين الكولونيل برونس دسبوردس (Bronis Desbordes) ممثلا لها.

وفي ذلك الوقت تبين وجود اتجاهين فرنسيين متعارضين تجاه إمبراطورية التوكولور. فعلى حين طالب دسبوردس بالتقدم السريع نحو غزو سيجو، كانت حكومة السنغال تفضل الإبقاء على علاقات الود بالشيخ أحمدو وإقامة علاقات معه، والتفاوض من أجل معاهدة جديدة. وفعلا بدأت حكومة السنغال في مساعيها السلمية فأرسلت بعثة في صيف عام 1880 بقيادة جوزيف جالينى إلى سيجو. وكان جالينى يجرى اتصالات مع رؤساء البمبارا في المناطق التي يمر عليها مؤكدا لهم الحماية الفرنسية، ويشجعهم على مقاومة سلطة الشيخ أحمدو. ولما علم الشيخ أحمدو بتلك المحاولات الفرنسية، وقبل أن يقترب جالينى من نانجو على النيجر في يونيه 1880، أرسل إليه خطابا يطلب منه التوقف هناك وعدم الذهاب إلى سيجو[1].

ظل جالينى في نانجو من أغسطس 1880 حتى مارس 1881، ويقول جالينى إن سر هذا العداء من جانب أحمدو يرجع إلى البريطانيين الذين حاولوا عن طريق وكلائهم في سيراليون وجمبيا إفادة الشيخ أحمدو بأن بعثة جالينى ليست سوى مقدمة للغزو النهائي لإمبراطورية التوكولور من جانب الفرنسيين[2].

ويستطرد جالينى فيقول: إن سر حجزه في نانجو إنما يرجع إلى الأسباب التالية:

أولا: عدم وفاء الفرنسيين بالتزاماتهم في معاهدة 1866، وعدم تقديم مساعدات عسكرية له.

ثانيا: مساعدة الفرنسيين لبعض المنشقين على سلطة الشيخ أحمدو، وتقديم العون لكل المتمردين عليه.

ثالثا: غزو منطقة لوجو وبناء مركز فرنسي في منطقة بافولابى

(Bafoulabe).

وأخيرا تصرفات بعثة جالينى بين البمبارا ومحاولاتها إثارة القبائل ضده. ورغم كل هذا فقد وقع الشيخ أحمدو المعاهدة في 3 نوفمبر 1880، والتي نصت على وضع مناطق الشيخ أحمدو تحت الحماية الفرنسية، كما نصت على أن فرنسا هي الدولة الوحيدة التي يسمح لها بالإبحار في النهر وتشييد مراكز عليه. وفى عام 1882 وقّع جالينى معاهدة أخرى مع أحمدو أحكمت القبضة الفرنسية على إمبراطورية سيجو. وفى مقابل هذه الامتيازات التي منحها أحمدو للتجار الفرنسيين تعهدت فرنسا بعدم غزو المناطق التابعة له. لكن حاكم السنغال الفرنسي لم يعتمد هذه المعاهدة بالرغم من البعثة التي أرسلها الشيخ أحمدو إلى سانت لوشر في أكتوبر عام 1881[1].

وفى أوائل أكتوبر 1882 قرر وزير المستعمرات الفرنسي بأن تكون حملة القيادة العليا للسنغال هي بسط النفوذ الفرنسي على النيجر.

ولاحظ الشيخ أحمدو هذا التوسع التدريجي في مناطق نفوذه بعد توقيع معاهدة 1880 فأرسل بعثة إلى سانت لويس لكي يناقش مع الفرنسيين عملية إنشاء مراكز فرنسية في مناطق نفوذه، والتهديد بإلغاء الاتفاقية إذا أصر الفرنسيون على الاستمرار في بافولابى وكيتا (Kita). كما أرسل الشيخ أحمدو خطابا إلى رئيس الجمهورية الفرنسية احتج فيه على السلوك العنيف للمقيمين الفرنسيين في سيجو، وطالب باحترام قواعد السلام بين الطرفين[1].

لكن لم تمنع الحواجز الدبلوماسية الفرنسيين من التقدم نحو إمبراطورية التوكولور، ولم يحترم جالينى نفسه شروط الاتفاق، ولم تقدم فرنسا الأسلحة إلى الشيخ أحمدو، بل تغيرت السياسة الفرنسية بعد إنشاء القيادة العسكرية للسنغال الأعلى، والتي تعني أن يواجه أحمدو قوادا عسكريين من البحرية الفرنسية في المستقبل، ولأنه منذ البداية كان هدف القيادة العسكرية الاحتلال العسكري لوادي السنغال والنيجر، وفعلا قامت هذه القوات باحتلال باماكو في عام 1883. وإزاء هذا الموقف العدواني طلب الشيخ أحمدو من الفرنسيين الجلاء عن بافولابي وكيتا كرمز لحسن النية.[2]

وفى تلك الفترة كانت إمبراطورية التوكولور مقسمة إلى أربعة أقسام:

يحكم الشيخ أحمدو منطقة كارتا من العاصمة نيورو، ويحكم ابنه مادانى منطقة سيجو، بينما حكم ابن عمه التيجاني منطقة ماسينا، كما حكم أخوه أجوبو (Aguibou) منطقة دنجوراي.[3]

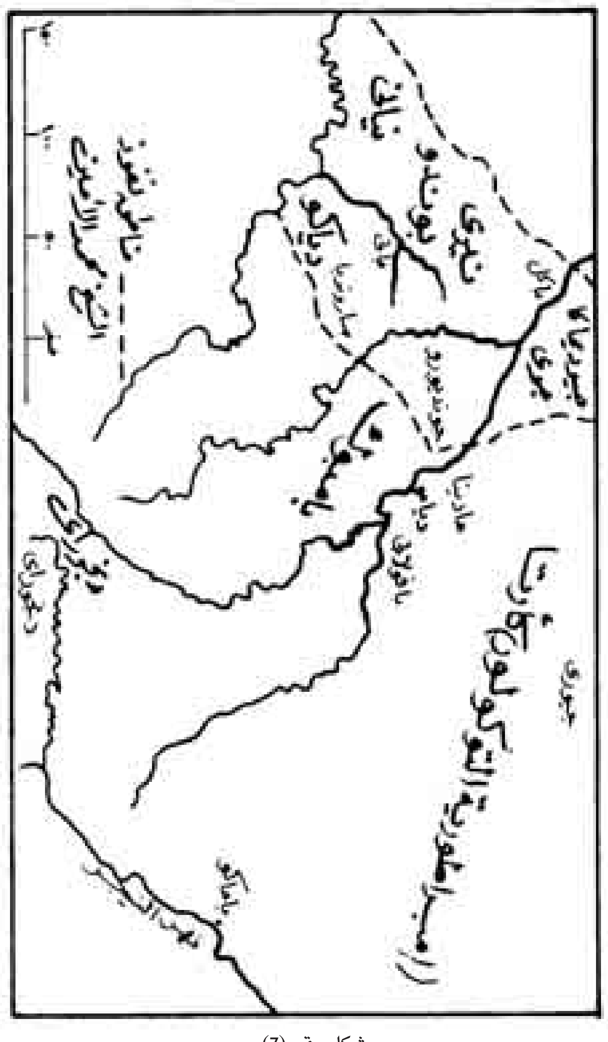
ولما احتل الفرنسيون مدينة باماكو لم يعارض أحمدو رغم أن هذا الاحتلال تهديد لمدينته وعاصمته، ولم يحاول التعرض للقوات المسلحة المارة على سيجو، ولعل السر في هذا التقاعس هو الضعف الذي انتاب الإمبراطورية بسبب الانقسامات الداخلية، وبالتالي حقق الفرنسيون عملياتهم في التوسع بشكل سريع، وتدهورت العلاقات بين التوكولور والفرنسيين خلال عامي 1885 و 1886 خصوصا بعد مؤتمر برلين 1884 الذي أعطى شروطا للاحتلال الفعلي لأي منطقة قبل إعلان الادعاء عليها مع إخطار الدول الأخرى الموقعة على ميثاق المؤتمر.[1]

وبناء على قرارات مؤتمر برلين، توسعت القوات الفرنسية في المنطقة ودخلت في صراع مع قواد الجهاد الإسلامي: أمثال ساموري توري، والشيخ محمد الأمين في أعالي السنغال، وقام الفرنسيون بحملات تأديبية ضد منطقة جيوديماكا (Guidimaka) التي اعتبرها الشيخ أحمدو جزءا من إمبراطوريته. وكان رد المسلمين عنيفا على هذه الخطوة حيث هاجمت قوات الشيخ أحمدو قوافل الفرنسيين المتجهة إلى مادينا، وأدرك القائد الفرنسي فرى أن حربا شاملة لابدّ من أن تحدث لا محالة.[2]

وأدرك فري أنه من الأفضل إقامة علاقات ودية مع التوكولور لأن صداقة الشيخ أحمدو سوف تسهل على الفرنسيين مهمتهم في القضاء على جهاد الشيخ محمد الأمين، وتساعد الفرنسيين على بسط نفوذهم على وادي النيجر والسنغال، وجاء جالينى بعد فرى ليؤكد على توقيع اتفاق جديد يؤكد عدم غزو مناطق الشيخ أحمدو مقابل إنشاء محمية فرنسية على إمبراطورية التوكولور. وقبل الشيخ أحمدو هذه الشروط، ووقع على المعاهدة في مايو 1887، واستمرت العلاقات الودية بين الطرفين طوال هذا العام وعام 1888.

ووجد جالينى أنه من الأجدى إبقاء أحمدو في نيورو فقط، ولهذا بدأ مساعداته العسكرية للبمبارا، وكان يؤمن بأن الشيخ أحمدو سوف يتحول تدريجيا إلى حليف للفرنسيين، لكن خابت ظنون الفرنسيين، ولم يقبل

أحمدو أن يكون حليفا للفرنسيين الذين يسعون للقضاء على إمبراطوريته التي تحدد مصيرها عام 1888 بعد القضاء على كل من الزعيم المسلم ساموري توري، ومحمد الأمين، وصار القضاء على هذه الإمبراطورية الإسلامية أمرا محتما[3].



شكل رقم (7)

خامسا: القضاء على إمبراطورية التوكولور:

عندما جاء لويس أرشينار (Archinard) خليفة لجالينى لم يوافق على فكرة التعاون مع الشيخ أحمدو، ففي فبراير عام 1889 قام أرشينار بالهجوم على القلعة التوكولورية المعزولة في كونديان (Koundian) دون أوامر أو أسباب تتصل بالموقف في السودان الغربي، وكانت هذه العملية أصعب مما تصوره هذا القائد الفرنسي حيث قاوم أهل القلعة بكل بسالة وإقدام، وصمدوا أمام مدافع أرشينار التي استمرت ثماني ساعات تقصف القلعة قبل الاستيلاء عليها، فلقد حارب الناس من منزل لآخر، ومن شارع إلى شارع، وظلوا يقاومون حتى نفدت قوة المدينة الباسلة، واستسلمت في النهاية للفرنسيين بعد أن كبدت قوات أرشينار خسائر فادحة.

وكان الاستيلاء على حصن كونديان أول الحملات في سبيل تحطيم إمبراطورية التوكولور، وكان هدف أرشينار الثاني هو تحطيم مدينة سيجو، ولهذا الغرض سافر إلى باريس على أمل الحصول على موافقة الإدارة الاستعمارية في باريس على حملة لغزو عاصمة التوكولور، ونجح فعلا في الحصول على الموافقة في عام 1890. وكان أرشينار قد تعلل بأن ساموري يسعى لعقد حلف مع الشيخ أحمدو لمهاجمة الفرنسيين، وأن الشيخ أحمدو قد أرسل إليه خطابا يدعو إلى الحرب وإعلان انتهاء العلاقات الودية بين الفرنسيين والمسلمين[1].

وما أن حصل أرشينار على الموافقة حتى غزا سيجو ودخلها دون صعوبة في 6 أبريل 1890، وكان ماداني بن الشيخ أحمدو حاكما على سيجو خلال غياب والده. أرسل أرشينار بعثة لأحمدو يعرض عليه السماح له بالعيش في دنجوراى، لكن الشيخ أحمدو رفض الطلب وذهب إلى ماسينا مع أخيه الأصغر ويدعى أجيبو الذي صار حاكما تحت الحماية الفرنسية، لكن دخول أرشينار سيجو لم يحقق غرضه من الوصول إلى نيورو لمساعدة حلفائه من البمبارا. وجرب الشيخ أحمدو دبلوماسية الحل السلمي، لكن هذه الدبلوماسية أصبحت غير مجدية مع عدو يرغب في السيطرة الكاملة على الإمبراطورية الإسلامية، وأحس أحمدو أن السلاح هو الفيصل الوحيد، وأن استخدام القوة هو أمضى سلاح للوقوف أمام هذا الغزو الاستعماري لأراضي المسلمين في أفريقيا.

كان أحمدو يرغب في الهجوم على مراكز الفرنسيين في كونديان، لكنه فشل في تجنيد العدد الكافي لهذه الحملة الكبيرة. وانتظر حتى جمع عددا من المجاهدين وقام بمهاجمة الخط الحديدي في تالاري (Talari)، وفقد الفرنسيون في هذه الاشتباكات مالا يقل عن ثلاثة وأربعين قتيلا، و12ه جريحا، ولما علم الشيخ أحمدو بأن أرشينار يخطط لغزو نيورو (Nioro) بدأ بالاستعداد لمواجهة هذا الهجوم، وقسم قوات جيشه إلى أربعة أقسام؟ وأرسل قائد التوكولور حوالي خمسة آلاف رجل لمنع تقدم الفرنسيين من الجنوب، كما قام ابن الشيخ ويدعى مادانى بحراسة المناطق الشرقية ضد أي هجوم من قبائل البمبارا في بليدوجو. أما ملك الولوف الذي فقد عرشه فقد بقى مع السلطان أحمدو في نيورو[1].

وما أن بدأت العمليات العسكرية ضد نيورو حتى استطاع أرشينار في خلال أسبوع، وبالتحديد في 30 ديسمبر 1890، هزيمة جيش التوكولور في المستنقعات قرب نيورو، ودخل أرشينار المدينة في الأول من يناير 1891. لكن التوكولور لم يستسلموا لهذه الهزيمة، بل حاولوا بعد يومين الهجوم على الفرنسيين قرب قرية يورى (Youri). ورغم المقاومة الباسلة التي أبداها المجاهدون إلا أنهم فشلوا في التغلب على الجيش الفرنسي الذي فاقهم عددا وعتادا، وراح ضحية هذه المعركة حوالي ثلاثة آلاف شخص، واضطر الشيخ أحمدو إلى الاتجاه شرقا مع أتباعه إلى ماسينا.

التقط الشيخ أحمدو أنفاسه في ماسينا التي كانت تحت حكم أحد إخوة أحمدو ويدعى مونيرو (Muniro)، واستطاع أحمدو الإطاحة به، لكن أيام الشيخ كانت محدودة ومعدودة، ففي عام 1892 عاد الأعداء إلى بلاد السودان الغربي بعد أن أكملوا استعدادهم، وعملوا على استتباب الأمن في سيجو. وكان هدف القائد الفرنسي الأساسي هو غزو مدينة جنى ذلك المركز التجاري الهام على طرق القوافل، وعلى أعالي النيجر[1].

وقاد أرشينار جيشه ومعه أجيبو الذي أعلن الولاء للفرنسيين على أمل أن يخلف الشيخ أحمدو في حكم الإمبراطورية، واتجه إلى سيجو في 22 مارس 1893، ووصل إلى مدينة سان (San) في السابع من أبريل. وقام القائد الفرنسي بإرسال وكلاء سريين إلى مختلف أجزاء ماسينا لكتابة تقارير عن أحوال ماسينا، وعرف أرشينار أن الاضطرابات في المنطقة قد

عرقلت التجارة الفرنسية، وأنه لا بد من إعلان الحرب ضد التوكولور.

وأحدثت دعاية أرشينار رد فعل عنيف حيث إن القرى ما بين سان وجنى خضعت للفرنسيين في 9 أبريل 1893، وهجرت جماعات كثيرة جيش الشيخ أحمدو، وبالتالي لم يكن صعبا أن تهزم قوات أرشينار بقية قوات الشيخ في جنى، ورغم أن أرشينار كان يأمل أن تفتح المدينة أبوابها إلا أن أهلها رفضوا ذلك وظلوا على ولائهم للشيخ، وضرب أرشينار المدينة لمدة يوم كامل، لكنها صمدت وقاومت حاميتها العسكرية، وقتلت من الفرنسيين ما لا يقل عن أربعة عشر قتيلا، وحوالي سبعة وخمسين جريحا بينما فقدت هذه المدينة الباسلة 500 قتيل وجريح فضلوا الشهادة في سبيل الله على تسليم مدينتهم لقوات المشركين. وكان سقوط هذه المدينة في أيدي الفرنسيين يعني فعلا سقوط إمبراطورية الشيخ أحمدو، حيث كان لسقوطها آثار معنوية سيئة على سكان ماسينا الذين انضم عدد منهم إلى جانب قوات أرشينار وأجيبو اللذين وصلا فعلا إلى مدينة موبتي (Mopti) في 17 أبريل ليجدا أن الشيخ أحمدو قد ترك حصنه في المدينة، وتقدم أجيبو على أنه الرئيس الجديد للإمبراطورية ورضخ الناس له.

وكان جيش الشيخ أحمدو قد فقد عددا كبيرا من قياداته خصوصا بعد أن هجره عدد من الصوفيين، ومن أشهرهم محمد بافي، وسيبا (Siba)، ودندي (Dendi)، وموسى، وماكوني (Makoni)، وفى الوقت نفسه طلب القائد الفرنسي أرشينار أسلحة جديدة وإمدادات عسكرية لكي يكمل عملية القضاء على إمبراطورية التوكولور. ولما وصلت الإمدادات الجديدة اتجه بجيشه إلى مقر الشيخ أحمدو في عاصمته الجديدة في باندياجارا (Bandiagara)، وكان الشيخ أحمدو قد عزم على الصمود والمقاومة حتى النهاية أسوة بكل زعماء الجهاد الإسلامي في غرب أفريقيا، وبالفعل أرسل قواته لمواجهة الفرنسيين على طول خط المواجهة، وحصّن الشيخ مواقع دفاعه بكل دقة وحذر، لكن كانت تنقصه الأسلحة الحديثة التي تساعده على مواجهة الأوروبيين. فمن أين يحصل على السلاح والعدو يتربص به في كل مكان، ويغلق عليه كل السبل؟ في الحقيقة هذا موقف صعب على قائد جهاد مسلم يريد الدفاع عن دينه ووطنه أمام غزو أوروبي يهدف إلى احتلال ديار المسلمين.

ورغم سقوط عدد كبير من المدن في الإمبراطورية تحت قبضة السيطرة الفرنسية، ورغم تخلى جنوده عن مواصلة النضال معه، ورغم نفاد الأسلحة والذخيرة وعجزه عن تعويضها إلا أن الشيخ أحمدو ظل صامدا حتى النهاية، ولم يستسلم بسهولة أمام هذا العدو الفرنسي. ففي 28 أبريل 1893 حدثت مواجهة بين المسلمين والفرنسيين، واستطاع الفرنسيون بفضل التفوق الحربي حسم المعركة لصالحهم، ودخول مدينة بانددياجارا عاصمة الشيخ أحمدو.

لكن الشيخ شق طريقه إلى منطقة النيجر حيث وجد الملجأ الأخير في دولة الفولاني وسوكوتو. ومات هناك في سكون عام 1895.

وفى 29 أبريل دخل أرشينار وبصحبته أجيبو إلى مدينة بانددياجارا ورضخ الناس له. وفى 3 مايو عقد أرشينار وأجيبو اجتماعا رسميا مع شيوخ ورؤساء التوكولور والفولاني والهوصا، وأعلن هؤلاء الولاء، وتم تنصيب أجيبو حاكما جديدا لماسينا، واقتنع الناس أن التغير الذي حدث هو وضع أحد أبناء الحاج عمر بدلا من الآخر، لكنهم أدركوا أن إمبراطورية التوكولور قد سقطت بالفعل، وأن أجيبو لم يكن حاكما توكولوريا بل كان عميلا فرنسيا. وهكذا خضعت ماسينا للحكم الفرنسي وانتهت الدولة التيجانية بعد صراع طويل مع الاستعمار الفرنسي[1].

كان جهاد الحاج عمر وأبنائه مثالا من الشجاعة والإقدام. وكان الإصرار على المحافظة على إمبراطورية إسلامية ناشئة في فترة كان التكالب الأوروبي على القارة قد اتخذ شكلا عسكريا، وجعل الحاج عمر يخوض المعارك في جبهتين: إحداهما داخلية مفككة ومتصارعة، والأخرى خارجية منظمة وعلى أهبة الاستعداد لخوض المعارك للاستيلاء على أراضي المسلمين، لذا كان الجهاد صعبا والمقاومة عنيفة.

كان على الحاج عمر أن يعمل بشكل مستمر على استتباب الجبهة الداخلية، وأن يواصل الجهاد للقضاء على الوثنيين، وفى الوقت نفسه مقاومة أطماع الفرنسيين. ومن هنا طال أمد النضال واستمر جهاد الحاج عمر وابنه أحمدو مدة قاربت نصف قرن من الزمان أرهق فيها المسلمون الفرنسيين الذين اضطروا إلى تغيير القيادة أكثر من مرة، وتحملت الميزانية الفرنسية نفقات كثيرة، وتكبدت القوات الفرنسية أعدادا كبيرة من القتلى والجرحى. لكن رغم كل هذا فلقد فعل التسليح الأوروبي الحديث دوره في

هذه اللقاءات، وحسم الموقف لصالح الفرنسيين إلى حين حتى يستعد المسلمون لجولة جديدة من النضال خصوصا وأن مبادئ العقيدة كانت قد ترسخت في القلوب، ولم تستطع قوى البغي والقهر والعدوان أن تنال منها، وهذه من أعظم ثمار جهاد الحاج عمر التكرورى الذي استشهد في المعارك العسكرية وهو يدافع عن دين الإسلام وحضارته.

وإذا كان الجهاد في سبيل الله قد واجه المسيحيين في غرب أفريقيا وانتهى اللقاء لصالح قوى المسيحيين إلا أن الطريقة التيجانية ظلت كامنة في النفوس، عالقة في القلوب، بل ازداد المسلمون تمسكا بها، وحافظوا على تقاليدها في وجه التيارات المسيحية والوثنية، وظلت هذه الروح الثورية الدينية تمارس نشاطها وتحافظ على العقيدة الإسلامية حتى هبت كل شعوب المنطقة في وجه الاستعمار الفرنسي، وأجبرته على أن يحمل عصاه ويرحل عن أرض القارة الأفريقية التي عادت للإسلام والمسلمين.

وامتاز جهاد الحاج عمر بأنه وقع خارج وطنه الأصلي في فوتاتورو، ورغم أن التوكولور قد أيدوه في هذا الجهاد، وساعدوه على تحقيق النجاح لحركته الإصلاحية لإعادة الدين الإسلامي إلى نقائه وبساطته الأولى إلا أن هذه الحركة لم تعمر طويلا لأن هذه المنطقة كانت تموج بالصراعات الداخلية، والاضطرابات المحلية. وزاد الطين بلة قدوم قوى الاستعمار بشكله السافر فكان هذا مما ساعد على تعقيد جهاد الحاج عمر في مناطق غير وطنه الأصلي لدرجة أن بعض المؤرخين اعتبروا جهاده بمثابة استعمار توكولورى لمنطقة ماسينا، وبالتالي كانت مقاومة الأهالي لهذا الجهاد لا تقل شراسة عن الهجوم الفرنسي على مواقعه. كل هذا أضعف من فاعلية جهاد الحاج عمر، وكان مضطرا إلى الحرب في أكثر من جبهة، وأن يوزع قواته على أكثر من موقع، وكان مشتت البال، مضطرب التفكير، فمرة يهادن الفرنسيين حتى ينتهي من القضاء على الثائرين، ومرة أخرى يجهز الجيوش ويعيد القوة لغزو مناطق جديدة، وتارة أخرى يعود إلى مهاجمة الفرنسيين الذين كانوا يخططون للتوسع التدريجي على حساب أملاكه. وكل هذا يظهر عظمة هذا النضال، وعمق هذا الجهاد، ويبرز الدور الكبير الذي لعبه الحاج عمر في جهاده ضد أعداء الإسلام من الوثنيين ومن الصليبيين [١].

لم يكن هدف الحاج عمر عندما أتجه نحو وطنه الأصلي في فوتاتورو غزو هذه المنطقة، بل كان يسعى للحصول على تأييد العلماء ورجال الدين هناك من أجل إصلاح العقيدة، وقد أيده بالفعل عدد كبير من التوكولور ومن الأجناس الأخرى في المنطقة. ولم يكن الحاج عمر يهدف إلى التوسع أو الاستعمار في منطقة عرفت الإسلام منذ قرون خلت.

واتسمت حركة جهاد الحاج عمر بالحماس الديني، وظهر هذا واضحا في حروبه مع الفرنسيين في منطقة باكل في عام 1855، وفي مهاجمة قواته المركز الفرنسي هناك واختطاف قائده، وأيضا عندما هاجمت قواته الحصن الفرنسي في مادينا عام 1857. لكنه أجبر على الانسحاب من هناك بسبب ما أصابه من خسائر في الأرواح والمعدات[2].

ولقد حاربت قوات الحاج عمر الفرنسيين في مادينا حتى بلغ عدد قتلى العدو حوالي ستة عشر قتيلا وثلاثة وستين جريحا. وفي معركة جيومو (Guemou) تكبّد الفرنسيون حوالي تسعة وثلاثين قتيلا، وسبعة وتسعين جريحا، وكانت هذه من الأسباب التي أجبرت الفرنسيين على التفاوض مع الحاج عمر والتعاون معه[3].

لقد كان الحاج عمر زعيما إسلاميا مخلصا ناضل من أجل نشر الطريقة التيجانية في المنطقة التي دانت لسيطرته ما بين نهر السنغال ونهر النيجر. وكان الحاج مشغولا في جبهات ثلاث هي: الحرب ضد الوثنيين في الغرب، والحرب ضد المسلمين في الشرق، والحرب ضد الاستعمار الفرنسي [1].
كان الحاج عمر مغامرا من نوع جديد، ورجلا صلبا لا يلين، لدية آمال عراض لبناء إمبراطورية تتخذ من الشريعة الإسلامية أساسا لها ومنهاجا، وما كان يدرى أن الطريق مليء بالأشواك، وأن المنطقة التي اختارها لبناء دولته تكتظ بالمشكلات الداخلية والصراع الأوروبي عليها. فناضل وكافح. وفتح جبهة هنا وجبهة هناك، واستخدم أسلوبي الدبلوماسية والحرب. كان يهادن في جبهة ليتفرغ للأخرى، وساعده كل هذا على نشر الطريقة التيجانية التي تعمقت في نفوس الناس وصارت تضارع الطرق الصوفية الأخرى. ولو فهم المسلمون ما يرمي إليه هذا الشيخ المجاهد، والجهود التي يبذلها لبناء دولة إسلامية، ولو وقفوا بجانبه في صراعه مع الأوروبيين لتغير الوضع تماما، لكن للأسف الشديد عاق الحاج عمر من المسلمين والوثنيين الذين

تكاتفوا ضده، واعتبروه غازيا، وعقدوا حلفا ضده وهو في أمسّ الحاجة لجهودهم، وحاصروه في حمد الله وهو يناضل من أجل الوقوف في وجه الفرنسيين. وسقط هذا الزعيم شهيدا برصاص المسلمين الذين تتبعوه وحاصروه حتى قضوا على جهوده، واستشهد الحاج عمر وهو في روعة انتصاراته، وفي قمة صراعه مع الفرنسيين الذين عانوا كثيرا على يديه[2].

ورغم سقوط إمبراطورية التوكولور إلا أن أتباع الحاج عمر قد اكتسبوا شهرة القيادة الإسلامية في السودان الغربي، وانتشرت التيجانية بعد ذلك، وقاومت التبشير المسيحي الذي اجتاح إمبراطورية التوكولور في أعقاب السيطرة الأوروبية، ورغم سقوط الإمبراطورية سياسيا إلا أنها استمرت تمارس حياتها الدينية، وحافظت على تراث الإسلام وحضارته أمام موجات الغزو والتوسع الأوروبي والتبشير المسيحي[1].

3 المسلمون والغزو الأوروبي لمنطقة سانجامبيا

من الحركات الإسلامية التي لعبت دورا كبيرا في مقاومة الوثنيين في منطقة سانجامبيا تلك الحركة التي قادها شيخ من شعب السراكولا يدعى محمد الأمين، ذلك الشيخ الذي حاول استعادة مكانة هذا الشعب أيام إمبراطورية غانا الإسلامية، بالإضافة إلى محاولاته من أجل نشر الدين الإسلامي بين سكان تلك المنطقة من غرب أفريقيا .

ويحتل جهاد الشيخ محمد الأمين مكانة خاصة تختلف إلى حد كبير عن حركات الجهاد التي أعلنها زعماء الإسلام في السودان الغربي أمثال: الحاج عمر الفوتي، أو الشيخ عثمان بن فودي، أو أحمدو لوبو، أو محمد أحمد المهدي في السودان.

لقد كان جهاد الشيخ محمد الأمين قصيرا في مداه، عميقا في مغزاه، قويا في أثره، عنيفا في تنفيذ أهدافه . حيث اتسم جهاده بالعنف والصلابة، وقوة الإصرار على متابعة جهاده رغم وقوف الأعداء له بالمرصاد . لذا كان جهاده من نوع خاص وفي فترة قصيرة لم تتجاوز العامين، ووسط ظروف بالغة القسوة، والعدو يتربص به، والقوى المحلية تحيك

حوله المؤامرات، لكنه وسط كل هذا قاوم وناضل، وحمل السيف، وأعلن الجهاد لنشر الدعوة رغم صعوبة الظروف، وتحدى كل من وقف في طريقه من القوى المحلية والخارجية، وأجبر عددا كبيرا من الوثنيين على الدخول في طاعته، كما انضمت إليه جماعات أخرى كثيرة وجدت فيه مجسدا لآمالهم، ومحققا لأهدافهم، وباعثا لشعب السراكولا الذي صار تابعا للتورودوب، فكانت حركته قومية إسلامية جهادية، وصار بطلا قوميا لشعب السراكولا ضد السيادة الوطنية، وضد الحكم الفرنسي الأجنبي، وقاوم الشيخ القوى المحلية، والتوسع الفرنسي حتى يتمكن من تحقيق الهدف الذي كرس له حياته إلى أن لقي الشهادة وهو يدافع عن الدين الإسلامي فكان من أوائل من مارسوا حرب العصابات ضد الفرنسيين حتى أنه اشتهر بالشيخ المحارب. ورغم أن نضاله وجهاده لم يستغرقا وقتا طويلا إلا أن الأثر الذي تركاه كان عميقا ليس فقط في تاريخ هذه المنطقة، بل في غرب أفريقيا بشكل عام [1].

وسوف ندرس جهاد هذا الشيخ ودوره في مقاومة التوسع والحكم الفرنسي في منطقة سانجامبيا بغرب أفريقيا.

أولا: نشأة الشيخ محمد الأمين

ولد مالامين دمبا ديباسي الذي عرف فيما بعد باسم محمد الأمين في حوالي عام 1840 في قرية جونديورو (Gundiuru) التي تعد من مراكز الدراسات الإسلامية، والتي تقع على بعد عدة أميال جنوب مادينا (Madina) عاصمة كاسو (Khasso)[2].

وكان والده من المرابطين الذين يقومون بالوعظ والإرشاد، وتطبيق الشريعة الإسلامية في هذه القرية بالإضافة إلى عمله كقاض في هذه المنطقة، وتلقى الأمين مبادئ الدين الإسلامي على أيدي والده في بعض المراكز في سانجامبيا وخصوصا في فوتاتورو. وفي سنواته الأولى انتقل مع الأسرة إلى قرية سافالو (Safalu) في إقليم بوندو، وذهب الأمين إلى باكل (Bakel) حيث دفعته روح المغامرة إلى الاشتراك في حملة ضد جامون (Gamon)، لكنه وقع أسيرا مع والدته التي ماتت في هذا الأسر. وحاول والده إنقاذه دون جدوى، فقبض عليه، ووضع في السجن. وهناك لقي

معاملة قاسية تمثلت في الجلد عدة مرات مثل غيره من المسجونين. ومنذ ذلك التاريخ حمل الأمين حقدا دفينا ضد قرية جامون لم يفارقه طوال حياته [1].

بعد أن خرج الأمين من الأسر واصل دراساته الإسلامية في مدينة باكل على أيدي عدد من الشيوخ الذين بلغوا شهرة واسعة في هذه العلوم الإسلامية، وقد استفاد الشيخ الأمين من إقامته في باكل حيث إنه التقى بالمجاهد الكبير الحاج عمر الفوتي التكروري زعيم التيجانية في المنطقة، فتأثر به واقتفى آثاره، بل انضم إلى جيشه من أجل إعلان الجهاد [2].

لكن هذا الرأي غير صحيح لأن الحاج عمر كان قد أعلن جهاده ضد قبائل البمبارا في الوقت الذي كان الشيخ الأمين قد غادر باكل إلى الأراضي المقدسة لأداء فريضة الحج، كما أن خطاباته لم تشر إلى قيامه بمثل هذه المشاركة في حملات الجهاد مع الحاج عمر[3].

ترك الأمين مدينة باكل في منتصف الخمسينات في طريقه إلى الحجاز، وكان قد بلغ الحادية والعشرين. وأثناء إقامته في مكة درس المزيد من العلوم الإسلامية، وتعمق في الدراسات والمذاهب الفقهية، ولم يتحدد طول المدة التي قضاها في البلاد المقدسة، لكنه على أي حال عاد إلى سيجو عاصمة أتباع الحاج عمر الفوتي في عام 1880، واختلفت الآراء حول إقامته طوال هذه الفترة في مكة، بل ادعى البعض أنه زار مصر والقسطنطينية أثناء عودته إلى بلاده. ولكن مهما اختلفت التفسيرات فإن الشيخ الأمين قضى فترة طويلة خارج بلاده، وطاف بالبلدان التي مر عليها في طريق عودته وانتهى به المقام حيث إمبراطورية التوكولور التي سيكون فيها جهاده وستكون قاعدة الدولة التي فكر في إنشائها.

كان الأمين قد تنقل بين عدد من الدول والبلدان أثناء أسفاره في الذهاب والإياب لرحلة الحج، وحاول عدد منهم الاستفادة من عمله كرجل دين، ومن ثقافته الواسعة، لكنه أبى البقاء والاستقرار في أي دولة، وكان دائما يردد أنه لا بد من العودة لأن الله قد كلفه بمهمة شاقة وعليه القيام بها [1].

كان الهدف من هذه الرسالة أن يستعيد شعب السراكولا مكانته السياسية بين جيرانه، لكن هذا الهدف لن يتحقق، ولن يتم بعث إمبراطورية السراكولا في غانا القديمة إلا إذا تم طرد الحكام الأجانب. وبعبارة أخرى وضع

الحاج الأمين نصب عينيه مقاومة كل من التوكولور والوجود الفرنسي الأجنبي، وهي مهمة صعبة التنفيذ، بعيدة المنال لأنه سيحارب ضد القوى المحلية وضد إمبراطورية الشيخ أحمدو بن عمر التكروري، وضد الفرنسيين الذين استقروا وطاب لهم المقام في المنطقة. ومن هنا تكمن عظمة جهاد الشيخ الأمين و خطورته [2].

لقد شاهد الأمين وهو في صباه إمبراطورية التوكولور، وصراع الحاج عمر ضد التوسع الفرنسي في المنطقة من أجل السيطرة على سانجامبيا في الفترة من عام 1857 حتى عام 1860، وكان شعب السراكولا قد شارك في هذه الحروب ضد سيادة التوكولور، وكانت هذه الفترة ماثلة أمامه، فاستعاد الذكريات وخصوصا العنف الذي واجهه من حكم التوكولور الذين حبسوه حوالي سبع سنوات في سيجو. وعندما أطلق سراحه وعاد إلى بلاده عام 1885 صمم على أن ينشئ إمبراطورية من السراكولا، ويكون خليفة لإمبراطورية التوكولور. وفي هذا المقام اتفقت آراؤه، وتشابهت أفكاره مع شعب السراكولا الذي كان قد عزم النية على محاربة الفرنسيين ومقاومة التوسع الأوروبي. وعلى هذا لم تكن حركة الحاج محمد الأمين رد فعل سلبي للاحتلال الفرنسي، بل كانت في الأصل تعبيرا عن قومية سراكولية اتخذت من الإسلام وشريعته الغراء هدفا أسمى لها، ووجدت هذه الآمال في شخصية الشيخ الأمين الأمل المنشود لتحقيق ما تتطلع إليه جماهير السراكولا في غرب أفريقيا، فتوافد عليه الناس جماعات ووحداناً وانضموا إليه يشدون أزره، ويقفون إلى جانبه، ويبذلون الغالي والنفيس في سبيل تحقيق الأمجاد القومية أولا، ونشر الدين الإسلامي ثانيا، ثم الوقوف والجهاد ضد التوسع الفرنسي ثالثا [1]. وقبل أن يعلن الشيخ الأمين جهاده انتشرت الأخبار عن حكمته، وأنه قادر على القيام ببعض المعجزات بالإضافة إلى زعامته الدينية وتأثره بالطريقة السنوسية [2].

واختلفت الآراء حول مدى تأثر الشيخ الأمين بالطريقة السنوسية حيث يرى ويليس (Willis) أن النفوذ الوهابي كان قويا على حركات الجهاد في غرب أفريقيا في النصف الأول من القرن التاسع عشر، وأن أثر الحجاج كان قويا في نشر هذا المذهب الوهابي في النصف الثاني، وأنه من المحتمل أن يكون الشيخ الأمين قد تشرب الكثير من مبادئ الوهابية سواء بشكل

مباشر أثناء إقامته في مكة، أو بشكل غير مباشر من الوسطاء والتجار الذين نقلوا الكثير من الفكر الوهابي إلى غرب أفريقيا [3]، وهذه قضية لا تزال تثير جدلا كبيرا حول هذا الدور الوهابي.

ويوضح نيقولا زيادة أن الشيخ محمد الأمين لم يكن سنوسيا، بل إنه تأثر بالطريقة التيجانية لأن كل مراسلاته ونشاطه الديني لم يكشف النقاب عن أي أثر سنوسي، كما أنه لم يتأثر بالدعوة المهدية التي ظهرت في سودان وادي النيل لأنه سافر إلى مكة قبل أن يعلن محمد أحمد المهدي عن دعوته في مارس 1881[1].

ومهما اختلفت الآراء بين المؤرخين حول اتباع الشيخ محمد الأمين الطريقة الوهابية أو السنوسية أو التيجانية في النهاية، فإن الذي لا شك فيه أن هذا الشيخ قد وضع نصب عينيه هدفا واحدا هو تطبيق الشريعة الإسلامية، وإعلان الجهاد ضد القوى الوثنية في المنطقة على أمل إحياء مجد السراكولا القديم. ولذا فإنه عندما وصل إلى كاسو عام 1885 أعلن النية ببدء الجهاد في سبيل الله، وفي وقت كانت التيجانية قد تغيرت صورتها بشكل واضح، وتوقف جهادها ضد الوثنيين، وانشغلت في صراعاتها الداخلية بين أحمدو الشيخ بن الحاج عمر والوجود الفرنسي، بل توجه المجهود العسكري ضد أبناء الحاج عمر نفسه، ولذا لم يكن غريبا أن تضيع الجهود، وتتفتت قوى المجاهدين في سبيل الله بعد أن تحول التوكولور إلى طبقة حاكمة فرضت نفسها على بقية شعوب المنطقة، وأخضعت شعب السراكولا، كمجرد رعايا، تحت سلطانها. فكان هدف الأمين هو التخلص من هذه الحالة، وهو الأمر الذي جعل الشيخ أحمدو يرقب حركاته وتحركاته، ويوصد جولاته وحملاته، ويقف أمام كل طموحاته. فكان الصراع المحتوم بين تلك القوى الوطنية في وقت كانت أشد ما تكون تكاتفا وترابطا أمام الفرنسيين أعداء الشريعة والدين. كان الشيخ الأمين قد حجز في سالوم (Salum) تحت رقابة الشيخ أحمدو، وفي هذه الفترة عكف الشيخ على دراسة إمكانية القيام بالثورة ضد الطبقة الحاكمة من التورودوب، وتأسيس مجتمع ديني لنفسه. واتضح له بعد الدراسة المتأنية، والاحتمالات المتعددة أنه لا يمكن تحقيق هذا المجتمع الديني وسط هذا المجتمع التوكولوري من دون أن يكون له حلفاء يعاونونه في تنفيذ خطته، فانتظر حتى يحين الوقت

لمغادرة سالوم، وحتى يبتعد عن الإشراف الدقيق، والمراقبة المباشرة للشيخ أحمدو. واستغل هذه الفترة في تجنيد التجار من جماعات الديولا والسراكولا حيث استخدمهم كمبعوثين إلى دويلات وممالك الكاميرا، والجيوديماكا، والجوى، والدافانو، وبوندو. وأدّى هذا العمل إلى ازدياد شهرته وكثرة الأعوان الذين صاروا على استعداد لأن يكونوا عدته وعتاده في سبيل نشر الدين بين الوثنيين [1].

ثانيا: تأسيس دولة الأمين

في أواخر عام 1884 غادر السلطان أحمدو شيخو عاصمته سيجو وذهب إلى منطقة كارتا للقضاء على أعمال التمرد والعصيان التي قادها أخوه محمد مونتجا، كما قرر السلطان نقل العاصمة إلى نيورو [2] (Nioro). انتهز الشيخ الأمين هذه الفرصة وهرب من سجنه استعدادا للمهمات التي سيقوم بها في المستقبل، وواصل الأمين سيره حتى وصل إلى القلعة الفرنسية في باماكو في أوائل يونيو عام 1885. وساد الاعتقاد في ذلك الوقت أن الأمين ينوي إعلان الجهاد وتأسيس دولة السراكولا [3].

وكان ضباط الأحياء الفرنسية قد سمعوا بعد رحيله من سيجو أن مرابطا مشهورا يدعى الحاج محمد الأمين يرغب في العودة إلى كاسو، وأنه يكره السلطان أحمدو وينوي القيام بحرب ضده، وأنه يعتزم إعلان الجهاد بين السراكولا في نيامينا (Nyamina) والبمبارا في فادوجو (Fadugo)، وكان هذا الإعلان عن العداء بين الشيخ المرابط والسلطان أحمدو سببا في أن يجد الأمين حفاوة وترحيبا من جانب الفرنسيين عندما ظهر في باماكو، وسمحوا له بالتحرك والتجول بحرية تامة في مناطق السيطرة الفرنسية [1].

واصل الشيخ رحلته على طول الحصون الفرنسية دون أي معوقات، وكانت أسرته ترافقه جنبا إلى جنب مع عدد من الأتباع المخلصين حتى استقر به المقام في مدينة جونديورو (Gundiuru) في أوائل يوليو عام 1885، وفي هذا المكان توافد الناس عليه، وقدمت الوفود حاملة الهدايا والمتاع، وأقبل الناس تشوقا إليه، وتطلعا إلى رجل الجهاد الذي سيخلصهم من أسر التوكولور ومن السيطرة الأجنبية، وذاعت شهرة الشيخ بين المثقفين والعامة،

وأظهر له سامبالا (Sambala) حاكم مدينة كاسو كل مظاهر الود والاحترام الحقيقيين طوال إقامته في تلك المنطقة.

ظل الأمين حوالي شهرين في جونديورو اطلع فيهما على الأحوال السياسية والأوضاع الاجتماعية والتغيرات الاقتصادية التي حلت بالمنطقة منذ رحيله إلى مكة لأداء فريضة الحج منذ ثلاثين عاما مضت، وأعلن الشيخ منذ بداية جهاده أنه لا يكنّ للفرنسيين أي عداء، وأن عدوه الأول هو السلطان أحمدو، وأنه ينوي غرس السلام والمحبة والعدل، وإعلان الجهاد في سبيل الله بين الأقوام الوثنية.

وبعد أن ذاع صيته، وكثر عدد أتباعه وتلاميذه، أرسل البعوث إلى مختلف المناطق لإعلان الولاء وللانضواء تحت راية الجهاد، فتغيرت الأوضاع، وبدأت الاستعدادات الدبلوماسية والعسكرية، وأمكن الحصول على السلاح من الفرنسيين ومن التجار على الساحل. أعلن الشيخ الجهاد وحمل لقب الخليفة، بل لقبه بعض الأتباع بالمهدي الذي جاء ليحرر شعبه وأرضه من عبودية الأقوام الآخرين، وحاول الشيخ الأمين إقامة علاقات ودية مع جيرانه في فوتاتورو وبوندو، كما أقام علاقات طيبة مع عبد الله أبو بكر إمام بوسيبيا وفوتاتورو، كما دعاه إلى الانضمام إليه في حربه المقدسة [1].

ورغم أن الشيخ عبد الله أبكر لم يوافق الأمين، ولم يعلن الانضمام إلى حركته، لكنه عامله كصديق وكجار له، ولم يحاول معاداته. وفي الوقت نفسه حاول الأمين إقامة جسور المحبة والود مع الفرنسيين مثل الحاج عمر تماما، وذلك لكي يصرف أبصارهم بعيدا عنه، وحتى لا تتحول القوات الفرنسية إلى عداء لحركته، فتجهض أفكارها قبل قيامها، وإظهارا لحسن النية الصادقة مع الفرنسيين عرض الأمين إرسال بعثة إلى الحاكم الفرنسي إلى مدينة سانت لويس لشرح قضيته، وأنه لا يكن العداء للفرنسيين، وأن هدفه الرئيس هو إعلان الجهاد ضد الوثنيين وضد الشيخ أحمدو، ونجح الأمين في هذه الحركة الدبلوماسية التي خدعت الفرنسيين حينا من الوقت جمع فيه رجاله، وكوّن جيشه، وزوده بالسلاح استعدادا للحرب على الجميع، واستطاع الأمين مع نهاية عام 1885 أن يصل بعدد جيشه إلى حوالي مائتين وخمسين رجلا في قرية جونديورو. وعندما ساور الشك الفرنسيين حول نشاطه المتزايد، وأتباعه الذين ينضمون إليه يوما بعد يوم، وأعلن أن نيته


المغاربة
المحيط الأطلسي
فوتا تورو
التكرور
الولوف
صانجامبيا في منتصف القرن التاسع عشر

شكل رقم (9)

هي إعلان الجهاد ضد قرية جامون (Gamon) التي يكن سكانها العداء له منذ زمن طويل، وطلب الأمين من الميجور هوري (Howry) السماح له بتنفيذ هذه الحملة، لكن هذا القائد الفرنسي العام لأعالي نهر السنغال عبر له عن دهشته، فكيف يعطيه إذنا رسميا للحرب ضد قرية ما في الوقت الذي يجمع فيه الرجال، ويجهزهم بالأسلحة دون ترخيص سابق من سامبالا حاكم المنطقة؟ وطلب الحاكم الفرنسي من الشيخ الأمين إذا رغب في إعلان حرب الجهاد، فعليه أن يعلنها بعيدا عن مناطق النفوذ الفرنسي. فكان هذا بداية القطيعة، وإحساس الشيخ أن الفرنسيين لن ينخدعوا بدبلوماسيته، وأنه لا بد من أن يحتك بهم إن طال الزمن أو قصر، لكنهم الجانب الأقوى الذي لا يمكن مواجهته في بداية جهاده، وكان عليه أن يهادنهم إلى حين [1].

وكان جهاد الشيخ الأمين يسير على نفس هدى حركات الجهاد التي قادها زعماء مسلمون في السودان الغربي وعلى رأسهم الشيخ عثمان بن فودي، وأحمدو لوبو، والحاج عمر الفوتي، ولكن الاختلاف الوحيد هو أن الشيخ الأمين خالف المفهوم الإسلامي حينما طلب من الفرنسيين السماح له بالقيام بالجهاد، وهو أمر لا يجوز لزعيم إسلامي أن يحصل فيه على موافقة قوى وثنية أو مسيحية لإعلان جهاد أمر به المولى سبحانه وتعالى. لكن إذا استعرضنا الظروف وحللنا المواقف نجد أن للشيخ عذره في هذا المطلب لأنه لا يمكن وهو في أول حياته أن يعلن حربا على دولة أجنبية مسلحة بأحدث ما وصل إليه التطور العسكري، وهو رجل أعزل يحاول جمع الرجال ويحصل لهم على السلاح، وبإعلانه الحرب ضدهم يعني وأد حركته قبل أن ترى النور. فكانت دبلوماسيته معهم ومحاولاته الاستئذان منهم حتى لا يتورط في مشكلات قد تجلب عليه مصائب لا تحمد عقباها.

واستطاع الشيخ الأمين أن يسيطر على حركة تمرد قامت ضده في منطقة كارتا، وبعد ذلك العمل أخذ يخطط لحركة كبرى ضد السراكولا في منطقة جيوديماكا (Guidimaka)، ودياڤونو (Diafounou)، وفي كلتا المنطقتين أعلن شعب السراكولا قبول حكم الشيخ الأمين [2].

وواصل الأمين حملات الجهاد ضد الوثنيين في جامون، وقابل القائد الفرنسي الجديد ويدعى فري (Frey) في كايز (Kayes) وأعلن له الإخلاص

وللفرنسيين، وأنكر بكل غضب حماقة أعدائه الذين لا يريدون إلا الوقيعة بينه وبين الفرنسيين، كما شرح له الشيخ أن نيته الجهاد ضد الوثنيين في كامون، بل ضد بعض المناطق التجارية في جامبيا البريطانية، كما وعد الشيخ بعدم القيام بأي عمل دون إخطار السلطات الفرنسية [1].

وواضح من اللقاء مع فري أن الشيخ الأمين كان دبلوماسيا إلى أبعد الحدود. فإثارة العداء ضد السلطان أحمدو كان مناورة بارعة. كما أن إعلانه عن عدم القيام بأي عمل دون الرجوع إليهم جعل الجانب الفرنسي يطمئن للرجل ولسياسته التي تخدم مصالحهم. كما أن الشيخ الأمين أظهر عبقرية خارقة حينما عزف على الأوتار الحساسة في سياسة العداء بين فرنسا وإنجلترا، وإعلانه عن أنه سيشن حرب الجهاد ضد البريطانيين في جامبيا. وهي لعبة بارعة، وحيلة ذكية من شيخ مخضرم عرف كيف يسوس الأعداء، ويصرفهم عنه فترة من الزمان ازدادت فيها أواصر المحبة معهم لدرجة أن فرى أعطى الأمين سيفا كرمز للصداقة في هذا اللقاء، كما كتب فري إلى كل الحكام الفرنسيين في المنطقة يطلب منهم حسن استقبال الشيخ الأمين [2].

وأعلن الأمين للكولونيل فري عن تضايقه من سيادة التوكولور، كما أعرب عن سياسته وخدماته لتقديم قوات للفرنسيين في حملاتهم ضد السلطان أحمدو. لكن القائد فري خشي من التورط قي هذه العروض المغرية [3].

سمح فري للشيخ الأمين بالتجول في مناطق النفوذ الفرنسي بحيث لا تزيد قوة أتباعه عن خمسين رجلا مسلحا. وأثمر لقاء الأمين بالقائد فري عن شبه اتفاق واعتراف الفرنسيين بمحمد الأمين كحليف لهم ضد السلطان أحمدو شيخو، لكنهم لم يكونوا في حاجة إلى خدماته لا تلك الفترة لانشغالهم بالحرب ضد مجاهد آخر يدعى ساموري توري.

وإذا كان الفرنسيون قد انخدعوا بتلك الدبلوماسية البارعة للشيخ الأمين إلا أنه فسر هذا اللقاء مع فري بصورة تختلف عما دار في مخيلة الفرنسيين لأنه أصبح لديه اعتقاد جازم بأنه لا بد من أن يدخل في حرب ضد الفرنسيين بعد نجاح جهاده ضد الوثنيين، وأن هدية السيف التي أخذها وخطاب التوصية للحكام ما هما إلا وسيلة لصرف النظر عن تحركاته، وفرصة

لتكوين جيشه، ووسيلة لجمع المزيد من الأتباع حوله، وفي نظره أن هذا اللقاء كان مثمرا لحركته حيث جعل منه قائدا أعلى للسراكولا، وحليفا للفرنسيين ضد أعدائهم من التوكولور.

كانت حملة الشيخ الأمين موجهة في المقام الأول ضد الوثنيين في جامون، وكان هدف الشيخ من هذه الحملة أن يظهر في نظر شعبه كقائد أعلى للجهاد، ولتكون تجربة عملية يدرب رجاله على الحرب المكشوفة استعدادا لمعارك أخرى قادمة، كما كان الهدف من هذه الحملة الحصول على الأسلاب والمعدات التي يحتاج إليها في المستقبل، وفوق كل هذه الأهداف كان الأمين يسعى لأن يكون الاستيلاء على منطقتي جامون وتندا (Tenda) نواة الدولة الإسلامية العسكرية [1].

كان فري قد أشار إلى أنه منع الشيخ من إعلان الحرب ضد جامون، لكن قواد السراكولا أعلنوا أن فري قد سمح للشيخ بالجهاد ضد هذه المنطقة، ولكن بشرط الابتعاد عن خطوط التلغراف الفرنسية [2].

ومع بداية شهر ديسمبر 1885 قام الأمين بعمل الدعاية اللازمة للاتجاه غربا وساعده فري بأن طلب من ضباط الأحياء تسهيل مهمته في السفر لأنه رجل مسالم، ولكنه في نفس الوقت أوصى بمراقبة تحركاته بكل حرص [3]. وتجول الشيخ في قرى كاميرا (Kamera) واخترق المنطقة إلى فوتاتورو إلى أن وصل إلى قرية جوميل (Gumel) في مديرية دمجا (Damga)، وبدأ الشيخ بجمع الضرائب من الناس، وينادي بحرب الجهاد ضد الوثنيين في جامون وتندا، وطالب كل قرية بإعداد فرقة مسلحة تكون على استعداد للاستجابة لأوامره، وواجه الشيخ بعض المصاعب لأن قائد منطقة باكل أرسل إليه ما يفيد أن تحركاته تخالف التعاليم التي وصلت إليه. وكان جواب الشيخ بأنه لن يمنع الناس من السير خلفه أو الانضمام إليه [1].

لكن رغم كل المعوقات التي وضعت في طريقه استطاع الشيخ الأمين الوصول إلى بالو (Balu)، وهي عبارة عن قرية مجاورة لجوي(Guoy) قرب التقاء نهر فاليم (Faleme) بالسنغال. وفي هذا المكان بدأ وضع لبنات مقره الرئيس [2].

وفي خلال ستة أشهر ذاع صيت الشيخ بعد أن كان شيخا غير معروف حيث عاد حديثا من غربة امتدت ثلاثين عاما، لكنه بعد قليل صار القائد

المحلي لأغلبية شعب السراكولا، ولعل السبب في ذلك إنما يعود إلى فصاحته ولباقته وقدرته على جذب الأتباع والأعوان بسرعة، هذا إلى جانب ما أشيع عن كراماته ومعجزاته، وبأنه المهدي المنتظر. إلا أن الشيخ نضب نفسه أميرا للمؤمنين وسلطانا للمسلمين، المجدد لنهج السنة القويم، الراعي لشريعة الإسلام.

ورغم أن دعوة الشيخ الأمين كانت لتجديد الشريعة الإسلامية إلا أن دعوته اتخذت طابعا قوميا اقتصر على شعب السراكولا، ورغم أن الأمين كان يبني إمبراطوريته على حساب الفرنسيين والتوكولور إلا أن كلا منهما لم يكن في موقف عسكري يساعده على مواجهة نشاط الشيخ بشكل فعّال، حيث كان السلطان أحمدو مشغولا بإخضاع أعمال التمرد في منطقة كارتا منذ عام 1884، ولم يكن لديه من القوات ما يساعده على الدخول في معركة عسكرية ضد الشيخ الأمين. أما بالنسبة للفرنسيين فإن القوة الموجودة لديهم لم تكن كافية لحماية مصالحهم التجارية. ولذا كانت التعليمات لدى القائد الفرنسي في السنغال عدم الدخول في صراعات عسكرية لا تستطيع ميزانيته تغطية نفقاتها، وكانت كل هذه الظروف في صالح الشيخ الأمين، وهو الأمر الذي ساعده على بناء دولته، وتوسيع نطاقها [1].

وساعد الأمين على تقوية نفوذه في هذه الفترة عاملين رئيسين:

الأول: هو أن فرنسا قد اضطرت إلى إرسال قوات إلى منطقة النيجر لمواجهة جهاد الإمام ساموري توري، وكان فري يرغب في أن ترسل إليه مدينة سانت لويس قوة لحماية باكل خلال غيابه في النيجر، لكن هذه القوة لم تصل في الوقت المناسب لأن نهر السنغال لم يكن صالحا للملاحة في تلك الفترة. وكان تعطيل إرسال القوات في صالح الشيخ الأمين.

والثاني: انهيار الموقف السياسي في منطقة السنغال الأعلى بعد موت إمام بوندو (Bondu) ويدعى أبا بكر سعدا في 18 ديسمبر 1885، وخلفه أخوه عمر سعدا ذلك الرجل المسن الذي بلغ من الكبر عتيا، والذي وجد معارضة قوية من عثمان جايسي الابن الأكبر لأبي بكر سعدا، وكان تأزم هذا الموقف في بوندو لم يعد يشكل خطرا سياسيا في حوض السنغال الأعلى [2].

وبمجرد أن علم الشيخ بانتخاب عمر سعدا في الخامس من يناير حتى أرسل إليه مبعوثين يطلب منه السماح لقواته بالمرور في بوندو للاتجاه نحو

جامون، وكانت إجابة عمر سعدا غير واضحة في البداية، ولكن مع إصرار الشيخ على المرور رفض عمر سعدا الطلب وأعلن أنه سيواجه قوات الشيخ بكل حزم وقوة [3]. وفي شهر يناير ازدادت قوة الشيخ الأمين حيث وصلت حوالي ألفين من الرجال المسلمين الذين توافدوا عليه من مختلف مناطق السراكولا. وكانت هذه التعبئة في حد ذاتها عاملا حاسما في معارك الشيخ الأمين، واضطر عمر سعدا إلى التحرك إلى جابو (Gabu) حتى يكون قريبا من باكل.

وطلب عمر سعدا النصح والمشورة من حلفائه الفرنسيين، وفعلا ساند قائد منطقة باكل الفرنسي الإمام عمر سعدا بأن أصدر أمرا للشيخ الأمين بمغادرة المنطقة الفرنسية في 15 يناير 1886، كما طلب من سكان المناطق المجاورة لجوي (Guoy) بالعودة إلى قراهم [1].

واضطر الشيخ الأمين إلى مغادرة المنطقة جنوبا في اتجاه سونوديبو (Senudebu) وعبر الأمين حدود بوندو. وفي أول فبراير أرسل طلبا إلى عمر سعدا ليسمح له بالمرور، ولكنه رفض ثانية فحدث أول اشتباك بين قوات الشيخ الأمين وقوات عمر سعدا قرب قرية ديامويلي (Diamweli)، وانهزمت قوات الشيخ الذي اضطر إلى التقهقر عن طريق بوليبان (Bulebane) إلى باكل، ومن هناك اتجه إلى دمجا. وبعد قتال عنيف سقطت بوليبان في أيدي قوات الأمين. وكانت هذه فترة حاسمة في كل مستقبل، وخطط الشيخ الأمين حيث دارت مفاوضات بين عثمان جاسي أحد الحكام المحليين والشيخ، ووافق عمر سعدا على السماح لقوات الأمين بالعبور في بوندو. وكان الشيخ يتجنب الصراع المسلح مع أي قوة محلية أو خارجية حتى لا يرهق رجاله في حروب تبعده عن هدفه الأساسي وهو بناء دولته، وإعلان الجهاد المسلح ضد الوثنيين في منطقة جامون [2].

لكن الشيخ اضطر إلى إعلان الحرب ضد عمر سعدا بعد أن سمح لقوات الشيخ بالعبور في بوندو، وما أن عبرت القوات الإسلامية حتى هاجمها سلطان بوندو بعد ثلاثة أيام وأجبرها على الانسحاب [3]، فكانت هذه الواقعة سبباً في جعل الحرب من الأمور الحتمية بين الأمين والإمام عمر سعدا، ولقد أوضح الشيخ في كل مراسلاته أنه لم يبدأ بالعدوان، وأن عمر سعدا هو الذي أطلق الشرارة الأولى في هذه الحرب [1].

اعتبر الشيخ الأمين أن جماعات السيسي (Sisibe) هم ألد أعدائه لأنهم يعارضون دعوته وجهوده الإصلاحية لنشر العقيدة، ونظرا إلى أن رفض حاكم مسلم السماح لجيش المؤمنين وهم في طريقهم إلى الجهاد عبور أراضيه إنما هو عمل لا يقل عن الذين يتركون القيم والمثل الإسلامية، ولذا فإن إعلان الجهاد ضدهم واجب مشروع.

ومن هنا تبدأ مرحلة جديدة في جهاد الشيخ الأمين ضد القوى المحلية حيث تخلى الشيخ عن حملات الجهاد والحرب ضد جامون، واتجه نحو بوندو التي عارضت تقدمه واعتبرها نواة لدولة السراكولا، حيث كان عدد كبير من سكان التورودوب قد هجر المدن والقرى، فأخذ الأمين يضع مكانهم شعب السراكولا، وفي الوقت نفسه اندفع عدد من المحاربين إلى معسكرات الشيخ يعلنون الولاء والتبعية لقائد المسلمين، ومنقذ شعب السراكولا من طغيان التوكولور والفرنسيين. وأدت كل هذه الجهود إلى زيادة عدد أفراد جيش الشيخ، فوصل إلى حوالي خمسة آلاف رجل. ومع هذا الحماس الديني الكبير طالب سكان مدينة جيوديماكا بإعلان الحرب على السلطان أحمدو، لكن الشيخ الأمين شعر أن قواته ليست من القوة بالقدر الذي يجعلها تخوض تجربة الحرب ضد أحمدو، ولذا آثر الانتظار لما تسفر عنه الأقدار، ورفض الدخول في حروب جديدة حتى لا تتفرق قواه في أماكن بعيدة.

ومن الطبيعي والحال على هذا المنوال أن يتابع الفرنسيون بكل دقة تلك التحركات للشيخ الأمين، ويظهر هذا بشكل جلي في البرقيات التي أرسلها القادة الفرنسيون. ولكن رغم كل هذا وقف الفرنسيون على الحياد في ذلك الصراع الدائر بين الشيخ الأمين وعمر سعدا، ولعل هذه السياسة الفرنسية الحيادية إنما ترجع إلى أكثر من سبب، فمن جهة ليست القوة الفرنسية في هذه الظروف على استعداد للدخول في حرب مع الشيخ الأمين، ولأن فرنسا تريد أن تصفي هذه القيادات الشعبية في حروبها مع بعضها حتى تضعف شوكتها، وبالتالي تسهل السيطرة عليها بأقل تكاليف ممكنة.

كانت هذه هي نظرة الفرنسيين، وهي نظرة قائمة على السياسة الأوروبية بشكل عام، وهى ترك القيادات المحلية والشعبية تتصارع فيما بينها حتى تجد الفرص المناسبة للقضاء على هذه الوحدات السياسية التي كان من

المفروض أن تتكاتف وتقف صفا واحدا ضد عدو دينها، والذي لا يمكن أن يوثق به مهما حاول إظهار العطف عليها، وتلك من المحن التي وقع فيها الأفارقة بشكل عام في كل مراحل مقاومة التوسع الأوروبي في القارة.

وانتظر الفرنسيون وهم يرقبون بكل حيطة وحذر تحركات الأمين وجيشه، والمعارك التي يخوضها. ولكن لما أظهرت قوات الأمين تفوقا على عمر سعدا استنجد الأمير بالفرنسيين بعد أن هرب إلى دمجا، ووجد الفرنسيون أنفسهم في موقف حرج بعد أن وردت الأخبار التي تضمنت تخلي أغلبية سكان السيسبي عن مقاطعتهم وانضمامهم إلى قوات الشيخ الأمين الذي كان ينوي البقاء في بوندو، وأن يصبح حاكما عليها، وأرسل للفرنسيين بعد هذه الأحداث يؤكد إخلاصه لهم، وأنه ما زال يبقي بينه وبينهم على أواصر المحبة والصداقة. كتب الشيخ الأمين عددا من الرسائل إلى القيادات الفرنسية يوضح الهدف من التغيرات التي حدثت، كما طلب في إحدى مراسلاته إلى الفرنسيين تلبية رغبته في أن يصبح قائدا لبوندو محل السيسبي الذين دمروا المنطقة من قبل، وأعرب عن ازدهار المنطقة أثناء حكمه، وأنه سيبذل ما في وسعه لتطوير التجارة الفرنسية [1].

ثالثا: صراع الأمين ضد الفرنسيين

بالرغم من كل التصريحات والمراسلات التي وجهها الأمين للفرنسيين معربا مرة عن استمرار التحالف، وتارة أخرى على إبقاء الصداقة، ومرة ثالثة طلب تعيينه حاكما لبوندو، ورغم أن كل هذه المحاولات قد باءت بالفشل إلا أن الشيخ الأمين لم يحاول استعداء الفرنسيين لأنه يحاول بناء الدولة أساسا من الداخل بعد ازدياد عدد الأتباع، وبعد أن يكون جيشه الأساسي قد قام بحملة ضد الفرنسيين أنفسهم، وكان جيشه حسب تقديرات الفرنسيين قد وصل في شمال بوندو حوالي سبعة آلاف مقاتل من بين السراكولا والفولبى والتورودوب من بوندا وفوتاتور [1].

لكن فرنسا بدأت مرحلة جديدة سادها الشك في تصرفات الأمين، وخشيت أن يزداد نفوذه فيصبح كقطعة النار التي أهمل إطفاؤها فصارت بداية شعلة يصعب إطفاؤها أو القضاء عليها. ومن هنا بدأت سياسة فرنسا العدائية نحو الشيخ الأمين، تلك السياسة التي ستكون بداية النهاية لدولة

الشيخ محمد الأمين.

وفي بداية الأمر قام الشيخ الأمين الذي أعلن أنه خليفة الحاج عمر بطلب دعم وتأييد من القوى المحلية، وأخذ يغير من خططه، فقام باحتلال القرى حول المركز الفرنسي في باكل، كما قام بحرق القرى التي توالي الفرنسيين ليكونوا عبرة لجيرانهم، وإلى جانب هذا فقد قضى على قوة فرنسية بقيادة جولي، وحاصر مدينة باكل [2].

أرسل الأمين مبعوثين إلى كل القرى المجاورة لكي يحثهم على التحرك ضد الفرنسيين، وكان يرسل إليهم بصفة مستمرة كل خططه الحربية، وأنباء انتصاراته مؤكدا أنه لن يتوقف عن الجهاد إلا بعد القضاء على الوجود الفرنسي في بلاده [1].

وبينما كان الأمين يواصل حملاته ضد الوثنيين، وضد بعض القرى التابعة للفرنسيين أغارت القوات الفرنسية على قريته جونديورو بقيادة الكابتن فيرات (Ferrat)، والضابط رودوت (Rodot)، وذلك في 13 مارس 1886، وقبض الفرنسيون على أسرته وأخذوها إلى مادينا (Madina). وكان من بين الأسرى زوجته موسو التي رافقته في رحلة الحج إلى مكة. وقد عامل الفرنسيون أسرة الشيخ بالرفق واللين [2].

وكان رد الأمين على هذه الاستفزازات الفرنسية أن قام في أبريل من العام نفسه باحتلال منطقة جوى (Guoy)، وكثف هجماته على المراكز الفرنسية في المنطقة [3].

من هنا صار موقف الفرنسيين صعبا، وأصبح من الواضح أنهم لن يستطيعوا الحفاظ على أوضاعهم في سانجامبيا إلا بعد القضاء على الشيخ الأمين الذي أعلن صراحة أنه عدو الفرنسيين، وأنه يخطط للقضاء عليهم. وعلى هذا ستكون المواجهة العسكرية هي الفيصل في ذلك الصراع الدائر بين جماعات المسلمين والقوات الفرنسية التي ترغب في تثبيت نفوذها في هذه المناطق. وإذا ما استعرضنا قوة الجانبين المتحاربين نجد أن جيش الشيخ الأمين يتكون أساسا من مجموعة المتطوعين المدنيين والأتباع المخلصين الذين توافدوا عليه من مختلف أقاليم الدولة، ولذا فإن قوة الجيش لا تكمن في القوات النظامية بقدر هذه الأعداد من المتطوعين الذين وهبوا حياتهم ودماءهم رخيصة لنجدة الإسلام والمسلمين.

يضاف إلى ذلك أن الشيخ الأمين قد استفاد من بعض الأفارقة الذين كانوا يعملون مع الفرنسيين إما كبحارة وإما كجنود، أو يقودون السيارات وغيرها. وكان انضمام هذه الفئات إلى جانب صفوف الأمين قد سهّل له معرفة الكثير عن خطط العدو وتكتيكاته العسكرية. ولعل سر انضمام هذه الجماعات هو الحفاظ على قوميتهم وثقافتهم ودينهم الإسلامي، ورغبة في مقاومة قوى البغي والعدوان على أمل الشهادة في سبيل نصرة الدين وإحياء رايات الإسلام التي ستتعرض لتلك الموجة الصليبية على أرض القارة الأفريقية.

لم يعرف جيش الأمين التنظيم أو التجنيد الإجباري، بل كان كل قادر على العمل من الرجال يستطيع الانضمام إلى الجيش، ولم يعرف تنظيم الأمين التجنيد كحرفة، ولم يمارس هو أو رجاله الحرب في جيش على النظام الأوروبي. يضاف إلى ذلك أن كميات الأسلحة لديه كانت محدودة، ولم يكن من السهل الحصول على السلاح من التجار الذين يعملون في مدينة سانت لويس، ويقال إنه كان يحصل على بعض الأسلحة من المصانع البريطانية في جامبيا عن طريق بعض العناصر الوطنية من السراكولا في المستعمرة [1].

هذه صورة عامة وبسيطة لجيش إسلامي فرض عليه القتال أمام جيوش أوروبية مسلحة بأحدث ما وصل إليه العلم الحديث من وسائل الحرب. فلقد كان الجيش الفرنسي يضم ضباطا من البحرية، ومن القوة الدائمة للجنرال لويس فيدهرب والتي كانت قد تعودت على هذه الظروف المحلية، وتأقلمت على الجو هناك، هذا بالإضافة إلى القوات الوطنية والمحلية التي دخلت في تحالف مع الفرنسيين ضد المسلمين حيث كان الأمين لا يحارب الفرنسيين فحسب، بل كان يحارب أيضا القوى الوطنية التي كانت تخشى نفوذه وسيطرته، فراحت تتحالف ضده، وتحارب إلى جانب أعداء الدين، وترفض السماح له بالمرور بأراضيها لغزو بلاد الأوثان. ولعل هذا التحالف الوطني مع الفرنسيين كان سببا في معرفة الكثير عن المنطقة، والصمود طويلا أمام جيش المسلمين. وهذه نكسة من النكسات التي حفت بالمسلمين في هذه المنطقة، والتي تحتاج إلى تكاتف كل الجهود من أجل الوقوف ضد المسيحيين الذين كانوا يهدفون إلى هدم الحضارة الإسلامية. من أجل كل

هذا كانت حروب الشيخ الأمين تنتهي في صالح الفرنسيين بسبب ما يلقونه من دعم بشري من سكان المنطقة. ولم يحقق الشيخ انتصاراته إلا في حاله الهجوم المفاجئ الخاطف. وفي بعض الأحيان اتخذ الصراع شكل حرب أهلية لأن معظم قوات الجانبين كانت من الأهالي في المنطقة.

ومع بداية الصراع، والدخول في مواجهة مع الفرنسيين، بدأت فرنسا تدعم وجودها في مراكزها في وادي السنغال، وخصوصا في منطقة باكل التي تعرضت مرارا لهجمات الشيخ الأمين.

حاولت فرنسا أيضا الاستفادة من الأمير عبد البابكر (Abdul Bubakar) وذلك بتحريضه على القيام بعمل عسكري ضد الأمين، وبدأت المناوشات الأولى في 14 مارس في منطقة كونجويل (Kounguel)، واستطاعت قوات الأمين شن حملات على منطقة بوندو، واستولت على بعض القرى هناك. وهاجم الأمين بجيش بلغ عدد أفراده حوالي أربعة آلاف مجاهد، لكنه سحب حوالي ألف وخمسمائة منهم لمواجهة القوات الفرنسية في باكل. ونجح الأمين في الوصول إلى كونجويل التي تبعد حوالي ستة كيلومترات عن باكل التي وصل إليها الفرنسيون بعد استيلائهم على مدينة جونديورو، ووصل الشيخ بقواته في وقت مناسب بعد أن وصلته تقارير المخابرات والجواسيس عن خطط الفرنسيين وتحركاتهم. واتهم الفرنسيون المترجم ألفا سيجا (Alpha Sega) الذي كان يتعاون مع الأمين، وكان يزوده باستمرار بخطط الفرنسيين، كما عين مرشدين غير حقيقيين لتضليل القوات الفرنسية عن الأهداف التي يريدون ضربها لدى السراكولا. وعندما اكتشف الفرنسيون هذه الحقائق أطلقوا النار عليه في ميدان عام في السادس من أبريل 1886[1].

وفي معركة كونجويل بلغت قوات الأمين 1500 رجل بينما كانت القوات الفرنسية حوالي 6000 مقاتل، وهاجم الأمين الفرنسيين وأخذهم على غرة واقترب من مكان المعركة حتى صار على بعد أربعين ياردة قبل أن يدركه الفرنسيون ودخل في مواجهة معهم. ودارت معركة بدأت في الخامسة صباحا. وعلى مدى أربع ساعات من المواجهة العسكرية والالتحام المباشر بين الأمين وأعدائه استطاع المسلمون الإجهاز على قوات المشركين ومن يساندها، ولم تستطع القوات الفرنسية أن تفعل شيئا أكثر من الهروب

بأرواحها مخلفة وراءها الأسلاب والقتلى والجرحى، ولم يتحسن الموقف لصالحهم حتى بعد انضمام الكابتن لي فرانك (Le Franc). ولقد فقد الفرنسيون كميات كبيرة من الأسلحة والذخائر بالإضافة إلى أحد المدافع وقاربين، وقتل منهم حوالي عشرة جنود وجرح ستة وثلاثون. وقطع رجال الأمين خطوط التلغراف بين باكل وماتام (Matam)، وحاصرت قوات الأمين باكل ذاتها [2].

وبالطبع استفاد الأمين من هذا الانتصار في كونجويل (Kounguel) حيث تضاعف عدد أتباعه وتزايد إقبال الناس عليه كلما تطايرت أخبار النصر على الفرنسيين. وظل الأمين طوال شهر مارس يعمل على تدعيم قواته، وتجميع معداته حول باكل التي فرض عليها الحصار، وقرر الاستيلاء عليها. وإزاء هذا الموقف المتأزم وتلك الكارثة التي حلت بالفرنسيين اضطر فري إلى التعامل مع هذا الموقف العنيد، فأوقف العمليات العسكرية ضد مجاهد آخر يدعى ساموري توري حتى يتفرغ لقتال الأمين. وفعلا تحولت القوات الفرنسية من جبهة ساموري الإسلامية إلى جبهة أخرى إسلامية هي جبهة الشيخ الأمين. ولو كان هناك تنسيق بين قوات المسلمين في غرب أفريقيا لأربكت هذه القوى جهود الفرنسيين، وقضت على سيطرتهم، لكن عدم التنسيق جعل الفرنسيين يوقفون القتال على جبهة للقضاء على جبهة أخرى، ثم يعودون إلى الجبهة السابقة، وبالتالي نجح الفرنسيون في القضاء على الزعامات الإسلامية الواحدة تلو الأخرى.

معركة باكل:

بعد أن جمع فري قواته بدأت معركة باكل في أواخر أبريل 1886 بالتحام مع قوات الشيخ الأمين عند قرية جورى مبال (Guery Mpale) في المناطق المجاورة لباكل، وتمكن الفرنسيون من إنزال الهزيمة بقوات الشيخ الأمين، لكن سكان القرى المجاورة، وخصوصا سكان قرية مودي نكاني، تحركوا نحو قوات الأمين وانضموا إليه، وبالتالي بدأ الشيخ يعيد تنظيم قواته التي قسمها إلى ثلاث مجموعات وتولى القيادة العليا بنفسه. وعلى بعد ثلاثة كيلومترات من باكل جمع الشيخ قواته في تابو (Tuabo)، وتقدم بها نحو القوات الفرنسية، واستطاعت هذه القوات الإسلامية إلحاق الهزيمة

بالفرنسيين، ودخل الشيخ الأمين باكل، وصارت المواجهة بين القوات الفرنسية وقوات الأمين بمثابة حرب أهلية حيث دار القتال من شارع إلى شارع، وصار من الصعب التمييز بين قوات الجانبين وسط تلك الفوضى وهذه الاضطرابات التي لم تشهدها المدينة من قبل، فمات عدد كبير من كلا الجانبين، وفي النهاية اضطر الأمين إلى سحب قواته خارج المدينة.

وطبقا للتقارير الفرنسية عن الموقف داخل مدينة باكل فقد الأمين ما لا يقل عن 300 قتيل، كما فقد الفرنسيون 25 قتيلا، و100 جريح. ومن الصعب الأخذ بصحة هذا التقرير لأن الجانبين التحما وصار من الصعب تحديد هوية المتحاربين، أو الجهات التي يحاربون من أجلها. وبعد أن انسحب الأمين بقواته خارج المدينة استقر في تابو وبعض القرى المجاورة حول باكل، ونجح في إغلاق الطرق المؤدية إلى المدينة بالإضافة إلى تحطيم خطوط التلغراف بين باكل وكايز[1].

بعد المعركة خشيت القوات الفرنسية أن يعاود الأمين الهجوم من جديد لذا فإنهم أعادوا تنظيم قواتهم الدفاعية، كما طالب فري بضم القوات التي كانت تحارب ضد الإمام ساموري، وأعلن حالة الطوارئ، وتولى بنفسه قيادة العمليات العسكرية. لكن الأمين لم يعاود الهجوم كما توقع الفرنسيون لأنه أدرك عدم جدوى تحقيق النصر على تلك القوات النظامية التي تحمل أسلحة متطورة، وبدأ الشيخ الأمين ينتهج أسلوب حرب العصابات على نطاق واسع ضد الوجود الفرنسي، وضد مواقع الفرنسيين، ووسع نطاق الهجوم على كل من باكل وكايز. ولما اشتدت هجمات الأمين الخاطفة على باكل قرر فري القيام بحملة ضد هذا الشيخ في جيوديماكا [2].

بدأت هذه الحرب الشاملة بمنتصف أبريل 1886، واستمرت حتى يوم 24 مايو دون أن يحقق أحد الطرفين نصرا على الآخر. وعانت القوات الفرنسية كثيرا لأنها عجزت عن التكيف مع الأوضاع المناخية السائدة، كما أنها لم تستطع مجاراة حرب العصابات التي أعلنها الأمين عليها، ونجح فيها إلى حد كبير، وكلما مرت الأيام ازداد يأس الفرنسيين، وازداد ضيق فري، وأخيرا اتبع القائد الفرنسي سياسة الحرق والإبادة، وكان رد الأمين عليه بالأسلوب نفسه حيث حرق مراكزهم في سونوديبو، وكان واضحا أن استخدام هذا الأسلوب من الحرق والإبادة مدمر وفتاك، وبسرعة حذر

حاكم السنغال الفرنسي القائد فري من استخدام هذا الأسلوب الوحشي المدمر.[3]

ومع حلول شهر يونيه أصبح واضحا أن الفرنسيين قد فقدوا السيطرة على الموقف تماما، حيث لم يبق من قوة المشاة البالغ عددها مائة رجل سوى أربعة رجال، كما أمكن تدمير كل المدافع، وعلاوة على ذلك فإن قوة الاستطلاع البالغة ألف رجل لم يصل منها سوى النصف فقط، أما بقية هذه القوة فقد ضاعت ما بين قتيل أو جريح [1].

وظهرت قوة الأمين من خلال الاشتباكات، ومن خلال أسلوب حرب العصابات التي دوّخت الفرنسيين، وألحقت بهم الهزائم المتتالية. وكان الحماس الديني يدفع الرجال نحو الحرب بكل عزم وقوة على أساس أنهم يدافعون عن قوميتهم التي انهارت، وعن وطنهم الذي يتعرض للغزو الفرنسي، وعن دينهم الذي بدأ الأوروبيون يدنسونه. وأمام عنف المقاومة الإسلامية اضطر الفرنسيون إلى الانسحاب في الفترة من يونيه حتى أكتوبر مخلفين وراءهم الدمار والخراب.

وطوال هذه الفترة صار الأمين حرا، وابتعد عن الأخطار التي تهدد كيان دولته، فاستغل هذه الفترة في استرداد الأراضي التي فقدها أثناء الصراع مع الفرنسيين، كما نظم قواته من جديد، وأقام مركزا في مدينة ديانا (Diana) في منطقة أعالي جامبيا. ومن هذا المركز الجديد بدأ الشيخ يرسل التلاميذ والطلاب إلى مختلف المناطق المجاورة لنشر الدعوة الإسلامية، وتحويل السكان الوثنيين إلى الدين الحنيف، وقبل سكان مدن بادون (Badon)، ونيوكولو (Niocolo) الدعوة، وامتد نفوذ الشيخ حتى منطقة باماكو التي قبلت الدخول في دعوته.

وفي شهر يونيه هاجم الشيخ الأمين المركز الفرنسي في سونوديبو وأحرقه، وتوجه بعد ذلك بقوة تبلغ ثلاثة آلاف مقاتل نحو بوندو حيث دخل عاصمتها وقتل إمامها الذي وقف له بالمرصاد منذ إعلانه الجهاد، وبمقتل عمر سعدا عدوه اللدود يكون الشيخ قد حقق نصرا كبيرا على هذا الرجل الذي طالما تحالف مع الفرنسيين ضده، وطالما عرقل تحركاته داخل بوندو، وضيّع عليه فرصة الوصول إلى جامون، وتحويل سكانها الوثنيين إلى الدين الإسلامي. وكل هذا يوضح بكل جلاء اتساع نفوذ الأمين خلال الشهور التي

انسحب فيها الفرنسيون، وكانت هذه فرصة لتصفية حساباته القديمة، وتحقيق الأحلام التي عجز عن تحقيقها في ظل التحالف بين الفرنسيين والقوى المحلية، وتوسع الشيخ في منطقة سانجامبيا ووسع من إمبراطوريته[1].

لما ضعف مركز الفرنسيين قررت الحكومة الفرنسية اتخاذ الإجراءات الكفيلة بحماية مصالحها وتجارتها في منطقة سانجامبيا، ووجدت أنه لا بد من التعامل مع الشيخ الأمين بطريقة أكثر إيجابية. فعينت الكولونيل جاليني قائدا أعلى للقوات الفرنسية محل فري. ووصل جالينى إلى كايز (Kayes) في أكتوير عام 1886 ليبدأ مهام منصبه الجديد، وليحقق هدف الفرنسيين الأكبر في القضاء على الشيخ الأمين [2].

كان جالينى قد خطط لهزيمة الأمين وقواته باستخدام الوسائل الدبلوماسية والعسكرية. ومن ثم كانت خطة جالينى الاستعانة بقوات السلطان أحمدو شيخو لمحاربة الأمين، ونجح جالينى في هذه الخطة الماكرة باستخدام قوات المسلمين ضد بعضهم البعض، وبالفعل بدأت حملات السلطان أحمدو ضد الشيخ الأمين وابنه سويبو (Soybou). وكان من الأجدر بالسلطان أحمدو أن يتحالف مع الأمين قائد المسلمين لطرد المسيحيين من ديار المؤمنين. وهكذا نجد أن أسلوب الفرنسيين بالاستعانة بالقوى الوطنية كان من أسباب القضاء على المقاومة الإسلامية [3].

وفي أواخر فبراير عام 1887 استطاعت قوات الشيخ أحمدو محاصرة مدينة جورى حيث كان سويبو بن الشيخ الأمين يقوم بعملياته العسكرية، وتمكنت قوات أحمدو من هزيمة قوات سويبو في أبريل 1887، وبهذه الطريقة من حصار المسلمين التابعين للشيخ الأمين بقوات وطنية تابعة للشيخ أحمدو استطاع جالينى أن يغير الموقف لصالح الفرنسيين. وبعد أن هيأ جالينى الموقف لصالحه بضرب المسلمين بعضهم ببعض قام جالينى بإنشاء مركز له في أروندو (Arondu) عند التقاء نهر السنغال مع نهر فاليم [1] (Faleme). كما أقام حاجزا من المراكز الفرنسية على طول نهر السنغال، وذلك لكي يمنع شعب السراكولا من الانضمام إلى جيش الشيخ الأمين في سانجامبيا. وبهذه الطريقة نجح جالينى في تقسيم قوات الشيخ الأمين إلى قسمين كل منهما محاصر بقوات مشتركة من الفرنسيين وقوات الشيخ أحمدو التي

أحست أن الأمين خطر عليها قبل أن يكون خطرا على الفرنسيين، ومن هنا جاء سر تحالف أحمدو مع الفرنسيين ضده.

كانت هذه الخطة الفرنسية في تجزئة جيش الشيخ الأمين وفصل قواته وإقامة مراكز حصينة تمنع التحام جيش الأمين ببقية قواته، وفي الوقت نفسه استخدام جيش وطني قوي هو جيش الشيخ أحمدو، كل هذا كان من العوامل التي ساعدت عل ضعف قدرات هذا المناضل القومي الإسلامي، فبعد ثلاثة أشهر من النضال والكفاح، ووسط هذه الظروف الصعبة اضطر ابنه إلى الاستسلام في مدينة جورى بعد أن حاول الانضمام إلى جيش والده الرئيس في ديانا، ولكن قبض عليه أثناء عبور النهر عند قرية ديكوكوري (Dikokori) على بعد مسافة قصيرة من معسكر القائد الفرنسي جالينى في أروندو، وتمت محاكمة هذا البطل سويبو وأعدمه الفرنسيون، فكان إعدامه واستسلامه ضربة كبرى للمقاومة الإسلامية التي يقودها الشيخ محمد الأمين [2].

لقد كانت عملية القضاء على سويبو بالتعاون مع قوات التوكولور ذات أهمية كبرى للفرنسيين حيث أعطتهم هذه العملية حرية التركيز على الحملات في سانجامبيا، في الوقت الذي كان الشيخ محمد الأمين يقيم في قواعده في ديانا في أعالي نهر جامبيا.

رابعا: القضاء على مقاومة الأمين:

قرر جالينى في ديسمبر عام 1886 القيام بحملة ضد الأمين. وبدأ من قاعدته في أروندو (Arondu) ينظم قواته في ثلاث فرق تحركت اثنتان منها مباشرة إلى قواعد الأمين في ديانا. وكان جالينى قائدا لإحدى هاتين الفرقتين. أما الفرقة الثالثة فكانت مهمتها حفظ الشؤون الأمنية في القاعدة بعد رحيل الفرقتين. وفي الثاني عشر من ديسمبر 1886 تحركت الفرقتان إلى ديانا والتحمت إحدى هاتين الفرقتين مع قوات الشيخ الأمين في معركة ساروندیان (Saroundian)، ولكن قبل أن يصل الفرنسيون إلى ديانا كان الشيخ الأمين قد أجلى قواته عنها. ورغم هذا فقد أطلق جالينى النار على المدينة، وأشعل فيها النيران، وانسحب الشيخ الأمين إلى أعماق جامبيا، وعادت القوات الفرنسية إلى قواعدها في يناير 1887 [1].

ومن الواضح أن جالينى قد كسب المعركة لكنه لم يتخلص من الشيخ الأمين الذي لا يزال يسيطر على قوة كبيرة في سانجامبيا خصوصا وأنه انتهز فرصة الجو الحار في يونيه ويوليه وأغسطس فأعاد تنظيم قواته لكي يواصل القتال ضد الفرنسيين، وصار لدى الشيخ جيش مكون من ثلاثة آلاف مقاتل [2].

وعندما عاد جالينى إلى قواعده في كايز انتهز الأمين الفرصة واستعاد الأرض التي ضاعت منه، وجند رجالا آخرين للوقوف أمام الفرنسيين، ولذا فإنه بدأ بتوسيع نفوذه، واضطر جالينى مرة ثانية إلى إعداد حملات ضد الشيخ الأمين الذي كان يتجنب اللقاء المباشر معتمدا كل الاعتماد على حرب العصابات. تلك الحرب التي أجبرت الفرنسيين على الاستعانة بمتطوعين من مختلف الأقاليم. وعن طريق استخدام هذه القوات مع تركيز الحملات المباشرة ضد أتباعه نجحت القوات الفرنسية في القضاء على الأمين في ديسمبر عام 1887.

ففي هذا الشهر كانت المعركة الأخيرة في توباكوتا (Tubakouta)، ودافع الأمين بكل ما أوتي من قوة، واستبسل في الدفاع عن حصونه ومواقعه، وصمد حتى النهاية رغم إغراء الفرنسيين إياه. وأخيرا انسحب مع بعض قواته، بعد أن تخلى عدد كبير من الاتباع عنه، واستقر في مدينة تمبكت، ورفض جالينى الطلب الفرنسي بالتفاوض معه في يوليه عام 1887. وأرسل إليه قوة بقيادة الكابتن فورتن (Forten). هاجمت القوات الفرنسية تمبكت، لكن تمكن الشيخ من الهرب، فتعقبه الفرنسيون وهزموه في نجوجو سوكوتا (Ngogo-Soukota)، وجرح الأمين في فخذه بعد الهجوم العسكري عليه في التاسع من ديسمبر، وأخذ أسيرا لكنه مات في الطريق إلى تمبكت في 12 ديسمبر 1887. وقطعت رأسه وأرسلت إلى الكابتن فورتن لإثبات أنه مات[1].

وهكذا كانت هزيمة الشيخ الأمين ونهايته بهذا الشكل البطولي بعد أن أدى الواجب، وحمل الأمانة، وجاهد في سبيل الله طوال عامين أو يزيد، ووقف أمام الفرنسيين بكل قواهم، ورغم أنه مات في سبيل دعوته إلا أن وفاته لم تكن نهاية المطاف، فحركات الجهاد والتحرر استمرت، والمقاومة اشتدت في مناطق أخرى من غرب أفريقيا، لكن الجديد في جهاد الشيخ محمد الأمين أنه جهاد كان قصير الأمد. جهاد كان ضد الوثنيين،

والمسيحيين، بل ضد المسلمين الذين ساندهم الفرنسيون، أي أنه جهاد متعدد الجوانب وضد أكثر من قوة، ولو وقف الفرنسيون وحدهم من دون الاستعانة بالقوى الوطنية وبالمتطوعين الأفارقة، لاستطاع الحاج الأمين أن يحقق المزيد من الانتصارات خصوصا وأن روح رجاله المعنوية كانت عالية، وكان الأمل يحدوهم في إعادة بناء مجد السراكولا القديم، والاستشهاد في سبيل الله والوطن. إن حرب العصابات التي خاضها ضد الفرنسيين لعمل جليل وأسلوب على مستوى راق من التخطيط والدبلوماسية كلف فرنسا الكثير وجعلها توقف القتال في ميادين أخرى حتى تتفرغ لهذا العدو اللدود، وحتى بعد وصول قواتها، من حرب ساموري، عجز الفرنسيون عن إيقاف نشاط الرجل، ولم تحقق فرنسا انتصاراتها عليه بالرغم من التفوق العسكري والتنظيم الحربي إلا بعد الاستعانة بأقوى قوة إسلامية في المنطقة ألا وهي قوة التوكولور والشيخ أحمدو، تلك القوة التي هزمت ابنه سويبو، وعزلت الرجل عن بقية قواته لدى ابنه، ناهيك عن استخدام أشد وسائل العنف والقمع والحرق والإبادة. كما أننا لا يمكن أن ننسى الدور الذي لعبه المتطوعون الوطنيون الذين كانوا يمدون الفرنسيين بكل المعلومات عن الشيخ محمد الأمين.

تكشف هذه المقاومة الإسلامية للشيخ الأمين نمطا من أنماط مقاومة المسلمين للاستعمار الأوروبي، ورغم قصر مدة المقاومة إلا أن الأحداث التي دارت خلال هذه الفترة القصيرة كانت فعالة ومؤثرة، بل مدمرة لقوة الفرنسيين، كما أن الشيخ أذاق الوثنيين الهوان ولم تلن عزيمته رغم حقد الحاقدين، وعرقلة الحكام الوطنيين لحملاته على جامون، ولم يسكت على هؤلاء الأعداء إلا بعد أن هزمهم وقتل عدوه عمر سعدا ذلك الرجل الذي تواطأ مع العدو ضد المسلمين، ووقف له بالمرصاد في كل المحاولات التي سعى إليها للمرور بأرضه،-

بل اعتدى على قواته أثناء مرورها، ومع كل هذا لم يتوقف عن جهاده حتى حقق كل ما يريد. ولولا التآمر ضده من كل القوى لكانت حركته أكثر فاعلية ولامتد بها الزمان. ويكفى هذا الرجل أنه رغم كل هذه المعوقات صمد حتى سقط صريعا على أرض المعركة ليسجل صورة أخرى من صور الجهاد الإسلامي ضد قوى البغي والتوسع الأوروبي.

لم يكن موت هؤلاء الزعماء المسلمين نهاية المطاف بالنسبة للاستعمار الأوروبي، فلقد ظلت الروح الوطنية تستلهم من هذه الشخصيات مثلها، ولم يتوقف النضال الوطني بين المسلمين حتى حمل المستعمر عصاه ورحل في النصف الثاني من القرن العشرين. وتلك واحدة من حركات المقاومة الإسلامية ضد الاستعمار الأوروبي إبان عصر الإمبريالية والتوسع في القارة.

4

المسلون والغزو الأوروبي لإمبراطورية ساموري توري

يعتبر ساموري توري من الزعماء الأفارقة الذين لعبوا دورا هاما في القارة الأفريقية قبل الاستعمار الأوروبي لأنه يجسد البطولة والمقاومة ضد الغزاة الأوروبيين، ولأنه استمر في مقاومة الغزاة الأوروبيين حوالي سبعة عشر عاما بدءا من عام 1881 حتى القبض عليه عام 1898، وبعد أن كان قد أسس دولة إسلامية في منطقة أعالي النيجر[1].

ولقد تصادف قيام جهاد ساموري توري مع ظهور البحرية الفرنسية، واستكمال سلاح المشاة بشكل جعله فعالا وصالحا للحروب في المستعمرات، وصار هذا السلاح من أحدث وسائل الغزو التي استخدمتها الدول الأوروبية، ورغم أن ساموري شن حرب جهاد في المنطقة كالحاج عمر الفوتي التكروري وابنه أحمدو.

لقد كانت لديه القدرة على الرؤية بوضوح، والتجاوب بفاعلية مع الظروف المتغيرة، وكانت رسالته الكبرى في الحياة هي الدفاع عن إمبراطورية كانت إلى حد كبير نتيجة جهوده الشخصية، قامت من أجل نشر الدين الإسلامي في

غرب أفريقيا ولمواجهة التوسع الاستعماري، ومقاومة التوغل المسيحي في القارة [2].

وسوف نتتبع سيرة هذا الزعيم الأفريقي منذ نشأة دولته، وعلاقاته بالدول الأخرى، ثم أسس بناء دولته، والدور الذي قام به في مقاومة التوسع الفرنسي في المنطقة حتى القضاء عليه في عام 189.

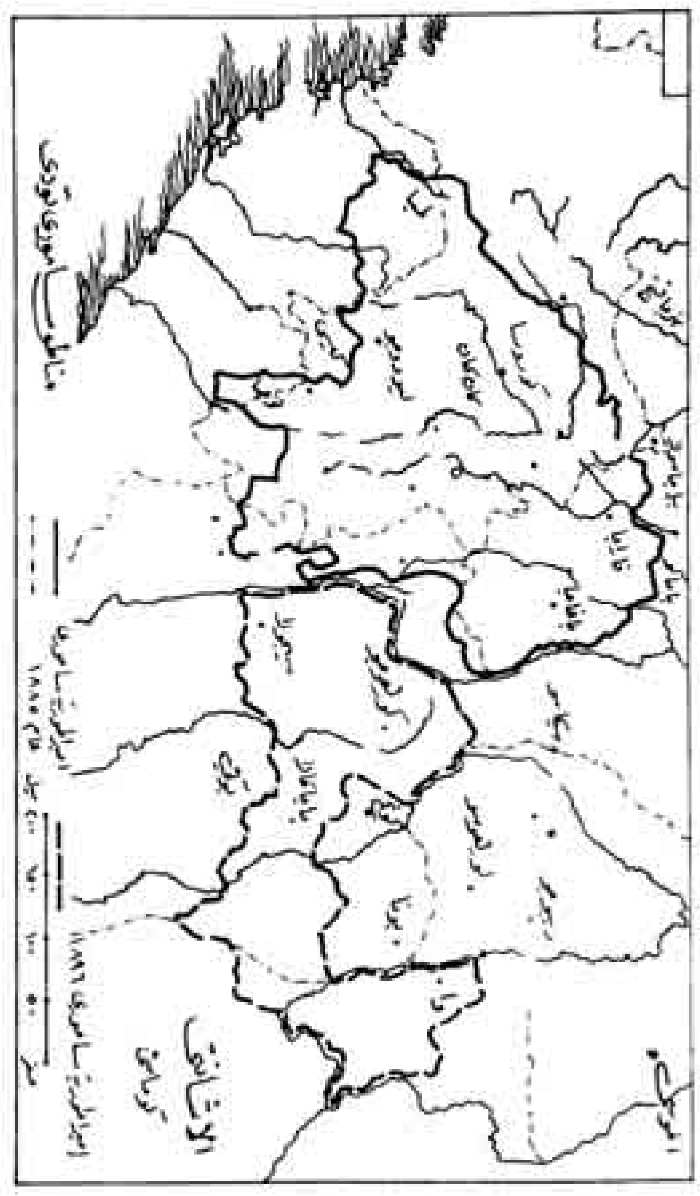
أولا: نشأة ساموري وقيام الدولة

ولد الزعيم ساموري توري في عام 1835 في سانكورو بالقرب من بيساندوجو في غينيا الفرنسية، أي في وادي ميلو على الحد الشمالي لكونيا (Konya)، وهى منطقة من الأرض الجبلية والهضاب المرتفعة في شمال المرتفعات الغينية المشهورة [1].

وكان والده يعمل مزارعا ويربى الماشية بين شعب المالنكي من المسلمين، لكن تطبيق الشريعة الإسلامية لم يكن قويا إلا بين جماعات الديولا (Dyula) الذين كانوا يعملون بالتجارة. ورغم أن والده لافيا مزارع إلا أنه كان ينتمي إلى طبقة التجار المسلمين. وكانت جماعات التوري تعيش أصلا حول مدينة جنى في قلب إمبراطورية مالي الإسلامية. وفي القرن الخامس عشر حدّت إمبراطورية صنغي محل مالي فترك التوري مدينة جنى ومعهم أجداد لافيا إلى أعالي نهر النيجر[2].

وتزوج رجال التوري من بنات المالنكى المحليين، واستقروا فترة من الزمان للعمل في المزارع. وكان والد ساموري قد تزوج من امرأة تدعى ماسورونا، والتي تنتمي إلى عشيرة المالنكى المحلية، والتي أطلقت على نفسها الكامارا (Kamra). وكان ساموري هو النجل الأكبر للافيا وماسورونا. وهكذا نجد أن ساموري ينتمي إلى مجتمع الديولا التجاري، ولذا لم تختلف نشأة ساموري عن بقية أبناء الديولا، فلقد قضى السنوات الأولى من حياته في قرية والده. ولما بلغ سن السابعة ذهب للعيش مع خالته وزوجها على بعد عشرين ميلا في إحدى القرى المجاورة، وعاش هناك فترة يعمل في الزراعة وتربية الماشية وعاد ساموري بعد فترة إلى والده الذي انتهز فرصة وجود ابنه ساموري معه، وقام بتدريبه على أصول الزراعة والتجارة، لكن ساموري كان يفكر في حرفة أخرى بعيدا عن الزراعة، ولذا فإنه عندما بلغ سن الثامنة

عشرة طلب من والده السماح له بالعمل في التجارة مع الديولا [1].



شكل رقم (9)

أرسل لافيا ابنه ساموري إلى أحد أصدقائه الذي بدأ يدربه على تجارة السلاح والبارود، وأخذ ساموري يتكيف مع التجارة، وسافر إلى ساحل غرب أفريقيا في الماشية والكولا والعاج، بل وصل إلى فريتون لكي يجلب السلاح والرقيق كبقية تجار عصره. واشتهر ساموري بين تجار الديولا، وعرف أماكن الحصول على السلاح عندما بدأ يفكر في بناء إمبراطوريته[2].

وفي تلك المرحلة من حياته اعتنق ساموري الدين الإسلامي والتزم بتعاليم الدين الحنيف، وعرف الكثير عن الجهاد الإسلامي الذي دار في المناطق المجاورة، وممكن أن نقسم حياة هذا المجاهد العظيم إلى مراحل ثلاث. في المرحلة الأولى (1835- 1852) قضى ساموري وقته في الدراسة وممارسة حرفة التجارة، وخلال هذه الفترة أيضا سافر إلى مناطق كثيرة من السودان الغربي فازدادت مداركه، واتسعت معلوماته عن المنطقة المجاورة وصارت لديه خبرة بأحوال الناس وحرفهم.

وأما المرحلة الثانية فتبدأ في عام 1852 عندما حمل إليه أحد الأصدقاء أنباء تفيد أن قوات سوري بيراما ملك بيساندوجو قد أغارت على سياننكورو، وعلم أن والدته ماسورونا قد أخذت أسيرة أثناء الحملة على وادي ميلو، وعند سماع الخبر أخذ يفكر في أفضل الطرائق لإنقاذ والدته من الأسر، وبعد تدبر وتفكر قرر الذهاب إلى الملك سوري بيراما ليعرض خدماته نحوه مقابل الإفراج عن والدته. وقبل الملك عرض ساموري على أن يعمل في جيشه مدة سبع سنوات.

وكانت هذه الفترة من أمتع فترات حياة ساموري حيث صار قائدا شعبيا، وتدرب على فن قيادة جماعات الإغارة على القبائل الأخرى، وتعلم كيف يتفاوض مع أعدائه بأسلوب دبلوماسي. وبعد فترة من الزمان أحس بضرورة الاستقلال عن سيده خصوصا عندما كوّن من أفراد عائلته نوابا له، فاضطر إلى الهرب في عام 1861، وترك كل ممتلكاته واتجه إلى جبال جيب. [1].

وتنتهي المرحلة الثانية في عام 1882 وفيها تكتمل شخصية هذا الزعيم بعد أن انشغل في أعمال ضخمة، وجمع حوله عددا كبيراً من الشباب الذين وجدوا فيه قائدا يمكن أن يجمع شملهم في دولة إسلامية مجاهدة ضد ما حولها من الوثنيين [2].

وأما المرحلة الأخيرة من حياته (1882- 1898) فهي مرحلة البناء والتوسع وبناء الدولة الإسلامية، ومقاومة التوسع الأوروبي الفرنسي الذي حاول القضاء على الإمبراطورية التي قضى حياته في بنائها. ولذا نجد أن هذه الفترة مليئة بالبطولات والأحداث الجسام في حياة هذا المجاهد الإسلامي في سبيل الدين والوطن ضد الغزو الأوروبي الذي يسعى لتدمير الحضارة الإسلامية تحت شعار إدخال الحضارة الأوروبية، وتمدين الأفارقة، وقبل أن يعلن ساموري توري عن قيام دولته كانت أحوال المسلمين في تلك المنطقة تتمثل في حملات الجهاد ضد الوثنيين. وفي مدينة كان كان (Kan Kan) بدأ أحد المرابطين ويدعى موري يولي سيس (Mori Ule Sise) الجهاد المقدس مع جماعات الماندنج (Manding) في فوتاجالون. ولما أحس موري يولي سيس أن مدينة كان كان غير مستعدة لأعمال الجهاد، قرر مع جماعة من رجاله إنشاء مجتمع جديد في الصحراء الواقعة بين كونيا وتورو (Toro)، وكان ذلك في أوائل الثلاثينات من القرن التاسع عشر، واستعان موري يولي بعدد كبير من صيادي الفيلة، كما استخدم عائدات العاج لشراء الفرسان والأسلحة.[1].

ولما أحس باكتمال قوته أعلن الجهاد المقدس عام 1835، وشن الحرب على المدن المجاورة، وكوّن أول مملكة إسلامية صغيرة في هذه المنطقة بعد انهيار الممالك الكبرى مثل مالي وصنغي. وكان موري يولي يسعى للقضاء على النظام القديم لجماعات الديولا، وفرض الزكاة على أتباعه، ووجد أهل كونيا أنفسهم تحت رحمة موري يولي، ولم يكن أمامهم سوى مقاومة هذا الرجل المتعصب، ووجدوا ضالتهم المنشودة في شخصية ساموري توري الذي كان قد ترك التجارة وتزوج إحدى بنات عائلات الكامارا (Kamara) الوثنية. وقد حدث ذلك في الوقت الذي ضعفت فيه جماعات ألبرت وزادت فيه قوة جماعات السيسي (Sise)، فعرض ساموري مهاراته على أعمامه من الكامارا فوافقوا على تعيينه رئيسا عليهم، وأعطوه كل الصلاحيات لتعبئة الجيوش وتدريب الرجال. وفي عام 1861 أقسم مع ستة من الأصدقاء على العمل على قيام دولة بالقرب من ميلو. وفي خلال عشرين عاما سيطروا على إمبراطورية تبلغ 800000 كيلومتر مربع، وتضم حوالي 300000 نسمة بما في ذلك أهم مناجم الذهب ني بيوري [2].

وبسرعة امتد نفوذ ساموري وذاع صيته في المنطقة الممتدة من ميلو حتى ديون (Dyon)، وأحس أعداؤه بقوة نفوذه عندما عقد صلحا مع السيسي وعاونهم على هزيمة جماعات ألبرت في عام 1865 . ولما أحس بعجزه عن مواجهة جماعات السيري بريما (Sere Brema) فضل عدم الدخول معهم في مواجهة، وانسحب إلى أقاليم الغابات في توما (Toma) واستمر هناك حوالي عام كامل [1].

وفي عام 1870 عاد ساموري إلى الظهور من جديد لكن قواته كانت لا تزال أقل عددا من قوات أعدائه من السيسي، فنقل مقره إلى مدينة بيساندوجو (Bisanduga) في عام 1873، وأعلن العزم على حماية التجارة والطرق التجارية، فتعاطف التجار معه، ووقفوا إلى جانبه، وساعدوه على بناء إمبراطوريته الجديدة [2].

وفي عام 1874 بدأ ساموري الغزو التدريجي لكل القرى المجاورة لعاصمته. وفي العام التالي تحالف مع المسلمين في مدينة كان كان وبهذا استطاع أن يهزم جماعات السنكارا، ويتقدم نحو أعالي النيجر حيث ازدادت سيطرته على حافة فوتاجالون غربا وحتى بوري شمالا، وساعد ساموري سكان كان كان على التخلص من الحصار الوثني المضروب حولهم. وكان هذا التوسع حتى بورى قد أعطاه فرصة للسيطرة على حقول الذهب فأعانته على الحصول على الأموال اللازمة لبناء الجيش، وعاد في عام 1880 ليهاجم جماعات السيسي، ونجح في تحطيم كل القوى المنافسة له، وضم كل هذه الجماعات تحت سيطرته، وصار أكبر قائد لإمبراطورية إسلامية عرفها شعب المالنكي في الجنوب. وكان ساموري يفكر في مبدأ واحد يجمع شمل كل هذه المنطقة، ووجد أن تطبيق الشريعة الإسلامية هو أفضل السبل لحكم هذه الأقاليم من إمبراطوريته.

بعد القضاء على منافسيه من الوثنيين في كونيا العليا (Kanya) عام 1884قام الإمام ساموري بإلغاء النظام القديم للفاما [1]. واتخذ لنفسه لقب الإمام أو أمير المؤمنين، فبعد أن احتفل مع أهله في شهر رمضان جمعهم في 25 يوليه 1884، وأعلن أنه سوف يلقب نفسه من الآن بلقب الإمام، وأعلن عن أمله في أن يعتنق أهله ورعاياه الدين الإسلامي، وأن تكون أسرته قدوة في هذا المجال [2]. وفي نوفمبر من العام نفسه ألغى شرب الخمور

واستيرادها، ومنع كل العادات الوثنية وبدأ في تطبيق الشريعة الإسلامية [3].

تصادف قيام هذه الدولة الإسلامية مع خطط الفرنسيين للتوسع في السودان الغربي وهو الأمر الذي جعل من المحتم دخول هذا المجاهد الإسلامي-وهو يبنى أسس دولته على الشريعة الغراء-في صراع مع الفرنسيين، ذلك الصراع الذي سيقوض هذه الإمبراطورية الإسلامية، ولكن قبل أن ندخل في بدايات هذا الصراع وتلك المعارك الإسلامية الكبرى نجد من الضروري إعطاء فكرة عن جيش المسلمين الذي بناه هذا الإمام المسلم، وواجه به الأوروبيين حتى تكتمل صورة الجهاد المشرفة في تلك الفترة من حياة المسلمين أثناء وقوفهم أمام الغزو الأوروبي [4].

ثانيا: نظام الجيش في إمبراطورية ساموري:

لقد كان الجيش أهم عنصر في دولة ساموري، وكان قوة ردعه الفعالة ضد الوثنيين وضد الأوروبيين على حد سواء. وكان ساموري يحصل على رجاله في البداية من المتطوعين لخدمته والانضمام إلى قضيته إلى جانب الأسرى الذين كان يعتقهم ويطلق عليهم لقب الصوفيين. وكان معظم الجيش من المشاة بالإضافة إلى عدد قليل من الفرسان [1].

نشأ جيش ساموري على نفس نمط جيش جماعات السيسي، ولقد ظل فترة طويلة يسير على نهجهم. فكان يجند الرجال من كل الفئات، ولكن كانت نواة هذا الجيش تضم جماعة من المخلصين والمؤيدين له، وقد اكتسب هذا الجيش طابعا قوميا متجانسا ضم مختلف قبائل الماندنج.

واختلف هذا الجيش عن جيش المالنكى القديم في أن رجاله لم يعودوا إلى قراهم بعد كل معركة، بل ارتبطوا جميعا بشعور عميق من الولاء والصداقة، وامتد هذا الشعور إلى القيادات والحكام الذين أحسوا بنوع من الولاء نحو هذا الشعب وجيشه.

وتكون الجيش أساسا من المشاة، وانضم إليه بعض جماعات الفرسان في عام 1881 أثناء حصار مدينة كان كان، وازداد عددهم أثناء الأزمة الكبرى في عام 1888، لكن ساموري قام بإلغاء نظام الفرسان وأحل محلهم فرق المشاة المجهزة بأحدث الأسلحة الأوروبية.

كان تجنيد الرجال يتم عن طريق انضمام أبناء القرى بواقع رجل من كل عشرة رجال من القادرين على حمل السلاح. ولم تكن فترة التجنيد محددة، بل يظل المجندون في الخدمة لحين إحلال آخرين محلهم من القرى. وفي حالة وقوع حروب واسعة النطاق فإن التجنيد يتم على أساس رجل من كل اثنين من القادرين على حمل السلاح حتى تنتهي الحرب. وكان رؤساء العائلات يعفون من هذا التكليف. وكان كل حاكم يقوم باختيار الرجال من مناطق نفوذه، ومن العبيد المدربين على الحرب، وأيضا من المتطوعين من القرى. وكان هذا الجيش ينقسم إلى عشر قيادات رئيسة تحت حكامهم[2].

وفي فترة السلم كان العدد الأكبر من المقاتلين يعود إلى وطنه للعمل في جمع المحاصيل، لكن كان هؤلاء يشكلون احتياطي الجيش الذي يذهب إلى الخدمة في أي ظرف طارئ، ولقد بلغ عدد قواته حوالي 500 محارب، لكنه ازداد بعد معركة فامادو (Famadu) عام 1873، وذلك بعد انضمام رجال الطرق الصوفية والأمراء المجاورين له.

وبلغ عدد سكان الإمبراطورية في عهد ساموري حوالي مليون ونصف مليون من السكان. وإذا قدرنا أن ربع هذا العدد كان قادرا على حمل السلاح فإن هذا يعني وجود احتياطي في كل مقاطعة يقدر بحوالي 3750 رجلا عند أول نداء. وبلغ عدد قوات الجيش عند أول حملة ضد الفرنسيين عام 1885 حوالي 1500 رجل تحت قيادة ثلاثة من الرجال هم مالنكي موري (Malinke Mori)، وفابوتوري (Fabu Toure)، ونيسكا مهدى (Nassikha Mahdi) بالإضافة إلى حوالي 5000 جندي من الاحتياطي تحت قيادة الإمام ساموري توري نفسه الذي كان يتولى القيادة العامة [1].

وباختصار بلغ عدد الجيش عند ساموري ما بين ثلاثة وثلاثين ألف وخمسة وثلاثين ألف جندي أثناء حرب السيكاسو (Sikasso) في عامي 1887 و1888. ولقد أولى ساموري الجيش عناية خاصة، وزوّده بأحدث الأسلحة الأوروبية المتطورة، وذلك من عائد مبيعات الذهب والعاج، أو من حصيلة الرقيق وأسرى الحروب. وكان الجيش عدة ساموري وعتاده سواء في زمن السلم أو الحرب، حيث ارتبط الجيش بالمشروعات التوسعية وبحياة الجهاد، وحياة البناء والعمران داخل الدولة، وأخيرا للدفاع عن الإمبراطورية ضد القوى الأوروبية [2].

وكان ساموري يحتفظ بقوات خاصة لحراسته. ويشير إلى ذلك الفرنسيون الذين ذهبوا لعقد اتفاق مع ساموري في عام 1886، حيث وجدوا أن حرسه الخاص كان يضم حوالي 500 رجل، بالإضافة إلى قوة أخيه مالنكي موري التي تضم حوالي 200 من الفرسان، وخلفهم خمس مجموعات تضم كل مجموعة ماتني رجل، وهذا جنبا إلى جنب مع القوات الاحتياطية التي كانت تشترك في الحملات الكبرى [1].

ولقد تغير نمط التجنيد لدى دولة ساموري بعد معركة عام 1892، حيث اتضح أن فكرة استدعاء القوات للعمل الحربي قد أصبحت فكرة غير عملية لأن المعارك الحديثة تستوجب الإبقاء على جيش دائم يكون أكثر ترابطا وتفاعلا وتجانسا، ولذا عمد الإمام ساموري في الفترة الأخيرة من حياة إمبراطوريته إلى الإبقاء على الجيش الدائم لمواجهة التهديدات المباشرة والمستمرة من القوات الفرنسية، ولم يعد ساموري يعتمد على الفلاحين في الخدمة العسكرية، بل اكتفى بالمجندين الدائمين الذين يدربون تدريبات خاصة [2].

وبعد هذا العرض لجيش ساموري نبدأ استعراض الحرب مع الفرنسيين.

ثالثا: ساموري وبداية التهديد الفرنسي:

اعتمدت الاستراتيجية الفرنسية في غزو غرب أفريقيا والسودان الغربي على جهاز البحرية الذي أوكلت إليه مهمة حكم هذه المنطقة منذ عام 1880، ولذا بدأت العمليات العسكرية بشكل تدريجي، وكانت الحكومة الفرنسية تتحمل نفقات حملات التوسع في غرب أفريقيا، ولكن بعد عام 1885 أخذت تخفف من الاعتماد على موارد فرنسا الأم بعد أن قررت الحملات التوسع في إقليم السافانا والاتجاه من الغرب نحو نهر النيجر.

ولم يكن هدف الفرنسيين من التوجه نحو النيجر يعني الصراع أو الاحتكاك بدولة الإمام ساموري خلال الفترة من عام 1881 حتى عام 1883، وذلك لأن الفرنسيين لم يكونوا قد عرفوا الرجل بعد، وكانت أهدافهم قاصرة على إمبراطورية التوكولور [1]، وحدث أول احتكاك بين الإمام ساموري والفرنسيين بمحض الصدفة. ففي عام 1882 التقى ساموري بالضابط الفرنسي الكاميسا (Alakamessa) الذي وصل من مدينة كيتا (Kita) ليخبر

الإمام ساموري بالابتعاد عن منطقة كيني ران (Kenyeran)، وهي سوق ضخمة في وادي فاي (Fye). ونظرا لأن هذه المنطقة كانت الملاذ للهاربين من بطش ساموري، ولأنها في ذات الوقت تحمى قوات ساموري من جماعات البمبارا والماندنجو فإنه رفض الإذعان لمطالب الفرنسيين بل تحرك لحصارها في نوفمبر 1882.

وفي تلك الفترة كانت الحمى الصفراء منتشرة في السنغال، ولذا عجز الفرنسيون عن إرسال تعزيزات حربية للمنطقة، ولهذا صدرت الأوامر إلى القائد الفرنسي بورجنيس دسبورد (Borgnis Desborde) بعدم التوسع فيما وراء منطقة كيتا، وأن يرسل قوة صغيرة لتخفيف الحصار عن كيني ران(2)(Kenyeran).

وعندما وصل هذا القائد الفرنسي إلى كيتا طلب من الإمام ساموري الانسحاب من كيني ران، لكن ساموري رفض هذه الأوامر للأسباب سالفة الذكر. وإزاء هذا الرفض قرر استخدام القوة فأرسل مائتين من المشاة ومعهم مجموعة من المدافع. وفاجأ هذا القائد ساموري في 22 فبراير 1882، لكنه اضطر إلى الانسحاب بكل حذر بعد أن خاض معركتين في منطقة ويناكو (Weyanko) قرب باموكو في الثاني من أبريل [1].

وحدث الاحتكاك الثاني مع الفرنسيين في عام 1883 بعد أن قاد أحد قواد ساموري حملة أدت إلى قطع خط التلغراف بين قلاع كيتا وباماكو. وفي الوقت نفسه أخذ ساموري عددا من الأسرى من قرى المناطق التي أعلن الفرنسيون الحملة عليها، وحدث الاشتباك بالقرب من باماكو، ونجح الفرنسيون في سلسلة من الأحداث أن يظهروا تفوقهم على رجال ساموري، لكنه حافظ على تقدمه. وبينما كان ساموري يحاصر مدينة ساجاديجي (Saghadyigi) في الجنوب كان أخوه قائد جيش الشمال يسعى لاحتلال باماكو إلا أن الفرنسيين وصلوا إلى المنطقة قبله، ولم يتمكن كيمى بريما الأخ الأصغر لساموري من الاتصال به. وبدأ الهجوم الإسلامي على الفرنسيين، ولكن رغم التفوق العددي للمسلمين إلا أنهم لم يستطيعوا تحقيق النصر المطلوب. وشهدت الشهور التالية بداية عمليات عسكرية أدّت إلى وقوف الإمام ساموري وجها لوجه مع قبائل التيبا (Tyeba) في سيكاسو، وجماعات الفاما (Faama) في كينى دوجو، وأدرك الإمام أنه لا

يستطيع التخلي عن المنطقة الغنية في بورى (Bure)، والتي يحصل منها على ضرائب كثيرة من الذهب منذ عام 1878، ولذا بنى استراتيجية على مجابهة الفرنسيين ومنعهم من السيطرة على المنطقة. ففي 27 مايو 1882 عبر ساموري بجيشه إلى تنكيسو (Tenkiso)، وأخذ يحطم ويدمّر القرى التي تساند الفرنسيين، ودخل ساموري في اشتباكات مع القائد الفرنسي بونارد (Bonnard) في 31 مايو، وذلك عند مدينة كومادو (Kommado). وكادت الهزيمة تحل بالفرنسيين لولا تدخل القائد لوفيل الذي أنقذ بونارد من موت محقق، وعاد بالقوات الفرنسية إلى نافادي (Nafadyi) حيث حاصرهم ياموري هناك وقطع عنهم كل الإمدادات، ولقن الصوفيون من جنود ساموري الفرنسيين دروسا صعبة في هذه الحملات [1].

وخلال تلك الاشتباكات حقق الفرنسيون بعض الانتصارات لكنهم لم يستطيعوا تحقيق النصر النهائي على ساموري الذي ارتفعت مكانته في نظر السكان المحليين [2]. وبالرغم من خطط الإمام ساموري ومناوراته الحربية الفائقة إلا أنه كان عاجزا أمام الأسلحة الأوروبية المتطورة التي حرمته من ثمار تحقيق نصر رجاله الشجعان على هذه الأسلحة المتطورة، واضطر إلى الاعتراف بتفوقهم بعد أن فقد حوالي 900 من رجاله أثناء الاشتباكات خلال الفترة من 31 مايو حتى 15 يونيه 1882، وأصيب عدد كبير من قياداته.

وتصادف في هذه الفترة الحرجة من حياة الإمبراطورية الإسلامية تزايد تهديد الجبهة الشرقية، ولذا فكر ساموري في إنهاء الصراع مع الفرنسيين حتى يتفرغ لهذا التهديد من ناحية الشرق، ذلك التهديد الذي يقوّض دعائم الإمبراطورية من أساسها، ولذا كان ساموري بين خيارين: إما أن يواصل القتال ضد الفرنسيين والجبهة الشرقية، وإما أن يهادن الفرنسيين حتى ينتهي من إخضاع تلك الجبهة المشتعلة، ووجد أن مهادنة الفرنسيين أمر اقتضته الظروف للحفاظ على كيان الدولة الإسلامية [3].

لكل هذه الأسباب أرسل الإمام ساموري رسله إلى الفرنسيين لكي يشرح لهم الركبة في فتح باب المفاوضات لأجل عقد اتفاقية سلام، وتحديد مناطق نفوذ كل من الطرفين. ولم يفهم الأعداء قراره في الحال لأن فصل الأمطار كان قد بدأ، وأغلق الفرنسيون حامياتهم في قلاع كيتا (Kita)

ونياجاسولا لحماية مناطق نفوذهم في سانجامبيا، وليمنعوا البريطانيين من عقد حلف مع الإمام ساموري. ورأى الكولونيل فري (Frey) أن من الأفضل التوصل إلى اتفاق مع عدو يطلب ذلك، خصوصا وأن الوسائل الدبلوماسية ضرورية في هذه الفترة، وكتب إلى تورنير يقول إنه يجب عدم إضاعة الوقت في قضايا جانبية، وإنه لا بد من الحصول على توقيع ساموري[1].

وفي المفاوضات التي دارت بين الطرفين أرسل الفرنسيون الكابتن بيروز ومعه من السنغاليين الكابتن مامادو راسين، والكابتن تورنير، والمترجم الأسان رايا. وكان الكولونيل فري هو الذي يوجه المفاوضات، وكان ساموري عنيدا في مطالبه [2].

وانتهت المفاوضات بتوقيع معاهدة في مدينة كنيابا كورا في 23 مارس 1887، ونصت المعاهدة على اعتراف ساموري بسيادة فرنسا ونفوذها على الضفة اليسرى لنهر النيجر من نيامينا Nyamina حتى تنكيسو Tinkisso، كذلك موافقة ساموري على التخلي عن المطالبة بحقوقه في مناجم الذهب في بوري والاعتراف باستيلاء الفرنسيين عليها، كما نصت على أن بقية الأراضي الواقعة على الضفة اليسرى للنيجر ستكون تحت سيطرة ساموري. وطبقا لهذه المعاهدة كان على ساموري أن ينسحب بقواته من هذه المناطق، وأعلن ساموري صراحة رفضه للاقتراح الفرنسي ولأي شكل من أشكال الحماية على دولته، وهو موضوع أحدث قلقا للفرنسيين الذين سعوا لإعادة التفاوض معه بعد عامين من هذا الاتفاق. ولقد اقترح فري على ساموري السماح لابنه بالسفر إلى باريس كعلامة لحسن النية [3].

ولما عادت البعثة الفرنسية رافقها ابن ساموري الذي ذهب إلى فرنسا حيث قضى شهرين زار خلالهما الرئيس الفرنسي، والقائد العام للقوات المسلحة الفرنسية، وأعجب ابن ساموري بذلك التفوق العسكري، وبتلك القوة الفرنسية، ولكن لم تدم علاقات الود طويلا حيث اعتبر الطرفان هذه المعاهدة بمثابة هدنة مؤقتة ريثما تسمح الظروف لكل منهما لكي ينقض على الآخر.

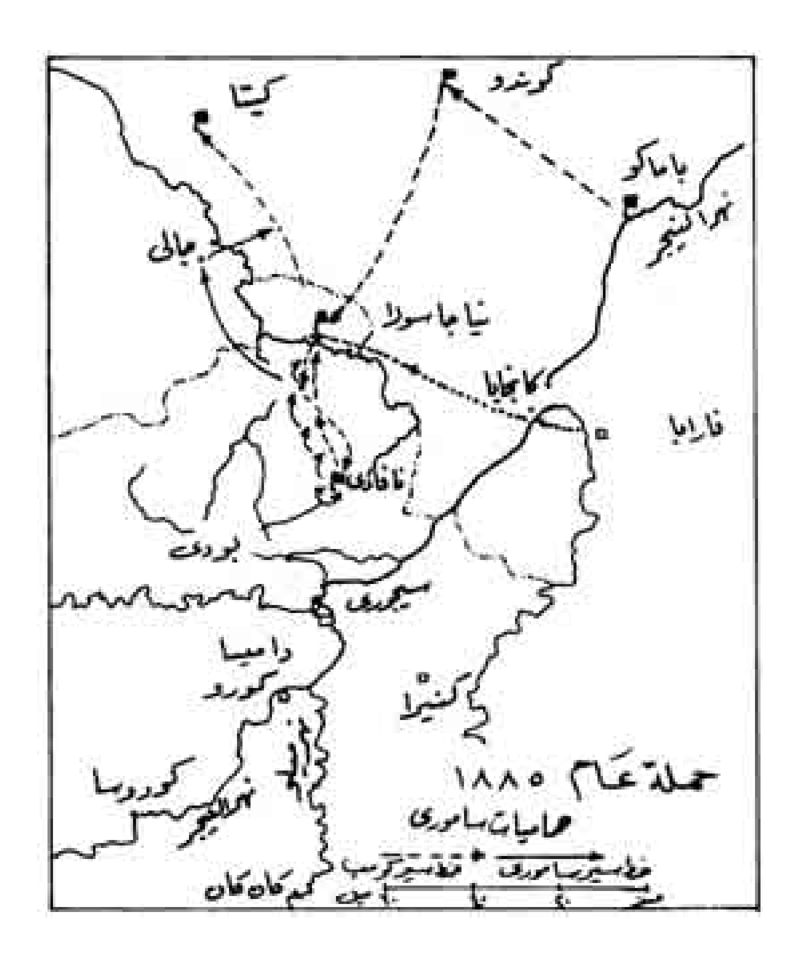
وأدرك زعماء فرنسا أن الاتفاقية غير مقبولة على أساس أنها أبقت لساموري بعض الحقوق على الشاطئ الغربي، ولكنها فشلت في اعتراف

ساموري بنظام الحماية الفرنسية، وبالتالي تركت المنطقة مفتوحة على مصراعيها أمام القوى الأوروبية الأخرى.

وأجرت فرنسا تعديلا مع ساموري في معاهدة بيساندونجو في 25 مارس 1887 نص على تنازله عن الشاطئ الأيسر مقابل تعهد الفرنسيين بعدم بناء حصون هناك، كما وافق ساموري على فكرة محمية فرنسية على أمل أن يحصل على دعم فرنسي لمواجهة سيكاسو التي قرر فعلا غزوها حتى لا يصبح محصورا بين قوتين متعارضتين، وحتى يكون امتداد النيجر الفسيح مفتوحا أمامه حتى حدود الموسي (Mossi). واعترف ساموري بحقوق فرنسا على الضفة اليسرى لنهر تنكيسو من منابعه حتى التقائه مع نهر النيجر. واعترف ساموري أيضا بنفوذ فرنسا على الضفة اليسرى لنهر تنكيسو حتى نيامينا، واضطر ساموري حسب هذه المعاهدة إلى الاعتراف بحقوق الفرنسيين في كل ممتلكاته شمال النيجر[1].

بعد المعاهدة بدأ ساموري يوجه اهتمامه نحو الشرق، أي في المناطق التي صارت تحت نفوذه حسب المعاهدة، وكان هدفه الرئيس الاستيلاء على مدينة سيكاسو الهامة. وفي هذا المجال ارتكب ساموري خطأ خطيرا لأن سيكاسو تحت سيطرة عدوه تيابا (Tieba)، وكانت مدينة محصنة تماما، لكن في أبريل عام 1887 بدأ ساموري الهجوم على سيكاسو، ووجد أن الأمر أعقد مما كان يعتقد، وأصعب مما كان يتوقع، ولذا استمر الحصار لهذه المدينة حتى أواخر أغسطس دون أن يحقق نتائج مرجوة، ورغم المعارك الدموية اضطر ساموري إلى رفع الحصار في النهاية دون أن يدرك كيف ينقذ جيشه بعد حصار استمر ستة عشر شهرا عانى فيها جيش ساموري بسبب صلابة مقاومة تيابا الذي كان يلقى الدعم والعون من الفرنسيين.

كانت هذه العملية من الحصار اختبارا لعلاقات ساموري مع الفرنسيين، فلقد كان ساموري يرغب في اقتحام سيكاسو ذات الأسوار العالية، وكان كل ما يطلبه من الفرنسيين مجرد مدفع واحد، لكن الفرنسيين رفضوا ذلك، بل وقفوا مع عدوه تيابا مما أجبر ساموري على رفع الحصار بعد أن تحمل أسوأ الخسائر في عملياته العسكرية، حيث إنه فقد حوالي سبعة آلاف رجل في هذه الحملة بمن فيهم أشهر قواده أمثال: فابو Fabou، ولاناكافالي ا(Lanakafali).



كيتا
كونديو
باماكو
نهر النيجر
جالى
نياجاسولا
كانجابا
فارابا
نافادى
بورى
سيجويرى
داميسا
كوسيد
كنيرا
حملة عام ١٨٨٥
كوروسا
نهر النيجر
كم كان كان

شكل رقم (١٥)

وأدرك الإمام ساموري أن الفرنسيين ليسوا أصدقاء له، وأنهم يهدفون إلى غزو كل حوض النيجر، ولذا فإنه بعد رفع الحصار أنهى المعاهدة مع الفرنسيين، وبدأ يسعى إلى البحث عن حلفاء من الأفارقة، فحاول عقد تحالف مع أجيبو (Aguibu) في دنجوراي، وهذا ما ساعده على الاقتراب من فوتاجالون، ومن المصانع الساحلية في سيراليون التي تزوده بالأسلحة [2]. وكان هدف ساموري هو أن يضم كينودوجو Kenedugu، لكي يسيطر على تجارة سيكاسو في الخيول، لكن فشل الإمام ساموري في القضاء على سيكاسو أفقده الأمل في بناء الإمبراطورية [1].

وكان الانسحاب ورفع الحصار قد شجعا رعاياه على الاحتجاج ضده، كما عارضوا مطالبه بالمزيد من الجند والمؤن، بل وصل الأمر إلى الاحتجاج ضد سياسته الإسلامية [2].

وفي أواخر عام 1888 فكر الفرنسيون في عملية السيطرة على الأراضي الواقعة تحت قبضة الإمام ساموري على أساس أنه أوشك على السقوط، لكنهم أساءوا التقدير لأن ساموري كان يمثل في نظر شعبه كل الآمال والطموحات، ومحرر كل أبناء المالنكي.

قامت فرنسا بتغيير القيادة، فحل القائد أرشينار (Archinard) محل جاليني في قيادة قوات السودان الغربي، وكان هذا القائد يتعجل الأحداث للاستفادة من المشكلات التي يواجهها ساموري، ولكي يبسط نفوذه على المناطق التابعة له، ويجبر ساموري على الدخول في النظام الاستعماري الفرنسي، وكانت خطة أرشينار تقوم على أساس أن إخضاع ساموري سيعطيه الحرية للهجوم على إمبراطورية التوكولور التي كانت هدفه الرئيس، وكان ساموري رغم توقيعه معاهدة بيساندوجو مع الفرنسيين يواصل تسليح جيشه بأحدث الأسلحة، ويدربه على أحدث المعدات، كما استمر في شن الغارات على المدن والقرى المجاورة.

وفي 21 فبراير 1889 ذهب الضابط الفرنسي بوناردوت إلى ساموري توري في عاصمته نياكو (Nyako) حيث حصل على معاهدة تنازل ساموري بموجبها عن الشاطئ الأيسر للنيجر حتى منبعه، وفهم ساموري أن الفرنسيين يشكون فيه، فرفض مغادرة عاصمته، فأعلن القائد الفرنسي جاليني أن ساموري رجل شرير، وأنه يضمر السوء للفرنسيين مثل بقية الزعماء في

السودان الغربي الذين يحدثون الدمار والخراب في المناطق التي يسيطرون عليها. وكرس جاليني في زيارته الثانية للمنطقة عامي 1887 و1888 وضع استراتيجية لحصار الإمام المناضل ساموري مع إضعاف سلطاته، وفي الوقت نفسه تدعيم النفوذ الفرنسي في حوض النيجر الأعلى [1].

أحس ساموري بخطط الفرنسيين، وتكتيكاتهم الحربية ضده، فبدأ يستعد للمعركة المرتقبة، واستعد شعب الديولا للمعركة الفاصلة بين قوى الحق، وقوى البغي والعدوان.

رابعا: القضاء على دولة ساموري الإسلامية:

بعد الاحتكاكات الأولى مع الفرنسيين أدرك ساموري أنه لا بد من تغيير استراتيجيته، وأنه لا بد من إعادة تنظيم جيشه على أسس جديدة، وأصبح في نظره أن الإجراءات الدفاعية المعتادة داخل نقاط قوية وانتظار العدو غير كافية في ظروفه الراهنة، وذلك لأن مدفعية الرجل الأبيض تستطيع الصمود طويلا، كما أنها يمكن أن تقضي على أي تحصينات دفاعية، ولهذا كان قرار ساموري بالهجوم على العدو في الأراضي المكشوفة بعكس ما كان مألوفا من قبل.

قام الأمام ساموري بتجهيز جيشه وتزويده بأحدث الأسلحة التي يمكن الحصول عليها من أي مصدر متاح سواء من الساحل، أو من الأهالي، أو من التجار، أو حتى من البريطانيين، كما أنه درّب الجيش على النمط الأوروبي حتى وصل هذا الجيش إلى ذروة استعداده في عام 1890، وبدأ ساموري بالإغارة على القرى والمراكز التابعة للفرنسيين، كما أنه أرسل إلى السلطان أحمدو في بلاد التوكولور يطلب منه التحالف معه ضد هذا العدو الأوروبي. ولما أحس الفرنسيون بهذا التقارب بين زعماء المسلمين قرر أرشينار إرسال حملة إلى ساموري للاستيلاء على مدينة كان كان. وكان الفرنسيون قد استولوا على سيجو في مارس 1890، كما قرر أرشينار القضاء على ساموري قبل أن تصل أوامره إلى أخيه. وفعلا قام هذا القائد بالهجوم المفاجئ على النيجر الأعلى، واحتل كان كان في السابع من أبريل عام 1891، وأرسل أيضا فرقة لحرق مدينة بيساندوجو[1].

لم يكن الاستيلاء على كان كان يعني إنهاء مقاومة ساموري الذي هاجم

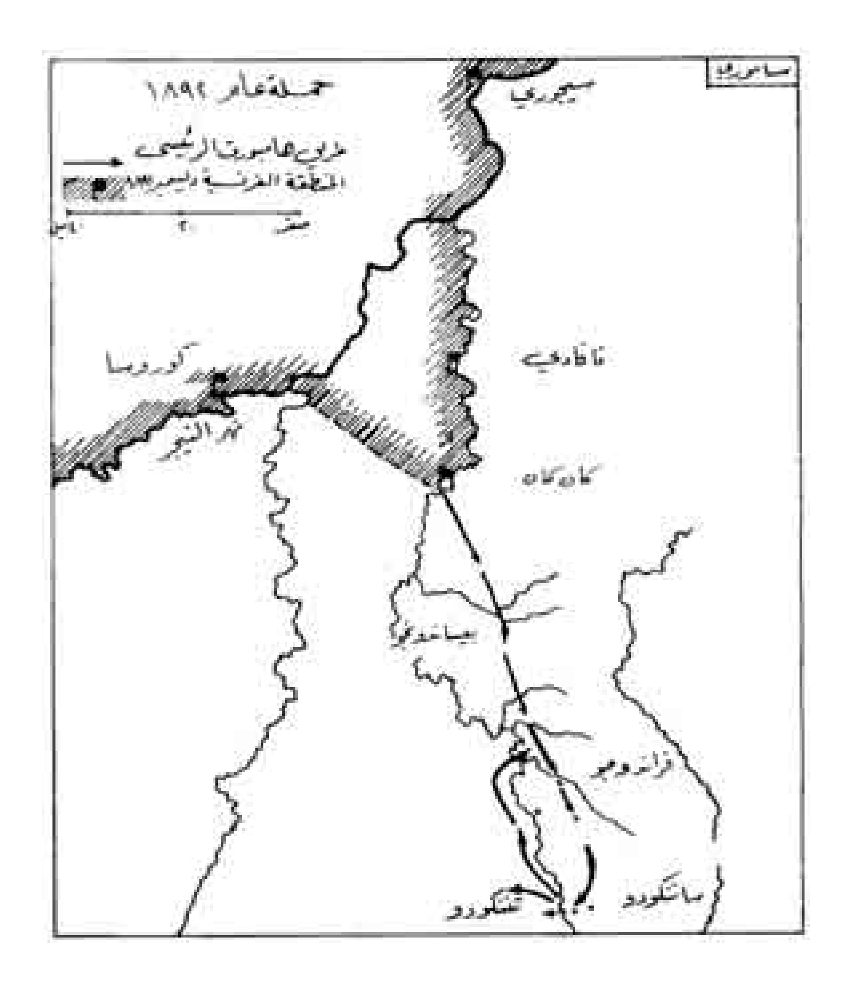
القرى المجاورة، وكلف ابنه بمهاجمة الفرنسيين، كما كلف عمه ألفا (Alfa) بالهجوم على القرى التابعة للفرنسيين. ولم تضعف هذه الهجمات قوى ساموري الذي كان يتوقع الهجوم في أي لحظة. وكان الموقف العام في صالحه حيث كانت حملات عامي 1981 و 1892 بداية مواجهة عنيفة بينه وبين الفرنسيين، ذلك لأن الاستيلاء على كان كان معناه ازدياد نفوذ فرنسا. وضعف الزعماء الوطنيين أمام القوات الفرنسية حيث أعلن القائد الوطني أجيبو الولاء للفرنسيين واستعداده لتلقي أوامرهم [2].

بدأ القائد الفرنسي جوستاف هامبورت الذي تولى القيادة بعد أرشينار الهجوم بقوة قوامها 1300 مقاتل و3000 من الحمالين. والتقت القوات الفرنسية مع القوات الإسلامية في ميلو (Milo). وكان ساموري يتولى القيادة بنفسه وحارب بكل شجاعة، وظهرت قدراته في هذه المعركة حيث كان التخطيط الحربي المتطور، والمهارات الفائقة التي عاقت التقدم الفرنسي كثيرا، لكن القائد الفرنسي هامبورت بفضل ما لديه من أسلحة متطورة استطاع أن يشق طريقه ويستولي على القلاع. وفي 14 فبراير استولى الفرنسيون على مخازن ذخيرة ساموري في أعالي تلال تننكورو (Tininkuru)، وصار الفرنسيون وسط إمبراطورية ساموري، ولكنهم وجدوا أنفسهم وسط الخراب والدمار والعزلة ذلك لأن الإمام ساموري أمر السكان المحليين بترك المناطق التي يقترب منها الفرنسيون مع أخذ كل المؤن والمواد الغذائية بعد تدمير القرى. واضطر الفرنسيون إزاء هذا الموقف إلى إقامة خط إمدادات من كان كان، بالإضافة إلى ما تكلفه هذه الرحلة من المشاق ذهابا وإيابا [1].

وانقضت عدة أسابيع والقائد الفرنسي هامبورت عاجز عن حل هذه المشكلة، وأخيرا قرر الانسحاب في التاسع من أبريل تاركا حصنه في حالة حصار استمر منعزلا عن العالم مدة سبعة أشهر، ولقد تضايق هامبورت من هذه الحالة، وقرر عدم وضع قدمه مرة أخرى في السودان الغربي، واعترف بهزيمته، ولكنه وضع مسؤولية هذه الأعمال على عاتق القائد أرشينار الذي عاد إلى المنطقة من جديد.

وصار من الواضح بعد هذه الاشتباكات أن الإمام ساموري أوشك على النهاية بعد أن فقد عددا كبيرا من رجاله الشجعان. وفي عام 1892 اتخذ قراره التاريخي بالانسحاب من مسرح الأحداث السياسية أمام الفرنسيين

الذين يكنون له كل عداء، فقرر الابتعاد عن سيطرة الأوروبيين حتى يعيد تشكيل قواته، ويضيف إليها دماء جديدة قادرة على مواجهة هذا الحشد الضخم من الفرنسيين (2).



شكل رقم (١١)

انسحب ساموري في هدوء من وجه الفرنسيين، وتركهم يواصلون تقدمهم، فاحتلت فرنسا كل الجزء الغربي من إمبراطورية الديولا (Dyula) حتى وصلوا إلى حدود سيراليون، وأطراف الغابة الكبرى، وبالتالي لم تكن هناك معارك حاسمة بعد تجنب ساموري الاحتكاك بالفرنسيين، وواصل تقدمه شرقا بعيدا عن المحاولات الفرنسية للتوغل داخل إمبراطوريته.

وفي عام 1893 فوجئ ساموري بمواجهة القوات الفرنسية بقيادة الكولونيل الفرنسي أيوجين بونير في منطقة كولوني (Koloni). وتحرك ساموري بسرعة إلى الجنوب الشرقي في اتجاه المناطق الداخلية لساحل العاج، وكان يحاول أيضا عدم الالتحام مع الفرنسيين، بل بذل جهدا لفتح باب التفاوض معهم لكي يحافظ على إمبراطوريته من هذا الزحف الأوروبي الذي عزم على تقسيم المنطقة حسب بنود ومواد مؤتمر برلين لعام 1884/1885 [1].

لقد فشلت كل محاولات ساموري في عقد صلح جديد مع الفرنسيين، ذلك لأنهم يرغبون في القضاء على الإمامة بشكل نهائي، والإمام ساموري يرغب في مواصلة الجهاد كقائد إسلامي في دولة إسلامية أسسها بجهوده الذاتية. ومن هنا جاء التناقض بين مطالب الفرنسيين الذين يخططون للسيطرة على المنطقة بأسرها، ورغبات الإمام ساموري في البقاء رئيسا لدولة إسلامية، ولذا ركز كل جهوده للسعي نحو عقد معاهدة سلام معهم حتى يتفرغ للجهاد والقضاء على الوثنيين. وكلما عرض الفرنسيون عليه فكرة الحماية كان دائما يرفضها لأن الحماية في نظره تعني الاستسلام وضياع ثمار جهاده الطويل. وكان دائما يقول للفرنسيين كلما طلبوا منه الحماية: إنهم إذا كانوا قد أغلقوا باب الجنوب أمام توسعاته، وأغلقوا باب الشمال والغرب أمام جهاده فإن باب الشرق ما زال مفتوحا، وأرض الله واسعة، وأنه سيواصل جهاده في سبيل الله [2].

ولما أحست فرنسا أن ساموري قائد حربي عنيد، وأنه يرفض كل عروض الحماية، بدأت تخطط لحملة جماعية بقصد الإطباق عليه من كل جانب، وقطع طرق مواصلاته، وإغلاق المنافذ التي يمكن أن يهرب منها، وذلك في محاولة أخيرة للقضاء على رجل رفض التعاون معهم وحاربهم في أكثر من موقع [3]. ورغم حرص ساموري على تجنب الاحتكاك بالفرنسيين إلا أن وجوده في السودان الغربي يعني عرقلة الفرنسيين في توسعاتهم لضم

المنطقة بأسرها.

ووجد ساموري نفسه في مواجهة أخيرة مع الفرنسيين، فأخذ يقاوم ويناضل بكل ما أوتي من قوة، وبكل ما لديه من أسلحة وذخيرة حتى استطاع الخروج من منطقة الخطر، وانتصر على الجماعات المحلية في أبرون (Abron) في يوليه عام 1895، ثم انتقل إلى جوندا (Gondja) الغربية في يناير 1896 [1].

وبدأت مرحلة من الهدوء النسبي طوال عام 1897 حيث استطاع ساموري تنظيم جيشه من جديد، والتقط أنفاسه استعدادا لمعركة المصير والتحرير مع عدو عنيد يصر على فرض الحماية بالقوة، ويلح في القضاء على دولة إسلامية تنشر حضارة الإسلام، وتطبق الشريعة في كل منحى من مناحي الحياة.

وفي أول مايو عام 1898 استولى الفرنسيون على سيكاسو فجأة. وعندما سمع ساموري بهذا النبأ أدرك أن خطته لن تجدي مع الفرنسيين، وأن مقاومته بتلك القوات البسيطة تعني الموت المحقق، فقرر الانضمام إلى حلفائه في بلاد التوما (Toma) الموجودين في ليبيريا، وكان الأمل يحدوه لا أن يجد موقعا حصينا هناك، لكن الفرنسيين كانوا يدركون عنصر الوقت، فتحركوا بسرعة لتعقب كل خطواته، وتحرك الإمام في اتجاه الغرب، وكان يحرق كل مدينة وكل قرية يجلو منها حتى لا يجد الفرنسيون أي مساعدات أو مؤن تساعدهم على مواصلة الحرب ضده. وكان كلما تحرك غربا واستولى على منطقة من المناطق يترك بعضا من رجاله للدفاع عن المناطق الجديدة، وهذه حيلة بارعة، ونظام حربي حديث أرهق الفرنسيين وكبدهم الكثير وهم يتعقبون هذا المجاهد العنيد الذي رفض الاستسلام مقابل السلام، ورفض الحماية مقابل البقاء سلطانا تابعا لهم [1].

وفي يونيو من العام نفسه انسحب من المناطق الشرقية، وركز كل جيشه مع حوالي اثني عشر ألفا من المدنيين على الساحل الضيق لبافنكو Bafinko، واستطاع في مواجهة مع الفرنسيين أن يكسب معركة كبيرة ضد القائد الفرنسي لارتيج (Lartigue)، وذلك في 20 يوليه، لكن ارتكب الإمام ساموري غلطة كبرى عندما قرر التحرك ناحية الغرب عبر الغابات الاستوائية وجبال الدان (Dan) في منتصف فصل الأمطار حيث واجه خطر المجاعة الكبرى،

مما أجبر القوات على الاختفاء في الليل بحثا عن لقمة عيش، فكان أن تفرقت هذه الجموع في وسط ظروف قاسية، ولم يعد العدد الأكبر منها.

كان هذا الخطأ قاتلا وفادحا كلف ساموري حياته، وكلفه ضياع دولته عندما قام القائد الفرنسي جورود (Gouraud) بالهجوم على قوات ساموري في منطقة جيليمو (Gelemu) في التاسع والعشرين من سبتمبر. ولقد طلب ساموري من القائد لارتيج أن يتركه لكي يعود إلى سانكورو، لكن هذا القائد صمم على إذلال ساموري فطلب منه أن يسلم سلاحه وذخيرته وولديه (سرانكي موري، ومختاراً)، لكن البطل المجاهد ساموري رفض هذه الشروط القاسية التي تعد بمثابة إهانة لكرامته وشرفه وسمعته كقائد وزعيم سياسي، ورفض الاستسلام رغم ضياع كل شيء، ورغم تضييق الخناق عليه، وهذه طبيعة المقاومة الإسلامية في أفريقيا حيث رفض المجاهدون كل عروض الاستسلام، وفضلوا النضال حتى النهاية أمام عدو عنيد مسلح بأحدث الأسلحة يرغب في إذلال الأفارقة وحضارتهم. فكان قرار الصمود حتى النهاية والاستشهاد في سبيل كلمة الحق والدين [2].

وأخيرا قرر الفرنسيون مواصلة الحرب ضد هذا المجاهد ساموري حتى أمكن القضاء عليه بعد تضييق الخناق والقبض عليه في التاسع والعشرين من سبتمبر، وتم نقله إلى الجابون حيث مات هناك في 2 يوليه عام 1900 تاركا المقاومة لحفيده أحمدو سيكوتوري الذي صار رئيسا لجمهورية غينيا التي حصلت على استقلالها في عام 1958 قبل كل المستعمرات الفرنسية في غرب أفريقيا [1].

وهكذا انتهت حركة مقاومة استمرت أكثر من خمسة وعشرين عاما ضد القوى الإمبريالية، وانتهى كفاح هذا البطل الإفريقي المسلم، ذلك المجاهد الإسلامي الذي قاوم التوسع الفرنسي بقواته وسلاحه وعتاده، وصار ساموري بطلا قوميا استحق أن يخلد شعبه ذكراه بعد أن ضحى بكل شيء في سبيل توحيد شعب الماندنجو، وتكوين جيش يضم كل عناصر هذه القبائل، وقادها من نصر إلى نصر بعد أن وضع أسس دولة على أنقاض الممالك الوثنية، وواجه الغزو الفرنسي، وكبّده خسائر فادحة، ولم يهنأ الفرنسيون بالعيش في سلام في مناطق نفوذه إلا بالقضاء على مقاومته العنيفة حيث واجه الفرنسيون عدوا عنيدا، ومجاهدا صلبا، ورجلا لا تلين

عريكته، طوّر جيشه، وغير خططه، وأدخل الفنون الحديثة في القتال لمواجهة هذا التوسع الفرنسي.

لقد أثبت الزعيم ساموري أنه القائد الأفريقي التقليدي الذي احترم تقاليد وطنه وشعبه، وحافظ على الدين الإسلامي. وفي الوقت نفسه كان يطور نفسه حسب الظروف الحديثة، والمتطلبات الجديدة، واستطاع أن يطيل أمد فترة المقاومة التي ترجع أساسا إلى قدرته على الانسحاب الفعال إلى مناطق غير خاضعة لسيطرة الفرنسيين، وكذلك قدراته على المناورة العسكرية، واستخدام الأسلحة الحديثة التي كان يحصل عليها بشتى الطرائق.

وعندما أدرك ساموري أن الفرنسيين يرغبون في تكوين إمبراطورية تضم كل السودان الغربي قاوم بكل ما أوتي من قوة، وانتهج أفضل الوسائل الفعالة للمقاومة العسكرية، وأثبت أنه رجل مرن وقادر على استخدام كل الوسائل التي تحت تصرفه للحفاظ على حريته أمام السيطرة الأجنبية. وكان هدفه الأساسي من هذه الحرب هو الحفاظ على دولته في المقام الأول [1]. كان ساموري رجلا عبقريا، حاضر البديهة، وتكمن عظمته في عبقريته الاستراتيجية التي كشفت عن نفسها خلال خمسة وعشرين عاما من النضال والمواجهة ضد الأعداء، واستطاع أن يجمع شمل قبائل متناثرة، وعشائر متناحرة، وقوميات شتى، واستطاع أن يوحد كل هذه الجماعات تحت راية الإسلام، وكوّن أمة حديثة أخذت بكل أساليب التقدم والرخاء، وأقام مجتمعا إسلاميا، وطبق الشريعة الإسلامية بعد أن حوّل كل فئات الشعب إلى هذا الدين الحنيف، ولم يدخر وسعا في القضاء على الوثنية وعاداتها، ونظم شؤون المجتمع على أسس الشريعة الغراء.

لقد وقفت القوى الأوروبية ضد طموحات هذا المجاهد الإسلامي الكبير، ولسوء حظه وحظ شعبه أنه بدأ نضاله من أجل نشر العقيدة، وإخضاع القبائل الوثنية في الوقت نفسه الذي راحت القوى الاستعمارية تبسط نفوذها على القارة الأفريقية بعد قرارات التقسيم للقارة في مؤتمر برلين 1884/ 1885. وكان ظهور ساموري ودعوته للجهاد وتكوين إمبراطورية إسلامية قد تلازما وتواكبا مع التكالب الاستعماري على أفريقيا، وكان لابد من التصادم والصمود والكفاح في سبيل نصرة الدين والحضارة الإسلامية.

ولذا كانت الجماهير من عسكريين ومدنيين هي العمود الفقري لمقاومة هذا المناضل للاستعمار الفرنسي [2].

ومما يسترعى الانتباه أن أسلوب ساموري الحربي في تخريب المدن والقرى التي يهجرها قد ساعد على استمرار المقاومة فترة طويلة نجح خلالها في مقاومة الفرنسيين وتكبيدهم خسائر طائلة. وكانت أهم خاصية تميزت بها إمبراطورية ساموري أنها إمبراطورية متحركة حيث كان ساموري يتحرك بها من مكان لآخر بعيدا عن التوسع الفرنسي. وكان كلما انسحب أمام الفرنسيين حرص على تدمير كل شيء حتى لا يستفيد منه الأعداء[1].

اشتهر ساموري بأنه مناضل أفريقي مسلم حارب الفرنسيين مدة طويلة تجلت فيها عبقريته وقدرته على الحصول على السلاح والذخائر، وقدراته على اختيار الأماكن الاستراتيجية، وقدرته على التحرك، وتنظيم الرجال بسرعة كبيرة أتاحت له سرعة الحركة ومفاجأة الأعداء في كل مكان [2].

لقد كتب الجنرال باراتيه (Baratier) أن ساموري أظهر تفوقا على كل زعماء السود في القارة الأفريقية حيث كان الوحيد الذي أعطى الدليل على صفات الزعيم، وحيث كان سياسيا محنكا، وقائدا يمتلك الطاقة والقدرة على وضع الخطط الحربية التي يصعب تدميرها، وأنه إذا فقد جزءا من الأرض في الغرب فإنه لم يغادر الموقع إلا بعد أن يكبد الفرنسيين خسائر فادحة، وكان يعوّض خسارته في الغرب بالاستيلاء على أجزاء مضاعفة من الشرق، وهذه استراتيجية كبرى لقائد مسلم رفض الاستسلام بسهولة[3].

وامتاز ساموري بالمهارة العسكرية حيث كانت لديه القدرة الفائقة على التنظيم والقيادة حتى أطلق عليه قائد فرنسي بأنه بونابرت السودان. ولم يكن ساموري عبقرية عسكرية فحسب، بل كان أيضا دبلوماسيا بارعا، يتضح ذلك من علاقاته بالحكام الأفارقة الآخرين وبالسلطات الفرنسية في الفترة السابقة على قدوم الكولونيل أرشينار. وكان ساموري يسعى من التحالف مع الشيخ أحمدو إلى التكاتف ضد عدو مشترك، ولإبعاد الخطر الأوروبي عن التدخل في حوض النيجر الأعلى.

لكن الذي أثر في خطط الإمام ساموري الحربية يكمن في قلة السلاح والفرسان، ذلك لأن جيش ساموري كان أساسا من رجال الساحل ومن الفرسان القادمين من الجزء الشمالي الغربي من السودان، ورغم أنه بدأ

منذ عام 1892 بإنتاج الأسلحة الوطنية إلا أن تقدم الفرنسيين قطع على ساموري خط الإمداد بالقوى البشرية من الساحل مما اضطره في عام 1893 إلى البحث عن وسائل جديدة ومصادر أخرى، وكان شغله الشاغل منذ 1893 حتى عام 1898 هو البحث عن مناطق جديدة في ساحل العاج، وساحل الذهب وفي ولايات الموسي (Mossi). ومن سوء حظ هذا المناضل الأفريقي المسلم أنه بدأ بتكوين دولته في فترة من الفوضى السياسية في منطقة أعالي النيجر.

وقضى الجزء الأكبر في بناء الإمبراطورية، وما إن استقر وبدأ يمارس الحياة في تلك الإمبراطورية الجديدة، وأخذ يطبق الشريعة الإسلامية في سلسلة من حملات الجهاد حتى فوجئ قبل أن يصل إلى مرحلة الكمال بتلك الغزوة الاستعمارية الشرسة التي وجدت في إمبراطوريته عائقا ومانعا عن تحقيق حلمها في التوسع بممتلكاتها شرقا بعرض القارة حتى ساحل أفريقيا الشرقي في منطقة جيبوتي، وصار هذا القائد المسلم والإمبراطورية التي أسسها حاجزا مانعا ضد طموحات الفرنسيين. وحاول الابتعاد عنهم لكنهم وجدوا فيه خصما عنيدا ومناضلا جسورا وعبقرية أفريقية لا تلين. عرضوا عليه الحماية فرفضها، وعرضوا عليه الانضمام إلى نفوذهم فأبى وقاوم. وإذا كان قد هزم في النهاية إلا أن ذلك لا يرجع إلى قصور في العمل أو تراجع عن المبادئ، ولكن السبب الرئيس يكمن في قلة الموارد وضعف الإمكانات. وعدم التنسيق على المستوى المحلي بين زعماء المسلمين الذين انشغلوا بصراعاتهم الداخلية مع بعضهم البعض، بل تحالف البعض الآخر مع الفرنسيين، فكان هذا في حد ذاته كافيا لتقويض دعائم هذه الإمبراطوريات الإسلامية.

ويكفي هذا المناضل الأفريقي أنه استطاع أن يحكم منطقة واسعة من السودان الغربي، ولم ينشر الدين الإسلامي فحسب بين الشعوب الأفريقية، بل غرس في نفوس الناس روح العداء ومقاومة التوسع الأجنبي، وولّد في نفوس الشعب روح التضحية والفداء حتى رحل المستعمر عن أفريقيا.

5 المسلمون والغزو الأوروبي لدولة رابح فضل الله

يعد رابح فضل الله من الزعماء المسلمين الذين لعبوا دورا هاما في نشر الحضارة الإسلامية في وسط أفريقيا وغربها بالإضافة إلى مقاومة الاستعمار الأوروبي في مرحلة التكالب على القارة، فلقد استطاع رابح فضل الله بقوة إيمانه أن يفرض السكينة والأمان على جزء كبير من بحيرة تشاد، وأن يؤسس مملكة واسعة، وأن ينشر الدين الإسلامي وشريعته الغراء في ذلك الجزء من أفريقيا، وأن يقف أمام التوسع الأوروبي، وخصوصا الفرنسي، في تلك المنطقة حتى سقوط دولته بعد سبع سنوات من النضال المستمر، والكفاح المتواصل ضد القبائل الوثنية تارة، وضد الممالك المحلية تارة أخرى. وكان من الممكن لهذه الدولة أن تعيش فترة أطول لولا تصادف قيامها مع التوسع الأوروبي وابتلاع المنطقة بأسرها. ويكفي هذا المجاهد المسلم فخرا أنه قاوم الفرنسيين وأعوانهم من الحكام الوطنيين الذين تآمروا عليه، واستطاع أن ينتقل من سودان وادي النيل إلى وسط القارة وغربها حيث كان مقره حول بحيرة تشاد التي صارت مقرا

لدولته الإسلامية التي لم تعمر طويلا، ولكن قبل الحديث عن سيرة هذا البطل المسلم يجدر بنا أن نلقي نظرة على أحوال المنطقة قبل أن يؤسس رابح دولته [1].

في أوائل القرن التاسع عشر كانت منطقة بحيرة تشاد تحت سيطرة دولة البرنو، لكنها كانت تزداد ضعفا يوما بعد يوم خصوصا بعد نجاح جهاد الشيخ عثمان وتأسيس إمبراطورية الفولاني الإسلامية، ودخوله في صراع مع دولة البرنو، والانتصار عليهم في أكثر من معركة [1].

وبعد أن هاجم الفولانيون برنو اضطر الماي أحمد بن علي (1791- 1808) إلى الهروب من عاصمته إلى منطقة موبر (Mobber)، وعندما وصل الماي إلى مدينة ميج (Mege) التقى الشيخ محمد الأمين الكانيمي، فطلب منه المساعدة، لكن الفولانيين بزعامة القائد جوني مختار واصلوا زحفهم الكاسح نحو عاصمة برنو، واستولوا عليها في مارس 1808، وهربت الأسرة الماغومية من العاصمة، واتجهت شمالا حيث مات الماي أحمد، وقام ابنه دونمه بجمع الرجال وتكوين الجيوش بمساعدة الشيخ الكانيمي. ونجح هذا الماي في العودة إلى عاصمته، وهزم الفولانيين، وقتل قائدهم جوني مختار في عام 1811.

وترتب على ذلك أن دخل الشيخ الكانيمي في مفاوضات مع الفولانيين، وتم تبادل الرسائل في هذا المجال، لكنها لم تسفر عن نتيجة لأن الفولانيين أصروا على الانتقام بقيادة المعلم إبراهيم زكي الذي هاجم عاصمة برنو، وأجبر الماي على الهرب منها، وبناء على نصيحة الشيخ الكانيمي قرر الماي بناء عاصمة جديدة في مدينة بيرنن كابلا (Birnin Kabela) بالقرب من نجورنو مقر إقامة الشيخ الكانيمي [2].

وأدّت هذه الأحداث بالطبع إلى قوة الشيخ الكانيمي حيث صار الحاكم الفعلي في إمبراطورية البرنو، وظل يسيطر على مقاليد أمورها حتى وفاته عام 1835 وصار المايات ألعوبة في يده، يعزل منهم من يشاء، ويعين من يشاء، وبيده كل مقاليد السلطة والجاه. واتخذ الكانيمي من مدينة كوكا (Kuka) عاصمة له، ورأى الكانيمي أنه من الأفضل التفاهم مع الفولاني، فبعث برسالة إلى الخليفة محمد بلو أمير المؤمنين في دولة سوكوتو ترتب عليها الدخول في مفاوضات انتهت بتسوية المشكلات بين دولة البرنو

وإمبراطورية الفولاني [1].

ولما مات الشيخ الكانيمي في عام 1835 خلفه ابنه الشيخ عمر الذي حاول تحسين العلاقات مع دولة الفولاني. وفي عهد الشيخ هاشم (1885-1893) هاجم رابح فضل الله دولة البرنو، وعبر إلى نهر شارى عام 1892، وفي فترة وجيزة بسط نفوذه على كل المنطقة، وبدأ يدخل في صراع مع الحكام الوطنيين والأوروبيين.

أولا: نشأة رابح فضل الله

ولد رابح فضل الله في عام 1846 في إحدى القرى في بحر الغزال، وكان ابنا لأحد ملوك القبائل التي استوطنت حوض بحر الغزال، ونشأ على التربية العسكرية الخالصة حيث شارك أباه في المعارك التي كان يخوضها ضد القبائل المجاورة.

كان والده قد انضم إلى السلك العسكري المصري، وشارك في كثير من المعارك أيام الخديوي إسماعيل، لكنه أصيب في إحدى المعارك الحربية في يده اليمنى، فأبعد عن الجيش المصري واضطر إلى العودة لبلاده عندما علم بوفاة والده قبل أن يغادر القاهرة [2].

عندما مات فضل الله والد رابح، صار رابح وحيدا، ولما لمع نجم الزبير باشا رحمت، وتجمع حوله الأنصار والأعوان، انضم رابح إليه، فصار من أعوانه وارتبط اسمه به حتى نهايته. وكان رابح الزبير طويل القامة، كبير الهامة، واسع الحيلة، معقوف الأنف، خفيف اللحية، قصير الشاربين، أسود اللون، وكان يجمع بين وقار الكهول ورشاقة الشبان [1].

وشاءت الأقدار أن تظهر شجاعة رابح وقدراته الحربية أثناء صراع الزبير باشا مع حملة البلالي، تلك الحملة التي أرسلتها حكومة مصر لاحتلال بعض المناطق في بحر الغزال، واستغلال مناجم النحاس فيها لحساب الحكومة المصرية، واضطرت هذه القوة إلى الالتحام مع قوات الزبير باشا صاحب السلطة الحقيقية في هذه المنطقة، ورفع الزبير باشا رابحا إلى رتبة جندي بسبب نشاطه الواضح، وبعد ذلك رقاه إلى رتبة ضابط فشارك في كل المعارك التي خاضها الزبير باشا في الفترة من عام 1871 حتى عام 1874، وانضم رابح إلى الزبير في حربه ضد البلالي

(Belali)[2].

بدأ البلالي يستخدم أسلوب تحريض القبائل على الزبير باشا الذي اضطر إلى الدخول في حرب معه، ووجد الزبير أن الفرصة قد حانت لكي يجرب قائد جيشه الجديد رابح الزبير، واستطاع رابح أن يخوض معركة حياة أو موت ضد البلالي بمفرده [3].

وتقابل جيش رابح مع جيش البلالي عند «ديم جيجو» بالقرب من دار موفيو، ودارت معركة بينهما في أبريل عام 1871، وانتهت المعركة بهزيمة البلالي، والقضاء عليه نهائيا، وعاد رابح بعد أن حقق هذا النصر إلى مقره في ديم الزبير حيث أجبرت حكومة مصر على الاعتراف بوضع المنطقة تحت حكم الزبير باشا.

لقد استفاد رابح كثيرا من انضمامه إلى الزبير باشا حيث كانت تلك الفترة بمثابة المدرسة الحقيقية لصقل مواهبه، والميدان الحقيقي لاكتساب الخبرات الأساسية في الحروب، وقد ظهرت قدراته التي ستجعل منه القائد الذي سيلعب دورا كبيرا في ممالك غرب أفريقيا في كل من البرنو ووداي وعلى شواطئ بحيرة تشاد. فلقد فاق رابح كل الرجال الذين خدموا الزبير باشا، وكانت مواهبه الحربية هي التي دفعت بالزبير باشا إلى تسليمه القيادة العليا لجيشه [1].

لكن الأمور لم تستقر للزبير باشا أو لقائده رابح طويلا، حيث بدأ حاكم السودان ويدعى إسماعيل أيوب يخطط لمؤامرة ضدهما، ذلك لأن الزبير باشا صار ذائع الصيت، الأمر الذي جعل الحكومة المصرية تستدعيه إلى القاهرة، ورغم معارضة رابح لهذا الأمر إلا أن الزبير باشا رحل إلى القاهرة. وبرحيله إلى القاهرة عام 1874 واصل رابح العمل في خدمة سليمان الزبير الذي كان غوردون قد ترك له حكم مديرية بحر الغزال بعد رحيل والده الزبير باشا إلى القاهرة [2].

وما أن بدأ حكم سليمان الزبير حتى غدت المنطقة تدخل في صراعات جديدة، ووجد سليمان الزبير مؤامرات ضده من غوردون الذي صار حاكم السودان بعد إسماعيل أيوب [3].

وبعد استسلام سليمان الزبير لجيسي في 14 يوليه 1879 قام بقتله غدرا، وحاول قائد القوات المصرية في السودان أن يوقع ببقايا جيش الزبير

باشا في فخ بقصد القضاء عليه، لكن رابحا هرب من هذه المصيدة مع مجموعة من الزنوج المخلصين وشق طريقه، وبنى جيشه النظامي وجهزه بأحدث الأسلحة الحربية التي حصل عليها من تجار الرقيق، ومن الأوروبيين ومن زعماء القبائل المجاورة [1].

تقدم رابح مع مجموعة من هؤلاء الزنوج إلى دارسولا وهي إحدى المناطق المستقرة والمستقلة بين دارفور وواداي، ثم استقر في دار رونجا (Runga) على نهر أكوديبي (Aukudebee)، وعندئذ كتب إلى يوسف سلطان واداي يعرض عليه حمايته، لكن يوسف رفض العرض، وأرسل قوة ضد رابح، لكن انهزمت هذه القوة.

وفي أوائل عام 1884 دعا السيد محمد أحمد المهدي في السودان رابح الزبير للاعتراف بسلطته، لكن رابحا لم يرد على خطاب المهدي، وتوسع رابح حتى ضم دار رونجا في الجنوب الغربي من دارفور[2].

وفي عام 1887 قام الخليفة عبد الله التعايشي خليفة المهدي بالاتصال برابح عن طريق ابن عمه عثمان آدم، ولكن دون أن يحقق أي نتيجة [2]. وفي العام التالي أرسلت فرنسا بعثة بقيادة بول كرامبل إلى أفريقيا الوسطى، ونجح في اكتشاف الجزء الشمالي للكونغو الفرنسي. ولما أصيب بالحمى عاد إلى فرنسا، لكنه عاد ثانية عام 1890 لاستكشاف المنطقة الواقعة بين الكونغو وبحيرة تشاد. والتقت قوات كرامبل رابح فضل الله بالقرب من بلدة كوتي. ورغم أن المصادر لم تذكر شيئا عن حدوث اشتباكات بين قوات كرامبل ورابح إلا أن مقتل كرامبل ظل سرا غامضا.

ويرى مؤرخ آخر أن رابحا قد أخذ حوالي 300 مسدس من حملة كرامبل، كما بلغت معدات رابح بعد مقتل كرامبل حوالي 150 مسدسا بالإضافة إلى 370 مسدسا من نوع آخر، وأيضا 2500 بندقية مع عدد كبير من السيوف[1].

ومهما اختلفت الآراء حول مصرع كرامبل فإنه من المؤكد أن هذا الرجل قد لقي مصرعه على أيدي المسلمين، وأن رابحا قد استفاد كثيرا من مصرعه حيث ساعدت الأسلحة التي حصل عليها من كرامبل على تقوية جيشه، وشجعته على إقامة قواعد إمبراطوريته، وأدرك أنه إذا لم يوحد القبائل المتفرقة في حوض نهر شاري وفي ضفاف بحيرة تشاد فإنه لن يستطيع السيطرة على هذه المناطق، أو الوقوف في وجه التوسع الفرنسي.

ثانيا: رابح والقوى المحلية

بعد أن أتم رابح استعداداته قرر تأديب مملكة واداي التي تحالفت ضده، وقد أرسل سلطان واداي حملة ضد رابح من حوالي عشرين ألف رجل لإنقاذ دولة باجرمي المجاورة لها من هجوم رابح، لكن هذه القوة اضطرت إلى التراجع أمام جيش رابح الذي لم يكن يقل عن سبعين ألف مقاتل من الرجال الأقوياء [2].

لم يحاول رابح إضعاف قوته في حروب طويلة مع مملكة واداي، فرفع الحصار واتجه نحو الغرب حتى وصل إلى نهر شاري، وتمكن من القضاء على القبائل الوثنية هناك مثل: قبائل الملتوس (Miltous)، والبواس (Bouas)، والساراس (Saras)، والاليتونز (Alitons). واستطاع رابح أن ينشر الدين الإسلامي بين سكان هذه القبائل، وواصل رابح تنظيم شؤون القبائل على ضفاف نهر شاري حتى عام 1893 [1].

تحرك رابح شمالا لإتمام هدفه الكبير في دولة باجرمى الإسلامية التي تقع في وسط أفريقيا، واضطر رابح إلى الهجوم عليها ليفتح الطريق إلى ما وراء نهر شارى غربا، فهاجم مدينة مانهافا الواقعة في حدود هذه الدولة واستولى عليها، وفضل أميرها أن يستسلم للفرنسيين في عام 1894 وعقد معاهدة معهم. وفي عام 1897 زار الكولونيل إميل جنتيل باجرمى حيث استقبله السلطان جورانج استقبالا حسنا في عاصمته ماسينا، وعقد معه معاهدة صداقة وتحالف ضد رابح [2].

وما أن عرف رابح بذلك التحالف بين الفرنسيين وباجرمى حتى هاجم سلطانها جورانج واستولى على كل دولته، وتوالت انتصاراته وتوسعاته في المنطقة. وكانت الآمال تراوده في غزو إمبراطورية البرنو، وقرر البدء بهذه العملية في ديسمبر عام 1893، وأخذ سلطانها على غرة من دون أن يستعد لهذا الهجوم المفاجئ، واضطر السلطان هاشم إلى ترك أنجورون (Angoron) وكوكا العاصمة، وهرب عبر النهر إلى زندر [3].

وكانت برنو تعاني حربا أهلية وانقسامات داخلية، حيث إنه بعد موت السلطان إبراهيم تنافس على العرش كل من محمد زاهر، والشيخ هاشم، وكلاهما ابن لأخوين يتناوب الحكم على دولة برنو، وقد تم اختيار الشيخ هاشم سلطانا، لكن حدثت فترة اضطرابات وقلاقل حول مسألة وراثة

العرش، وازداد عدد اتباع محمد زاهر لكنه عجز عن تولي عرش البلاد دون مساعدات من الخارج، لذا فقد لجأ إلى عون رابح فضل الله الذي لبى النداء، واعتبرها فرصة لا تعوض. فسار بجيشه نحو العاصمة كوكا (Kuka) واستولى عليها. وبدلا من أن يعين محمد زاهر سلطانا حسب الاتفاق بينهما، فإن رابح فضل الله تصرف بشكل فردي كأنه سلطان برنو. فاضطر محمد زاهر إلى اللجوء لابن عمه هاشم في محاولة لتسوية الأمور بينهما، وعلى أساس تقسيم الدولة بينهما. وبعد أن وافق الشيخ هاشم على مقترحات محمد زاهر، قام بمقاومة رابح الزبير، واضطر رابح إلى الجلاء عن كوكا. وسرت إشاعات عن أن رابحا قد قتل ولكن لا صحة لهذه المعلومات التي وصلت إلى جوستن الفاريز في طرابلس [1].

وقد أحدثت هذه الاضطرابات شللا كاملا في تجارة برنو، وتفيد المخابرات البريطانية أن رسولا خاصا قد وصل إلى الجنوب يحمل رسالة من سلطان واداى إلى الشيخ السنوسي يعرب فيها عن القلق الشديد بسبب نجاح هجوم رابح، ويطلب النصح والإرشاد من المهدى السنوسي [2].

ويقال إن المهدى السنوسي قد شجع سلطان واداى، لكن نصحه بعدم مهاجمة قوات رابح، وأن عليه الوقوف موقف المدافع. وأن يكون حذرا لأي تطورات قد تحدث. واستمرت سلسلة المراسلات بين سلطان واداى والمهدي السنوسي فيما بعد.

وكان الشيخ هاشم يرغب في تجنب القتال مع رابح، لكن ابن أخته ويدعى كيارى قتل خاله وتولى الحكم بدلا منه، وقاد رجاله وسار بهم لمواجهة رابح، والتقت قوات كيارى مع جيش رابح بالقرب من مدينة كوكا العاصمة عام 1894 وذلك بقصد التنكيل برابح وجيشه [1].

ودارت معركة عنيفة استمرت يوما كاملا حقق فيها كيارى نصرا على رابح واستولى على معسكره، وارتكب أفظع الأعمال الوحشية ضد رجال رابح، وفي تلك المعركة جرح فضل الله بن رابح جرحا خطيرا، لكن رابحا لم يستسلم، وأعاد توزيع الذخيرة على القوات، وفي الصباح هاجم معسكر برنو من جديد. وعجزت قوات برنو عن الصمود طويلا أمام تلك المفاجأة من جانب قوات رابح التي أصرت على الثأر بأي ثمن، وهرب الجنود، وفضل كيارى الاستسلام لرابح الذي أمر بتنفيذ حكم الإعدام فيه جزاء لما

اقترفه من قتل النساء والأطفال والشيوخ. وواصل رابح المسيرة إلى كوكا العاصمة حيث وجدها خاوية على عروشها، فبدأ بتعميرها من جديد بعد أن أخضع بقية أطراف مملكة برنو لسلطانه [2].

وبعد فترة وجيزة انسحب رابح من كوكا، واستقر في مدينة دكوة التي تبعد قليلا إلى الجنوب الشرقي من بحيرة تشاد، والتي تمتاز بموقع حصين من كوكا، وفي هذه المدينة بدأ رابح يرسى دعائم دولته من هذه العاصمة، فأدخل ضريبة الرأس بمقدار دولار على الفرد باعتبار أن هذه هي أبسط وسيلة لزيادة مصادر الدخل، وبذل ما في وسعه لتشجيع الطرق التجارية، وطرق القوافل مع طرابلس [3].

ودانت له كل بلاد برنو، وتوسعت إمبراطوريته لدرجة أنه فكر في غزو إمبراطورية الفولاني في سوكوتو حيث تشير التقارير إلى أن رابحا جمع جيشه في بورساري (Borsari) ما بين كوكا وكانو، واستعد لغزو سوكوتو لكنه أحجم عن هذه الفكرة بسبب نقص الإمدادات اللازمة لمثل هذا الغزو. وهناك شك في هذه التقارير لأن السيد والاس وكيل شركة النيجر الملكية أشار إلى أن العلاقات بين رابح والخليفة في سوكوتو كانت ودية للغاية عندما زار سوكوتو في عام 1894 [1].

لكن يبدو أن علاقات رابح بدولة سوكوتو قد توترت بعد عام 1896، حيث تشير التقارير إلى أن الخليفة في سوكوتو قد منع التجارة مع برنو. كما أن رابحا أرسل ابنه فضل الله للإغارة على دار زندر إحدى أحياء برنو الواقعة شمال سوكوتو، لكن نجاح هذه الحملة كان محدودا.

وفي أغسطس 1898 تقدم رابح بقوة من أربعين رجلا نحو دولة سوكوتو، وصار على بعد مسيرة ثلاثة أيام من مدينة كانو، لكنه لم يواصل المسيرة بسبب قدوم حملة فرنسية بقيادة إميل جنتيل فاضطر للانسحاب [2].

ثالثا: تكوين إمبراطورية رابح:

بعد أن أخضع رابح برنو، بدأ تنظيم الإدارة والحكم فيها، ونشر الحضارة بين ربوعها حيث قسم البلاد إلى مقاطعات جعل على كل منها حاكما من أعوانه المقربين إليه، وكان رابح يمثل السلطة العليا التي تصدر الأوامر والقوانين. وبلغت إمبراطورية رابح حوالي مائة وخمسين ألف كيلو متر

مربع، وتضم أكثر من خمسة ملايين نسمة [3].



شكل رقم (12)

واستقر رابح في بلاد برنو، ونقل عاصمته من كوكا إلى مدينة دكوة التي صارت عاصمة له مدة سبع سنوات، واتخذ من الدين الإسلامي وشريعته الغراء أساسا للحكم في الإمبراطورية، وصار القرآن دستور هذه الدولة، وأخذ الناس يزدادون تمسكا به، فاستتب الأمن، واستقرت الأمور، وأحبه البررنيون، وتنازلوا عن كثير من المناطق له [1].

واتسم نظامه باللامركزية، وظل يحمل لقب أمير الذي أطلق عليه منذ عام 1880، وأعطى رؤساء الألوية والوكلاء والنبلاء سلطة إدارية على أن يحاسب كل واحد منهم أمام مجلس استشاري تحت رئاسته شخصيا [2].

أما الناحية القضائية في دولة رابح فقد كانت مدنية يتولاها الفقهاء الذين يعينهم رؤساء المقاطعات، ويرتكز القضاء على الشريعة الإسلامية، ولم يتدخل رابح قي شؤون القضاء إلا في حالات استثناء نادرة [3].

أما بيت المال في دولة رابح فكان يحصل على موارده من الغنائم والغرامات والزكاة، والأموال التي تصادرها الدولة من الأفراد، واعتمد رابح في بعض الأحيان على تجارة الرقيق لسد حاجة الجيش من الأسلحة إلى جانب ضريبة الرأس على سكان المناطق التي دانت لسيطرته.

أما جيش رابح فكان يتكون من مجموعتين كبيرتين: إحداهما في دكوة بقيادة رابح فضل الله نفسه، وعندما غادر رابح بحر الغزال في عام 1879 كان يرافقه ما بين ألف وستة آلاف من الزنوج بما فيهم حوالي ثلاثمائة من حملة البنادق. وارتفع هذا العدد إلى خمسة عشر ألف رجل في عام 1887. وفي عام 1890 وصل هذا الجيش إلى ما بين ستة عشر وسبعة عشر ألف جندي من الزنوج وعرب دارسولا وأولاد راشد والبقارة من التعايشة والقبائل الأخرى [4].

ويشير شاهد عيان في نهاية عام 1891 إلى أن قوة رابح بلغت حوالي عشرين ألفا من المشاة المسلحين بالبنادق، وحوالي خمسة آلاف من الفرسان، ويقول أحد شيوخ طرق القوافل إن جيش رابح الدائم في عام 1896 كان يتكون من أربعين ألف رجل معظمهم من الخرطوم، وإن الجيش يطبق النظام المصري في كل الأمور كما يضم الجيش حوالي خمسة عشر من السنغاليين الذين ينتمون إلى جماعة كرامبل. وقد مات من السنغاليين حوالي تسعة وبقى منهم ستة فقط [1].

ويضم الجيش حوالي تسعا وعشرين فرقة عسكرية يتراوح عدد أفراد كل فرقة ما بين ألف رجل وألف وخمسمائة رجل. وكان الجندي في الجيش يتلقى تدريبا شاقا، وكانت الأسلحة التي يمتلكها رابح عبارة عن بنادق ريمنجتون طراز 1840. وكان الجيش أيضا يضم السيوف والرماح والسهام، والأسلحة النارية [2].

وفي كل يوم جمعة كان رابح يقوم بالتفتيش على قواته، وعند حدوث أي قصور في الاستعدادات يستدعى الضابط المسؤول عن الفرقة ويقوم بجلده[3].

ومن التقارير السابقة لشهود العيان ولرجال المخابرات البريطانية نجد أنه من الصعب تحديد عدد جيش رابح لأن هذا الجيش كان يتغير من معركة لأخرى، وحسب عدد المنضمين لهذا الجيش بعد غزو مناطق جديدة. وإذا كانت التقارير غير دقيقة في عدد القوات فإنه من الصعب تحديد عدد البنادق.. فأحيانا يعطيا شيخ القوافل القادمة من برنو رقما عن عدد البنادق يصل إلى حوالي ألف وخمسمائة بندقية، كما يثير تقرير آخر إلى أن عدد البنادق بلغ خمسة آلاف بندقية. وكان رابح مضطرا إلى التوقف عن حملاته بسبب الحاجة الشديدة إلى الأسلحة. وفي إحدى المرات اشترى ألف جمل محملة بالبارود من سلطان واداى [1].

هذا وقد ورد في تقرير المخابرات البريطانية عن تحركات رابح أن أسلحته بلغت ثمانية آلاف بندقية، وأن الرجال الذين لا يجدون سلاحا كانوا يحاربون بالسيوف والرماح والقسي. وكان الصيادون يشكلون جزءا من الجيش [2].

وانضم إلى جيش رابح قوات الشيخ حيات بن سعيد أحد أحفاد الشيخ عثمان في سوكوتو، والذي علم بقدوم رابح إلى الغرب فترك مدينة أدماوا (Admawa) مع نوابه، وانضم إلى رابح بعد أن علم بتأييده للمهدية [3].

هذا وقد كان رابح يسعى لإيجاد قوة آمنة لتجارته في إمارة ميسو إحدى إمارات دولة سوكوتو بعد التفاوض مع أميرها. وفي عام 1895 ترددت الإشاعات بأن رابحا سوف يهاجم كانو، وهذا ما أثار الرعب في الإمارات الشرقية لدولة الخلافة في سوكوتو، فأصدر الخليفة أمرا بعدم التعامل مع رابح، لكن رابحا هدد أمير كانو إذا رفض التعاون معه [4].

وفي أوائل عام 1897 هاجمت قوات رابح بقيادة الشيخ داب (Dab) دولة سوكوتو، وهرب أمير كانو، وقد أثارت هذه الحادثة رعبا في نفوس الناس وعمت الفوضى إمارات ميسو وكاتاجم وهاديجيا (15).

وكان من الممكن أن يتوسع رابح في إمارات دولة سوكوتو التي وقفت إماراتها الشرقية عاجزة أمام هذا المغامر الجريء، ولم ينقذ هذه الإمارات إلا اتجاه قوات رابح نحو الشرق لمواجهة بعثة فرنسية كانت قد تقدمت نحو برنو من الجنوب، وكان اتجاه فرنسا نحو باجرمى وتوقيع معاهدة مع سلطانها في عام 1897 قد أجبر رابحا على اقتحام باجرمى ومن ثم بداية الصراع مع الفرنسيين [6].

رابعا: رابح والصراع مع القوى الأوروبية

بعد أن أقام رابح دولته على الشريعة الإسلامية الغراء أعلن أنه سوف يشن جهادا إسلاميا ضد المسيحيين، وضد القوى التي تتحالف معهم ضده (1). وحاولت الدول الأوروبية وخصوصا بريطانيا وفرنسا تحسين العلاقات بإمبراطورية رابح، فاستخدمت الدولتان كافة الوسائل لتحسين العلاقات به خشية الدخول في صراع قد لا يكون في صالحهما. وكانت فكرة الدخول في علاقات طيبة معه قد أثارها السير ايفلن بارنج (Evelyn Baring) في يونيه عام 1891 في خطاب إلى اللورد سالسبوري، لكن لم يحرك سالسبوري ساكنا، ولم يحدث تطور في هذا الاتجاه حتى عام 1893. وفي عام 1894 حاولت بريطانيا الاستعانة بسيده القديم الزبير باشا رحمت الذي أرسل في الرابع من أبريل 1896 رسالتين إلى رابح، لكن إحداهما وقعت في أيدي الأتراك في طرابلس، بينما وصلت رسائل أخرى إلى رابح وقام بالرد عليها معلنا استقلاله عن الزبير باشا [2].

وعندما التقى الكولونيل وينجت الزبير باشا في أغسطس عام 1898 أفاد بأنه تسلم رسالة من مراسل في بنى غازي، وكان قد وصل من دكوة، وأفاد بأن رابحا ينكر كل معلوماته عن الزبير، بل إنه حجز ثلاثة من رسل الزبير وأعدمهم، وأصر رابح أن لا علاقة له بالأوروبيين المسيحيين إلا الحرب [3]. وأرسل اللورد لوجارد إلى وزارة المستعمرات في الثامن من فبراير عام 1899 بعض الملاحظات عن تقرير حكومته حول رابح فضل الله

ومنها:

أولا: عدم الالتحام المباشر مع رابح فضل الله، ومحاولة الاستفادة منه، وذلك لأن الحملات الفرنسية والألمانية سوف تلتحم مع قوات رابح على بحيرة تشاد، ومن المحتمل أن يضطر رابح إلى التوجه شرقا، ومن ثم تنقطع اتصالاته بمناطق النفوذ الإنجليزية [1].

ثانيا: وعورة المنطقة، وبعد المسافات، وقلة القوات البريطانية الموجودة في قوة حدود غرب أفريقيا تجعل من الصعب الدخول في صراع مع جيش رابح القوي، والذي يمكن أن يحمل البريطانيين خسائر فادحة، وسوف يضيع المال العام في إرسال قوات كبرى لإصلاح ما يترتب من أخطاء، كما أن شركة النيجر بمواردها المحدودة سوف تتحمل خسائر كثيرة للدفاع عن سمعتها.

ثالثا: إن طرق التجارة القادمة من طرابلس وغيرها من دول البحر المتوسط، ومن شرق النيل والسودان تلتقي عند بحيرة تشاد. وبالتالي يمكن تطوير هذه الطرق لصالح البريطانيين وحجب محاولات الفرنسيين لتمويل التجارة بإقامة تجارة مع رابح فضل الله من العاج ورش النعام والحيوانات وغيرها من المنتجات المحلية.

رابعا: إن مناخ منطقة النيجر مثل كل الأنهار الأفريقية الكبرى يعد بمثابة مقبرة للرجل الأبيض، وبالتالي تصعب المغامرة بإرسال أعداد كبيرة من البريطانيين.

وواضح من توصيات لوجارد وملاحظاته أنه يحاول عدم الاحتكاك برابح فضل الله حتى لا يشتت جهود قواته المحدودة، وأنه يفضل الانتظار حتى يدخل رابح في صراعات مع الدول الأخرى مثل فرنسا، وبالتالي ينتهي نفوذ هذا الرجل، ويستفيد البريطانيون من هذا الصراع دون أن تتحمل الميزانية البريطانية أي تكاليف مادية أو عسكرية في وقت مازالت قوة حدود غرب أفريقيا البريطانية محدودة، وتحتاج إلى دعم كبير لكي تواصل مهمتها بنجاح.

أما من جانب فرنسا فإن الوضع مختلف تماما، ذلك لأن الفرنسيين كانوا قد خططوا لضم المنطقة والاتجاه شرقا نحو بحيرة تشاد والقضاء على قوة رابح فضل الله، وهو الأمر الذي سيجعل الالتحام ضروريا بعد

فشل المساعي السلمية في عقد اتفاق معه أسوة بالبريطانيين. ففي عام 1896 حاولت الحكومة الفرنسية الحصول على خطابات توصية مماثلة من الزبير باشا رحمت سيد رابح القديم.. وسلمت نسخة من هذه الخطابات إلى السيد إميل جنتيل الذي كلّف بالقيام بحملة إلى برنو عن طريق الكونغو وباجرمى وضهر شارى. كما أرسلت فرنسا نسخة أخرى مع الكابتن ماركوس جبريل جازاماجو (Marcus Gabriel Cazamajou) قائد الحملة الأخرى التي اتجهت لتحديد خط السكك الحديدية بين ساى (Say) وبارو (Barrua) طبقا للاتفاق بين الإنجليز والفرنسيين، وكانت فرنسا تأمل في أن تصل هذه الخطابات إلى رابح، وأن يقبل توقيع معاهدة حماية معهم [1].

وتوضح هذه المساعي الفرنسية أن محاولات الاتصال برابح وعقد معاهدة حماية معه كانت من الأمور العاجلة التي توضح مدى التنافس بين الإنجليز والفرنسيين لكسب ود رابح فضل الله، كما نلاحظ أن الأسلوب نفسه اتبعته الدولتان عن طريق الاستعانة بنفوذ سيده القديم الزبير باشا رحمت.

ونلاحظ أيضا أن هذا التسابق المحموم بين الدولتين لم يسفر عن نتائج إيجابية بسبب إصرار رابح فضل الله، وإيمانه العميق بعدم التعاون مع المسيحيين وإعلانه حرب الجهاد ضدهم، وبسبب رفض رابح الامتثال لخطابات سيده الزبير باشا، وهو الأمر الذي يعني في النهاية أن إمبراطورية رابح قد صارت العقبة الأولى أمام توسعات الدولتين في المنطقة، كما أن رابحا يمثل مشكلة كبرى أمام لجان تحديد الحدود بين الممتلكات الأوروبية في غرب أفريقيا، فكان التفكير في القضاء عليه من أهم أسس الاستراتيجية الأوروبية بشكل عام، والاستراتيجية الفرنسية بشكل خاص. ومن هنا بدأ الصراع بين رابح والقوات الفرنسية وهو ما نوضحه بشكل مفصل.

أ-الصراع الفرنسي مع رابح فضل الله:

بعد أن احتل رابح باجرمى ودخل عاصمتها ماسينا طالب المسيو جيلان وزير المستعمرات الفرنسي باتخاذ الإجراءات اللازمة للدخول في حرب مع رابح فضل الله حتى يتقرر مصير المنطقة نهائيا. فأصدرت فرنسا أوامرها إلى إميل جنتيل (Emile Gentil)[1] بالذهاب فورا إلى نهر شارى لمساعدة السلطان جورانج سلطان باجرمى. وعلى الفور اتجه جنتيل في الخامس

عشر من فبراير عام 1897 إلى مدينة برازافيل في الكونغو الفرنسي، ثم اتجه نحو نهر شارى. هذا في الوقت الذي كان رابح قد احتل جبال تجباو الواقعة إلى الشرق من كونو التابعة لقبائل الباجرمى [2].

أرسل إميل جنتيل إلى السلطان جورانج يطلب منه عقد معاهدة صداقة وتحالف مع الفرنسيين، ورحب السلطان الذي ترتعد فرائصه من رابح بهذا العرض، ورحب باللقاء مع جنتيل في ماسينا العاصمة، وبالفعل وصل جنتيل إلى هناك عن طريق أحد روافد نهر شارى. وتم توقيع المعاهدة في 17 أكتوبر عام 1897.

طلب جنتيل من السلطان تزويده باثنين من الأدلاء للتوجه إلى بحيرة تشاد التي تبعد 250 كيلومترا عن ماسينا. وكان جنتيل يخطط لعقد معاهدات مع زعماء القبائل في الطريق، وفعلا عقد معاهدات مع الشيخ وبرى، والسلطان جقرة، ثم عاد إلى فرنسا بعد أن حقق هذا النصر العظيم [3].

وعندما علم رابح بذلك الأمر قام بهجوم جديد لاحتلال ماسينا، وألقى القبض على الزعماء الذين وقعوا المعاهدات الدفاعية مع إميل جنتيل، وأخذهم إلى دكوة أسرى بعد أن أدانهم بالتآمر ضده.

وتقدم رابح بقواته نحو القوات الفرنسية الموجودة في تلال تجباو بقيادة القائد بريتونيه الذي خلف إميل جنتيل عند سفره إلى فرنسا، وهاجمت القوات الإسلامية تلك الجموع الفرنسية وكبدتها خسائر فادحة [1].

أصيب القائد الفرنسي إصابات بالغة لدرجة أنه كان يقود المعارك ضد رجال رابح وهو طريح في صندوق من الحديد حتى لا يشعر أحد من رجاله بإصابته. وقام رابح بهجوم كاسح على دولة باجرمى حيث أثار الرعب في نفوس الباجرميين الذين ولوا الأدبار وفروا أمام عنف الهجوم الذي شنه رابح. وقام رجال رابح باحتلال المواقع الحصينة فوق قمم التلال، وبالتالي صارت القوات الفرنسية فريسة سهلة المنال أمام قواته، وانتهت المعركة بمصرع القائد الفرنسي بريتونيه، وكسب رابح جولة جديدة ضد الفرنسيين وحصل على كثير من مدافع الفرنسيين، وقد أبادت قوات رابح القوة الفرنسية في تلك المعركة التي أطلق عليها «مذبحة تجباو».

كان صدى هذه المعركة مدويا، وتلقى إميل جنتيل هذه الأخبار وقلبه يعتصر ألما على ما أصاب القوات الفرنسية على أيدى المسلمين في تلك

المذبحة، وصمم جنتيل على الانتقام لسمعة فرنسا وكرامتها التي لطخها جهاد رابح ضد الفرنسيين، وقرر الإسراع بالعودة إلى أفريقيا والانتقام من قوات رابح حتى يحفظ هيبة بلاده أمام شعب باجرمى الذي أصيب بحالة من الهلع والفزع، وتملكه اليأس والقنوط إثر هذه الهزيمة التي حلت بهم، بل أسرع عدد كبير من سكان باجرمى إلى الانضمام لقوات الموحدين وجيوش المسلمين، وشعروا أن الاحتماء في كنف المسيحيين لن يقودهم إلا إلى الهلاك في الدنيا والآخرة. وباختصار كانت مذبحة تجباو لطمة كبرى للفرنسيين وأعوانهم، ونصرا كبيرا لجهاد المسلمين بقيادة رابح فضل الله[1].
حيث وصلها في الثلاثين من مارس، ومن هناك تقدم نحو نهر شاري عن طريق حريبنجى، وواصل جنتيل تقدمه حتى بلدة فورت أرشميولت التي تقع على مسافة مائة كيلومتر من كونو حيث كان يقيم رابح. وأصدر جنتيل في الوقت نفسه أوامر إلى الكابتن روبيلو (Robillot) في 13 أكتوبر 1899 بالتحرك نحو كونو للانتقام من رابح.

وكان رابح قد تحرك بقواته نحو الغرب، وتخلى عن رغبته في غزو خلافة سوكوتو حتى يتفرغ لصد بعثة جنتيل، وهكذا كان الصراع البريطاني الفرنسي من العوامل التي جعلت رابحا يصرف النظر عن غزو دولة الخلافة الإسلامية في سوكوتو[2].

وكانت خطة جنتيل أن تسير طوابير المشاة بجوار نهر شاري حتى تتمكن من أن تعسكر مع القوات التي تحملها السفن النهرية في مكان واحد لتأمين هجوم العدو. ولقد عانى جنتيل كثيرا من هذه التحركات خصوصا بعد أن انضم سكان باجرمي إلى قوات رابح فضل الله، وفي النهاية وصلت قوات جنتيل إلى مسافة تبعد قليلا عن معسكر رابح في تلال تجباو، وكانت القوات الفرنسية تتكون من ثلاث فرق بقيادة الكابتن روبيلو.

وفي 28 أكتوبر 1899 بدأت المعركة بين القوات الفرنسية وقوات رابح فضل الله بتبادل المدفعية وطلقات الرصاص بين المعسكرين، وأخذت فرقة الرماة في جيش رابح تتسلق الأشجار لضرب القوات الفرنسية الزاحفة. وقد نجحت هذه الفرقة في إسقاط عدد كبير من الفرنسيين ما بين قتلى وجرحى، وأمطر رابح جيش الفرنسيين بوابل من نيران الرماة الذين أجادوا فن التصويب على الهدف من بعيد، واضطر القائد الفرنسي إلى أن يدفع

بقوات المشاة، وذلك من أجل الالتحام المباشر برجال رابح في الخنادق.

وأمام موجة الهجوم الفرنسي بتلك الأعداد الكبيرة اضطر رجال رابح الموجودون خلف التلال إلى ترك مواقعهم والتوجه نحو المدينة، فتعقبهم الفرنسيون الذين أشعلوا النار في مدينة كونو التي تبعد 300 ميل من كوسيرى. واشتدت أعمال العنف والمقاومة، وصار القتال من شارع إلى شارع ومن منزل إلى منزل حتى اضطر رابح أن يقيم سورا من جذوع الأشجار وسط المدينة للتحصين ضد القوات الفرنسية. وتمكنت فرقة من الرماة في جيش رابح من شق طريقها إلى قلعة تشرف على مواقع الفرنسيين شمال المدينة، وبدأ التصويب من جديد على القوات الفرنسية، وأمام عنف الرماة وأسلحتهم الفتاكة اضطر إلى دفع قوات من الاحتياطي، الأمر الذي أدى إلى حدوث خسائر فادحة في الفرقتين اللتين دفع بهما إلى المعركة.

استمرت المعركة حوالي ثماني ساعات فقد فيها الجانبان خسائر فادحة في الطاقات البشرية والمادية، واستنزفت موارد رابح حيث مات عدد كبير من خيرة قواده مثل عثمان شيكو، والفقيه أحمد باكر. وعلى الطرف الآخر فقد الفرنسيون عددا من أكفأ الضباط وأشجعهم كما جرح القائد الفرنسي روبيلو جرحا خطيرا، وبلغت خسائر الفرنسيين حوالي 46 قتيلا و16 جريحا.

ونظرا للخسائر التي وقعت في قوات الجانبين فقد كان لابد من توقف القتال وانتهاء المعركة دون أن يحسم الموقف لصالح أي من الطرفين. وانسحب القائد الفرنسي عائدا بقواته إلى مدينة فورت أرشمبولت [1].

وقد انسحبت القوات الفرنسية من كونو بعد أن تركتها أثرا بعد عين حيث حولتها لكومة من الدمار والخراب وبالتالي لم يستطع رابح أن يتخذها قاعدة لعملياته الحربية فيما بعد، فتوجه إلى قواعده في الشمال لكي يستعد لجولة ثانية من المعارك مع الفرنسيين، واستقر رابح في دكوة وترك نهر شاري تحت السيطرة الفرنسية حيث تقدم الجنود الفرنسيون بسهولة نحو بحيرة تشاد لبدء مرحلة جديدة من الحرب ضد قوات رابح.

ب- حملات الفرنسيين ضد رابح:

بعد أن منيت فرنسا بهزائم متكررة أمام قوات المسلمين بقيادة رابح فضل الله، وخوفا من التطورات السريعة في المنطقة فقد أصدرت فرنسا

أوامرها إلى قواتها في السودان الأوسط بالتقدم نحو بحيرة تشاد والانضمام إلى حملة القائد إميل جنتيل، كما أصدرت فرنسا أوامر أخرى إلى حملة من بلاد الجزائر بقيادة الضابط الفرنسي لامي (Lamy) للمشاركة. وهكذا كثفت فرنسا جهودها وجمعت قواتها في حملات ثلاث ضد رابح وجيشه في أواخر أبريل عام1900[1].

وتحركت الحملة الأولى من السودان الأوسط تحت اسم الحملة الأفريقية ووصلت إلى بلدة ساي (Say) وكانت تحت قيادة ضابط يدعى جوستاف فوليه، لكن تم عزله وحل محله الكولونيل كلوب. ولكن ما أن سمع فوليه بنبأ عزله حتى استبعد كل الضباط المعادين له، وتقدم على رأس حملة لمواجهة القائد الجديد. ودارت معركة بين قوات الطرفين انتهت بمصرع كلوب لكن تمردت قوات فوليه عليه وقتلته، وانضمت إلى الملازم بالييه الذي استطاع القضاء على التمرد والعصيان وجمع صفوف القوات مرة أخرى تحت قيادة موحدة، وتقدمت الحملة بعد ذلك تحت قيادة الملازم جولاند (Joalland) تجاه بحيرة تشاد حتى وصل إلى حدود منطقة جولفي [1].

وكان معسكر جولاند على الضفة اليسرى لنهر شاري، وكانت مدينة جولفي تبعد فقط مائتي ياردة عن النهر. وكانت جولفي في ذلك الوقت مجرد قرية صغيرة يحيط بها سور من الطين اللين، وتحت حراسة قوات جيش رابح الذي رفض استقبال بعثة فرنسية جاءت للاتصال به قام بإعدام أعضائها في السوق العامة في العاصمة دكوة. وعندما حاول أحد الفرنسيين ويدعى فورو أخذ بعض المناظر لجولفي أطلقت قوات رابح النار عليه من أسوار القرية ودقت الطبول استعدادا للحرب، وعلى جناح السرعة بدأ الهجوم الفرنسي على جولفي تحت قيادة لامي، لكن قوات رابح كانت قد غادرت المنطقة في الليل وأخلت جولفي تماما [2].

وأرسل الكابتن جولاند إلى إميل جنتيل في قاعدته بفورت أرشمبولت أحد رجاله ليخبره بوصول القوة، وما أن علم جنتيل بذلك حتى تحرك في 13 مارس عام 1900 من قاعدته نحو الشمال للقاء به وبقوات الكابتن لامي التي كانت قد بلغت إقليم كانم شرقي بحيرة تشاد. وتم اللقاء بين جنتيل ولامي بالقرب من جولفي حيث كان يعسكر فضل الله بن رابح ومعه ألف رجل، وحاول لامي الاستيلاء على جولفي. لكن بعد الاشتباكات الأولى

ظهرت صعوبة تحقيق هذا بسهولة فقرر الكابتن لامي الزحف على كوسيري الواقعة إلى الجنوب منها واحتلالها حتى يقطع خطوط الاتصال بين فضل الله وبقية جيش المسلمين في قواعده في دكوة [3].

وأدى وجود جيشين صغيرين عدة أسابيع حول مدينة جولفي إلى استهلاك معظم موارد المنطقة، واضطر القائد لامي إلى التحرك بقواته جنوبا عبر المستنقعات التي تحد نهر شاري، ثم عبر النهر إلى مدينة مارا (Mara)، ثم اتجه بجنوده جنوبا. وفي الثاني من مارس شاهد مدينة كوسيري لكنه لم يقرر الهجوم عليها إلا بعد وصول قوات جنتيل ثم يعاود الهجوم عليها. لكن عندما أحس لامي أن التأخير في الهجوم ربما يعني الخوف وضعف القوة غير رأيه وقرر الهجوم على المدينة في صباح اليوم التالي [1].

كانت معركة كوسيري مذبحة مروعة لكلا الطرفين، حيث جمع لامي رجاله وأطلق النيران على المدينة الآمنة. وأمطر أسوارها بوابل من الرصاص حتى أحدث فجوة في سورها، وبعدها اندفع جنود لامي من السنغاليين والجزائريين نحو المدينة التي لم تكن قد استعدت بعد للهجوم الفرنسي الغاشم، وكان الموقف صعبا على قوات رابح التي لم تجد بدا مع عنف الهجوم إلا ترك الأسوار والخروج من المدينة وعبور النهر مع بعض من هرب من سكان المدينة، وكان عدد كبير من السكان قد اضطر تحت ضغط النيران إلى إلقاء أنفسهم في النهر، فمات عدد كبير، وغرقت جماعات كثيرة حاولت أن تتفادى النيران فسقطت في النهر غارقة. ودخل رجال لامي المدينة فأشعلوا النيران في المنازل في محاولة للبحث عن المواد الغذائية كالأرز والعسل والشعير. وقاوم سكان المدينة هذا الهجوم ولكن الحياة أصبحت صعبة في مدينة كوسيري. وفي 2 أبريل 1900 غادر فورو الحملة واتجه نحو الساحل تاركا القيادة للكابتن لامي وحده.

وبعد أن استولى لامي على مدينة كوسيري انسحب فضل الله بن رابح من جولفي واتجه إلى لوجون جنوبي كوسيري. وأقام فضل الله معسكرا في المناطق الريفية المجاورة للمدينة حتى يتربص بقوات الفرنسيين أثناء تحركاتها [2].

ونجحت خطة فضل الله بن رابح حيث صار العدو محاصرا من كل الجهات، وما أن سمع المجاهد رابح نفسه بهذه الأحداث السريعة وتلك

التطورات الخطيرة حتى غادر بجيشه العاصمة، واتجه نحو مدينة كوسيري حيث قوات الفرنسيين بقيادة لامي وفرض عليها الحصار. وكان هذا التكتيك الحربي في حد ذاته عملا رائعا وتخطيطا سليما من قائد حنكته السنون، وخاض معارك عديدة حتى بنى هذه الدولة الإسلامية بعد طرده من السودان. وكانت خطة القائد المجاهد رابح أن يتخلص من عدوه لامي في كوسيري قبل أن ينضم إليه جنتيل بقواته. لكن لم تتحقق آمال رابح في الحصار لأنه حاصر المدينة من ناحية البر فترك الفرصة لجنتيل لكي يصل إليها عن طريق النهر. وهكذا أحبطت خطة رابح التي لو أحكم تنفيذها لإبادة قوة لامي داخل كوسيري. ولأحدث للفرنسيين مزيدا من الخسائر. ولربما تغيرت صورة المنطقة، واستمر أمد المقاومة فترة أطول مما خطط لها رابح نفسه.

واصل جنتيل تقدمه حتى وصل إلى بلدة بوجومان في 15 أبريل عام 1900، هذا في الوقت الذي كان فيه رابح مشغولا بإنشاء خط دفاعي في شمال غرب المنطقة، وكان لامي قد أرسل تقريرا إلى جنتيل عن الحالة السيئة التي عليها رجاله، الأمر الذي جعل جنتيل يعجل بالاقتراب منه، ودخول كوسيري قبل أن يبدأ رابح الهجوم على المدينة. وكان جنتيل يكافح من أجل الوصول إلى كوسيري وسط جو صعب وظروف قاسية، وصعوبة المواصلات في هذه الأجزاء من القارة الأفريقية. وأخيرا تمكن جنتيل من الوصول إلى كوسيري قبل أن تنفذ مؤن وذخائر لامي، وصارت القوة الجديدة داخل مدينة كوسيري حوالي سبعمائة رجل [1].

وهكذا استطاع جنتيل أن يتسلل بسهولة نحو مدينة كوسيري، وانضم إلى قوات لامي، وتجمعت الحملات الفرنسية الثلاث في هذه المدينة في الوقت الذي كان رابح قد اختار موقعه في مكان مرتفع على أحد أجزاء نهر شاري وفي مكان حصين استعدادا لمعركة مصيرية مع القوات الفرنسية. وكان عليه أن يواجه هذا الحشد الفرنسي لحملات ثلاث بالإضافة إلى السلاطين المحليين وخصوصا السلطان عبد الرحمن جورانج الذي كان يساند الفرنسيين، ويجاهد مع المشتركين ضد المناضلين المسلمين، وكان عونا لهؤلاء المسيحيين في حروبهم ضد رابح فضل الله حيث زودهم بكل ما يحتاجون إليه من طعام وشراب ومعلومات. وكان هذا التحالف بين القوى المحلية وقوات الغزو الأوروبي من العوامل التي فتتت جهود المسلمين،

وناصرت أعداء الدين، ولولا هذا التحالف مع الفرنسيين لكان في مقدور رابح ورجاله أن يقاوموا ويصمدوا، ويناضلوا ويحققوا النصر، ولكن كانت هذه طبيعة السلاطين المحليين في كل السودان الغربي، يتنازلون عن سيادتهم وأراضيهم طوعا للأوروبيين وخوفا من زعماء المسلمين المحليين على أمل أن تساعدهم هذه القوى الأوروبية على الحفاظ على استقلالها، فإذا بها تنتهي بالضم والحماية الأوروبية بعد ضياع مناطق كثيرة كانت في أيدي الحكام الوطنيين. كل هذه الظروف جعلت مهمة جيش المسلمين تحت قيادة المناضل رابح فضل الله مهمة تتسم بالعصوية أمام جيش أوروبي حديث، وخلفه بعض الأعوان من السلاطين المحليين [1].

خامسا: المعركة الأخيرة ونهاية دولة رابح

بدأت المعركة الأخيرة بين رابح والفرنسيين عندما تحرك القائد الفرنسي لامي حتى صار على مقربة ميل واحد من معسكر رابح، ومعه القوات من الفرنسيين والسنغاليين وقوات سلطان باجرمي، وتسللت هذه القوات عبر الأعشاب والشجيرات. وفي الساعة الثامنة صباحا من يوم 22 أبريل عام 1900 عسكرت القوات الفرنسية على حافة المنطقة المكشوفة انتظارا لإشارة بدء الهجوم على قوات رابح، وكانت قوات لامي قد التقت ببعض قوات رابح من الرجال الذين كانوا يقطعون الحشائش الخضراء لتغذية خيولهم. وأطلقت قوات الفرنسيين النار عليها فلاذت بالفرار إلى أسوار المدينة. وكان هذا إيذانا ببدء المعركة المصيرية حيث رد رابح على فرقة الفرنسيين بتبادل إطلاق النيران على خطوط المواجهة مما جعل الفرنسيين يكثفون من نشاطهم ويتقدمون نحو خطوط القائد رابح.

وفي الساعة العاشرة من اليوم نفسه أصدر لامي الأوامر لرجاله بإطلاق النار على قلعة رابح، ولما خرجت القوات الفرنسية إلى المناطق المكشوفة أمطرها رجال رابح بوابل من الطلقات التي أحدثت خسائر فادحة في القوات الفرنسية مما اضطر لامي إلى الاستعانة بجيش الاحتياطي الذي صدرت إليه الأوامر بالتقدم لتأييد بقية الفرق العسكرية [1].

وصمدت القوات الإسلامية في تلك المواجهة، ونجحت في تحطيم الموجة الأولى من الهجوم الفرنسي، وساد جو المعركة الهدوء النسبي إلا من بعض

الطلقات التي كانت تنطلق بين الحين والحين. لكن الفرنسيين عاودوا الهجوم حتى استطاعوا فتح ثغرة في خطوط دفاع رابح، واندفعوا من خلالها نحو أسوار المدينة، واشتبكوا مع المدافعين في مذبحة مروعة استخدم فيها المدافعون السلاح الأبيض، وقاوم المسلمون هذه الهجمة الصليبية، واضطر رابح تحت ضغط الهجوم إلى الانسحاب بقواته خارج الحصن الذي دخله الفرنسيون بقيادة الكابتن لامي، ووجد الفرنسيون جثث القتلى من الشهداء في كل مكان، وكان المصابون يمسكون بأسلحتهم ويطلقون النار على الفرنسيين حتى النطق بالشهادة في سبيل الله، وكانت الخيول تتساقط في الشوارع بعد جولاتها ضد الفرنسيين، وازداد الفرنسيون شراسة، مع عنف المقاومة، حتى اضطروا إلى إشعال النيران في الأكواخ. فحولوا المدينة إلى كتلة ملتهبة من النيران، واندفع رجال الطرق الصوفية من المسلمين نحو الفرنسيين القادمين، وكانت معارك السلاح الأبيض والتشابك بالأيدي، والمقاومة في كل شارع ومنزل منظرا ترتعد له القلوب، حيث واجه المؤمنون الجموع الفرنسية بشجاعة وإقدام. ورغم عدم تكافؤ القوتين إلا أن إيمان الرجال بقضيتهم جعلهم يفضلون الاستشهاد في سبيل الله على الاستسلام لقواد المشتركين فكانوا جند الله البواسل الذين كبدوا الفرنسيين خسائر فادحة في معداتهم وأرواحهم، مما جعل الفرنسيين يزدادون تنكيلا بقرى المسلمين الآمنة. واستطاع الفرنسيون أسر عدد من رجال رابح بينما حاول مائتان من رجال الطرق الصوفية الاقتراب من البوابة الرئيسة لكن الفرنسيين هاجموهم وسقط عدد منهم ما بين قتيل وجريح، فكان منظرا بطوليا رائعا لجند الإسلام.

اعتقد الفرنسيون أن رابحا قد انسحب من ميدان القتال تاركا هذا القدر من الخسائر، وعلى أمل ألا يعاود الكرة على الفرنسيين الذين اعتقدوا أن المنطقة قد دانت لهم، لكن المجاهد المسلم بالرغم مما أحاط بقواته، وبالرغم من سقوط مدن كاملة تحت السيطرة الفرنسية، إلا أنه لم يفقد الثقة بالله، ورفض الاستسلام لأعداء الإسلام، فأعاد تنظيم ما بقي من قواته، وعاود الهجوم على الحصن الذي احتله الفرنسيون في محاولة لاسترداده من الأعداء وبالطبع حدث اشتباك، ودارت معركة أشد ضراوة من المعركة السابقة، ولم يتوقف رابح عن القتال إلى أن أصاب القائد

الفرنسي لامي الذي قاد الفرنسيين ضد هذه المدينة الإسلامية، وألحق بها من الأضرار ما لا يصدقه عقل، فقتل الأطفال والشيوخ والنساء، وأحرق المدينة على سكانها وأجبر بعضهم على الهروب من قبل، وإلقاء أنفسهم في النهر. لقد أصاب رابح هذا القائد الفرنسي بطلقة في صدره أردته قتيلا جزاء بما اقترفه من أخطاء ضد المسلمين وعساكر الموحدين.

لقد أرهقت هذه الاشتباكات قوات رابح الذي ظل صامدا ومقاوما حتى النهاية. وبعد أن نفدت ذخيرته، وقل عتاده، ومات عدد كبير من قواده جاءت نهايته المحتومة بعد هذه السلسلة الطويلة من الصراع مع الفرنسيين ومن حالفهم من السكان المحليين، ففي أثناء معاركه مع العدو، وبعد أن انتقم من القائد لامي الفرنسي أصيب هو الآخر بجرح مميت فلم يستطع مواصلة القتال، وارتمى على الأرض بين جثث الشهداء من رجال الطرق الصوفية في يوم 12 أبريل عام 1900 [1].

وفي الوقت الذي كان كل من رابح ولامي يلفظان أنفاسهما الأخيرة واصل جنود الفرقة الأفريقية التابعة للفرنسيين القتال خارج الأسوار مع قوات رابح التي بدأ نظامها يختل تماما، وأطلق أحد الجنود طلقاته على كل الجرحى فأصابت إحداها المجاهد رابح فضل الله الذي أغمض عينيه إلى الأبد بعد أن أدى واجبا بطوليا يستحق أن يسجله التاريخ ضد قوات العدو الفرنسي التي كرست جهودها للقضاء على هذا المجاهد ونضاله، والذي لقن الفرنسيين دروسا في الإقدام والجهاد والنضال. ولم يجعل طريق تقدمهم مفروشا بالورود كما يظنون، بل كبدهم من الخسائر ما لا يحتملون، وجعلهم يكثفون الجهود، ويزيدون من عدد الجنود بقصد القضاء على عدوهم اللدود.

انتشر خبر وفاة هذا الزعيم بسرعة البرق، ولما تطايرت الأنباء إلى مسامع القائد إميل جنتيل لم يصدق في البداية، وطلب إحضار جثة رابح حتى يتأكد بنفسه من الخبر، وبأنه قد قتل، ولما شاهد الجثة وعرف أنها لرابح انحنى هذا القائد الفرنسي إعجابا وخشوعا أمام الرأس التي دوخت الفرنسيين فترة من الزمان، واعترف جنتيل بأنه كان يود أن يمسك رابحا حيا حتى يحميه من الموت لأنه يكن لهذا البطل كل احترام، ولأن هذا الرجل واصل فتوحاته وانتصاراته طويلا وهو يقود الآلاف من الرجال الذين ملأوا

أواسط أفريقيا جرأة وشجاعة[1].

وهناك رواية أخرى بأن رابحا عندما جرح في المعركة مع القائد لامي، نقله أتباعه بعيدا عن مجال المطاردة، ووجده أحد السنغاليين ملقى على الأرض فأطلق النار على رأسه، ولما عادت قوة الفرقة الأفريقية وجدت أن جنتيل قد قرر مكافأة لمن يحصل على رأس رابح فضل الله، فعاد هذا الشخص السنغالي إلى الجثة حيث قطع الرأس وحملها إلى لامي الذي كان يلفظ أنفاسه الأخيرة فسأل الجندي عن أرقام الخسائر فكان الرد حوالي 28 قتيلا وحوالي 75 جريحا، وعرف لامي قبل وفاته أن رابحا قد قتل، ولكنه لم يصدق إلا بعد أن شاهد الرأس، ومات لامي في معركة كوسيري التي أقامت فرنسا قلعة بها أطلق عليها فورت (قلعة) لامي، والتي تحولت بعد ذلك إلى مدينة نجامينا [1].

وهكذا سقطت مملكة رابح بعد فترة مليئة من الأحداث استمرت سبع سنوات من 9 مايو 1893 حتى 22 أبريل 1900، وبعد استشهاد هذا الزعيم المسلم وهو يدافع عن ديار الإسلام، ووصلت أخبار الفجيعة إلى ابنه فضل الله ابن رابح الذي كان موجودا في لوجون وهناك انضمت إليه بقايا جيش والده بعد معركة كوسيري. وخشي فضل الله من الاشتباك مع الفرنسيين قبل أن يستعيد بناء قواته، فقرر الانسحاب من لوجون والاتجاه إلى العاصمة دكوة حتى ينضم إلى أخيه محمد تيابي الذي كان قد أصيب في معركة تجباو.

بعد القضاء على رابح زحف الفرنسيون على لوجون فاستولوا عليها، واستمروا في زحفهم نحو العاصمة دكوة حيث فضل الله وقواته. ولما اقترب الفرنسيون من العاصمة انسحب منها فضل الله ورجاله، ودخلها الفرنسيون دون قتال، واقتحمت القوات الفرنسية سراى رابح بدكوة حيث اتخذتها مقرا للقيادة، لكن أحد الفدائيين نجح في التسلل إلى الدهليز الذي كان رابح يحتفظ فيه بالأسلحة والذخائر، وأشعل فيه النيران التي شبت في المبنى، والتهمت كل الأشياء النفيسة، وتحول القصر إلى حطام وأنقاض [2].

أحس فضل الله أن الفرنسيين عازمون على القضاء عليه وعلى إمبراطورية والده، في الوقت الذي يحاول فيه إعادة بناء جيش قارب على الفناء، وفي وقت فقد فيه كل القواد الأكفاء، وشعر فضل الله أن معركته مع

الفرنسيين لن تعود عليه إلا بالخسران المبين، ولم يعد عنده من السلاح ما يكفيه للقاء الفرنسيين، فبدأ دبلوماسية الحوار مع البريطانيين لعله يستطيع أن يجد فيهم معينا له، خصوصا وأن الصراع بين الدولتين على غرب أفريقيا قد بلغ أشده. فراح يتصل بالبريطانيين، وأرسل رسولا إليهم التقى ببعض البريطانيين عند نهر جوندولا ومعه الهدايا من الخيول والماشية، وأعرب فضل الله عن رغبته في فتح صفحة من الود والإخاء مع البريطانيين واستعداده للقاء بهم والترحيب بوفودهم إليه [1].

وبدأت سلسلة من المراسلات بين فضل الله والبريطانيين. ففي 26 مايو عام 1901 وصل خطاب إلى المستر هيبوياي من مدينة جوني (Gwoni)، وفيه يعتبر فضل الله نفسه صديقا للإنجليز، وطلب منه سرعة الرد حيث يعتزم التوجه إلى فيكا لأن جوني لا طعام فيها ولا شراب ولا قمح يكفي قواته [2].

ولقد أحدثت هذه المراسلات رد فعل عنيف لدى البريطانيين حيث كتب اللورد لوجارد خطابا إلى وزارة المستعمرات في عام 1901 يفيد بضرورة احتلال برنو فورا لوقف التوسع الفرنسي بعد هزيمة رابح، ولوقف المؤامرات الفرنسية التي حطمت كيان البريطانيين في المنطقة خصوصا وأن فضل الله بن رابح لا يزال قويا ولديه عدد من الرجال الأقوياء. وطالب لوجارد بتعيين فضل الله أميرا على برنو على أن تحميه قوة من حدود غرب أفريقيا. ويشير لوجارد في هذا الصدد إلى أن تقارير السيد والاس وكيله في المنطقة تؤكد أن فضل الله قد طرد بقايا الفرنسيين، وهاجم دكوة ونجالا باسم البريطانيين، وأنه أخذ من هناك ثلاثة آلاف بقرة مما جعل الفرنسيين يتعقبونه في المناطق البريطانية، وفي نهاية خطابه أفاد لوجارد أنه سيذهب بنفسه إلى ايبي (Ibi) ويحكم على الطبيعة ما يجب القيام به[3].

واهتمت الحكومة البريطانية بمقترحات لوجارد والرسائل العاجلة. ففي برقية إلى وزارة الخارجية في 15 أغسطس عام 1901 أفادت بأن فضل الله قد اصطحب معه حوالي ألفين من الأهالي المسلحين، وأنه غير آمن في مدينة دكوة بسبب تضييق الفرنسيين الخناق عليه، وأنه يرغب في أن يصاحبه ضابط بريطاني حتى تعرف برنو أنه قد صار تحت الحماية البريطانية، وأن فضل الله على استعداد لأن يحكم هذه المناطق تحت إشراف المقيم

البريطاني، وطالبت البرقية بالتحرك سريعا قبل أن تسقط برنو تحت نفوذ الفرنسيين [1].

وأرسل فضل الله خطابا آخر إلى البريطانيين تسلمه السيد والاس في 12 أكتوبر عام 1901 أفاد فيه بأنه يعتمد على البريطانيين، ويرجو أن يعين محل والده الذي رحل عن هذا العالم، وأنه سيظل مخلصا للبريطانيين طالما بقي على قيد الحياة [2].

واستجابت الحكومة البريطانية لطلب فضل الله حيث أرسل السيد أنتروبس خطابا إلى لوجارد لإصدار قرار الاعتراف بفضل الله أميرا على برنو في 30 أكتوبر عام 1901، وذلك بناء على موافقة مستر تشامبرلين الذي رأى الاعتراف به أميرا على برونو لأن هذا الرجل عدو للفرنسيين بشرط الالتزام بمقاومة تجارة الرقيق، وتنمية التجارة وفتح الطرق التجارية وتطبيق العدالة في المنطقة مع احترام الحدود بين الفرنسيين والبريطانيين والألمان، وأن يقبل المقيم البريطاني ونصائحه. وفي نهاية الخطاب طلبت الحكومة من لوجارد أن يراعي سلوكه وتصرفاته [3].

وبينما كانت الأمور تسير على قدم وساق، والمشاورات مستمرة بشأن الاستجابة لمطالب فضل الله، أدرك الفرنسيون أن علاقات فضل الله بالبريطانيين سوف تقوض جهودهم من أجل السيطرة على إمبراطورية رابح. فقام الفرنسيون بتعقب فضل الله حتى بلدة ديجامبا (Deguemba)، ودارت معركة عنيف أسفرت عن سقوط عدد كبير من الضحايا، وأسر الفرنسيون عددا من جنود فضل الله. ورغم كل هذا لم تلن عزيمة هذا المجاهد الذي واصل الكفاح ضد الفرنسيين حيث اتجه جنوبا حتى بلدة برجامة، وهناك اجتمع حوله عدد كبير من الأعوان والمجاهدين الذين ناصروه، ووقفوا بجانبه إلى أن حقق عدة انتصارات على الفرنسيين [1].

خشيت فرنسا من أن تؤدي هذه الانتصارات إلى ازدياد نفوذ فضل الله وإحياء سيرة والده، والانضمام إلى البريطانيين، فعينت القائد ديستانف (Destanave) للقضاء على فضل الله. وفعلا وجه هذا القائد حملة كبيرة ضد الزعيم المسلم وتم اللقاء بين القوتين في معركة قرب دلتا نهر شاري وسقط فضل الله صريعا على أرض المعركة في أكتوبر عام 1901 [2].

وفوجئ البريطانيون باستشهاد الرجل الذي طالما طلب منهم الدعم

والمساعدة للوقوف أمام الفرنسيين، وألح في استعجال إرسال المساعدات له، ولكن تردد البريطانيون حتى جاء خبر مصرع الرجل الذي عرض عليهم خدماته. وبعد مصرع فضل الله أرسل المندوب السامي لنيجيريا الشمالية برقية يوم ١١ نوفمبر عام ١٩٠١ إلى مستر تشامبرلين أفاد فيها أن فضل الله قد تعرض للهزيمة أمام الفرنسيين في جوجبا (Gujba) وأنه قد لقي مصرعه [3]. وتأكد استشهاد هذا الزعيم في تقرير آخر في الخامس عشر من نوفمبر حيث أفاد بهزيمته في جوجبا، وأن القوة الفرنسية عادت إلى كوسيري بعد أن أسرت عددا من أتباع فضل الله، كما طالبت البرقية بإرسال قوات محلية في الحال إلى برنو للحفاظ على المصالح البريطانية بعد استشهاد فضل الله [4].

وهكذا طويت صفحة جديدة من صراع المسلمين ضد القوى الأوروبية، رفض فيها هذا المجاهد الإسلامي أن يستسلم للفرنسيين، وناضل حتى النهاية وآثر الاستشهاد في سبيل رفع كلمة الله، وبعد أن نفدت كل وسائله وضاعت كل ممتلكاته التي ضمها بعد كفاح طويل ضد زعامات محلية قصيرة النظر لم تعرف كيف تفرق بين العدو والصديق، وارتمت في أحضان أعداء الدين خوفا من زعامة المسلمين، فكان جزاؤها ضياع كل ما ملكت للأوروبيين. ولو عرفت هذه الزعامات المحلية أسلوب الأوروبيين، وتكاتفت مع بني جنسها من الأفارقة لتكونت جبهة قوية قادرة على الصمود والنضال، ولما وجد الفرنسيون مكانا لهم في تلك الأرض الأفريقية، وهو عامل هام كان جديرا بتغيير سير المعارك، وتحقيق آمال الأفارقة في الدفاع عن كيانهم، ولو حدث هذا التكاتف، ووحّد الأفارقة جهودهم ضد الغزو الأوروبي، وساروا خلف زعاماتهم الإسلامية التي تدافع عن العقيدة التي تتعرض لعدوان أوروبي صليبي-لو حدث كل هذا-لغير رابح وابنه فضل الله مستقبل المنطقة السياسي.

لقد استشهد رابح وهو يخوض معارك النضال ضد الأوروبيين. وكان استشهاده عظيما كما كانت حياته عظيمة. وكان جهاده وكفاحه الطويل والمشرف مثار إعجاب الأعداء قبل الأصدقاء، وسجل هذا الإعجاب عدوه اللدود إميل جنتيل الذي انحنى أمام الرأس بعد انتزاعها، وكان تقديره لهذه الرأس التي دوخت الفرنسيين وقادت عساكر المجاهدين سنين طويلة

عظيما. وامتدت روح الجهاد إلى ابنه فضل الله الذي لم يتأثر باستشهاد أعز الناس إليه بل واصل مسيرة الجهاد. ورغم ضياع إمبراطورية كبرى، ورغم عنف الغزو الفرنسي وبشاعته واستخدام أشد وسائل القمع والاضطهاد إلا أن فضل الله جمع ما بقى من المناضلين وأعاد الكرة على الكافرين، وبدأ سلسلة من المراسلات مع البريطانيين حتى يحفظ المنطقة من غزو الفرنسيين. كان فضل الله يلح على طلب المساعدات حتى يواصل الكفاح، ويقضي على تقدم الفرنسيين الذين أطبقوا عليه من كل جانب. فكان الكفاح مشرفا وكان الصمود عظيما وكانت النهاية شهادة في سبيل الله والدين.

لقد استطاع رابح فضل الله خلال سبع سنوات فقط أن يتحكم في منطقة واسعة من غرب أفريقيا بعد أن خرج من «ديم الزبير» مجرد جندي في جيش الزبير باشا رحمت، ورفض طاعة ابنه سليمان الذي ضاع وسط المؤامرات. وتحرك رابح غربا حتى صار سيد نفسه وزعيما لأنصاره ومؤيديه، بل مسؤولا عن مصير منطقة واسعة دانت له بقوة السلاح والنار، وبسط عليها لواء الأمن والأمان. وجعل الدين الإسلامي وشريعته الغراء منهاجا لكل الموحدين. استقرت الحياة رغم عبث العابثين وتآمر المتآمرين، وتحالف حكام وسلاطين محليين مع الأوروبيين من الفرنسيين. طبق الشريعة وأحيا السنة في فترة قليلة، وأمات البدعة وبني جيشا قويا، وصار إماما للمجاهدين ضد الوثنيين. لكن ساء حظه عندما تصادف قيام دولته مع خطة أوروبية لاقتسام القارة الأفريقية.

فكان الصراع المحموم على أراضيه وكان التكالب بين فرنسا وإنجلترا وألمانيا على إمبراطورية شابة فتية عرفت بداية الاستقرار وشبت عن الطوق لتنشر مبادئ الدين، لكن الفرنسيين وقفوا له بالمرصاد، فضاعت جهود المناضلين في صراع لم يكن في الحسبان، وانشغل القواد في حرب ضد الحكام الذين تحالفوا مع الفرنسيين وضد حملات مكثفة جمعتها فرنسا من كل صوب، ووجهتها نحو القضاء على تلك الإمبراطورية الإسلامية، فكان جهاد رابح وابنه فضل الله نبراسا يحتذى وصورة من صور جهاد المسلمين ضد الأوروبيين، تلك الصورة التي طمستها المؤلفات الأوروبية وأشارت إليها في عبارات ثانوية على أنها حركات تمرد انتهت مع أول

هجمة أوروبية. لكن تاريخ الرجل سجلته وثائق عديدة ومعارك مدونة في تقارير رسمية مازالت محفوظة في دور الوثائق الأوروبية، تنبض بروح الجهاد وحركات المقاومة الإسلامية التي قادها زعماء أفارقة ضد الهجمة الأوروبية الشرسة على القارة الأفريقية في أواخر القرن التاسع عشر.

تلك صورة من صور الجهاد أردنا فقط-بقدر ما أتيح لنا من وثائق-أن نلقي بها ضوءا على جهاد المسلمين، ذلك الجهاد الذي تجاهله الأوروبيون وركزوا على بطولات أبنائهم فحفلت مؤلفاتهم بالعديد من الأكاذيب والافتراءات على زعماء الجهاد الذين دافعوا عن دينهم، بل وصل بهم الأمر إلى وصفهم بالجنون وادعاءات المهدية. لكن التاريخ سيظل يذكر جهاد هؤلاء الرجال الذين حافظوا على الإسلام في القارة الأفريقية حتى يومنا هذا.

وهناك شهادة من البريطانيين عن رابح نوردها هنا لنؤكد على عظمة جهاد هذا الرجل، حيث أشار تقرير المخابرات البريطانية عن رابح إلى أنه رجل يتعصب لدينه، له طباع مستقلة، ويمتلك الشجاعة والحكمة، وله من المواهب العسكرية ما جعل منه رجلا عظيما، وحقق لنفسه شهرة كبيرة في جزء من حوض تشاد يشبه إلى حد كبير تلك السمعة التي حظي بها زميل مسلم آخر يدعى ساموري في أفريقيا الغربية. لقد كان رابح مغامرا خطيرا لا يهاب أحدا، ولذا فقد خشي بأسه وجرأته عدد كبير من زعماء المسلمين في المنطقة، حيث حدد سلطان واداي والشيخ السنوسي الاتصال به أو التعامل معه. كما أن سلطان برنو قد عانى الكثير على يديه، وكان يتمنى الثورة ضده لطرده من أرضه، وحتى دولة سوكوتو الإسلامية أوقفت التعامل معه لخطورته، كما أن دولة باجرمي التي ظلت تدلع له جزية حتى عام 1890 لم تتوقف عن الثورة ضده [1].

وكان اتساع الدولة مع عدم التركيز على منطقة معينة فترة طويلة سببا في خوف الزعماء المحليين الذين وجدوا فيه مغامرا يثير الرعب في نفوس الناس. ولم تقف طموحاته عند مكان معين، وكان ذلك سببا في فقدان الثقة به ورفض الزعماء التعامل معه، بل فضلوا التحالف مع قوى الأوروبيين. ولولا هذه الروح الفدائية المغامرة لاستطاع رابح أن يكون جبهة إسلامية، وأن يتحالف مع بقية الزعماء بشكل دبلوماسي وبطريقة تعطيهم الأمان.

ولو حدث ذلك لتغيرت استراتيجيات الدفاع، ولكان عبء النضال الذي واجهه رابح أقل كثيرا مما حدث، ولطال أمد النضال فترة أطول. لكن رغم كل هذا فإن الدور الذي قام به رابح كان مشرفا وجهاده كان نموذجا، واستشهاده في سبيل الإسلام كان عملا بطوليا يحتذى.

6 المسلمون والغزو الأوروبي للصومال

تتميز حركة الجهاد الإسلامي ضد القوى المسيحية في شرق أفريقيا بوجه عام، وفي بلاد الصومال على وجه الخصوص بأنها أكثر عمقا، وأشد صلابة من غيرها من حركات المقاومة والجهاد الإسلامي في بقية أجزاء القارة الأفريقية. ولعل ذلك يرجع في المقام الأول إلى أن هذه المنطقة عرفت الإسلام قبل غيرها وشهدت التحاما بين المسلمين والمسيحيين منذ فجر الدعوة الإسلامية، وذلك لأن المسيحية كانت قد وطنت مراكزها في الحبشة ضد ظهور الأسرة السليمانية في عام 1270 م، وظلت حتى منتصف القرن السادس عشر وهي تعمل على نشر المسيحية في هذه الجهات، وخصوصا بعد أن استردت الأسرة السليمانية وحدتها الداخلية كاملة [1].

وأصبح قيام الأسرة السليمانية مقرونا بحركة صبغ هذه البلاد بالصبغة المسيحية حيث أخذت هذه الأسرة تتطلع إلى السيطرة على الإمارات الإسلامية المجاورة، وصارت منطقة شرق أفريقيا وبلاد الصومال مسرحا لحركة صليبية ضخمة

ليست نابعة من داخل بلاد الحبشة فحسب، بل جاءت نتيجة التحام القوى الأوروبية التي راحت تتعقب المسلمين بعد طردهم من الأندلس في عام 1492، ومحاولات تعقبهم في شمال أفريقيا، والاتصال بملك الحبشة برستر جون بقصد الإطباق على المسلمين من كل جانب للقضاء على ثرواتهم بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح [2].

وكان البرتغاليون في قمة حماسهم الديني بعد طرد المسلمين، وضعف القوى الإسلامية في بلاد المغرب، فانتهزت ملكة الحبشة وتدعى هيلانة فرصة وجود الأسطول البرتغالي في مياه البحر الأحمر والمحيط الهندي، وأبدت رغبتها في التفاوض مع ملك البرتغال عمانويل من أجل السعي لعقد تحالف معه. وقامت بإرسال خطاب إليه أشارت فيه إلى حاجة الحبشة إلى سفن البرتغال لنقل قواتها لغزو مكة وإغلاق البحر الأحمر عند باب المندب. وكانت هذه الرغبة المسيحية تمثل فصلا جديداً من الصراع بين المسلمين والمسيحيين [1].

وتزعم الجهاد ضد هذه القوى المسيحية التي شاركت فيها البرتغال مع الأحباش الزعيم المسلم والإمام الغازي أحمد بن إبراهيم الذي كان لجهاده أثر كبير في نشر الإسلام في شرق القارة، حيث شهد القرن السادس عشر دخول تبادل البدو في حركة الجهاد الإسلامي، وصار دخولها شبيها إلى حد كبير بظهور شعب الملثمين، وتبنيهم قضية جهاد الشيخ عبد الله بن يسن، أو تأييد قبائل الفولاني الشيخ عثمان بن فودي. ولذا كان إسلام قبائل العافار والصومالي نصرا كبيرا لحركة الجهاد الإسلامي في شرق أفريقيا.

استطاع الإمام أحمد بن إبراهيم أن يقف أمام غزو الأحباش الذين اندفعوا إلى غزو إمارة هرر الإسلامية في عام 1527، وهزم الأحباش لأول مرة في هذا الجهاد، ولم يتوقف عند حد الإغارات الخاطفة، بل بدأ يجهز الحملات إلى قلب الحبشة ذاتها. ففي عام 1529 انتصر على الأحباش وواصل غزو بلاد الحبشة من الداخل. وفي عام 1531 دخل منطقة شوا وأمهرة، ونجح المسلمون في السيطرة على جنوب بلاد الحبشة في عام 1535، وهاجم الإمام أحمد منطقة تيجري لأول مرة، واستنجد الأحباش بالبرتغاليين الذين أرسلوا قوة قوامها يزيد على أربعمائة مقاتل من حملة

البنادق لمناصرة الأحباش ضد هذا الجهاد الإسلامي، وهذا ما أعطى المعارك طابعا صليبيا.

واجه الزعيم المسلم البرتغاليين في المنطقة بين أمبا الآجي وبحيرة الشانجي عام 1542، ولقد جرح الإمام المسلم لكنه نجا من الأسر، واضطر إلى الاستنجاد بالوالي العثماني في زبيد الذي أرسل إليه قوة من تسعمائة من حملة البنادق وعشرة مدافع. ورأى فيه العثمانيون القوة المحركة التي تستطيع أن تقود الجبهة الجديدة، فأيدته وناصرته بالمال والرجال والعتاد، واتخذت من تدينه وتقواه وسيلة لإظهاره أمام مسلمي هذه الجهات قائدا دينيا يجمع كلمة المسلمين ويسير بهم إلى محاربة القوى المسيحية. وفعلا عاود الإمام أحمد الهجوم على البرتغاليين والأحباش لكنه هزم قرب بحيرة تانا، ومات هذا المجاهد العظيم. لكن حركة الجهاد لم تتوقف بوفاته، بل استمرت المقاومة فترة طويلة قاوم فيها المسلمون هذا المد الصليبي على ديار المسلمين [1].

وظل الصراع قائما بين المسلمين والمسيحيين في الصومال والحبشة، واتخذ شكلا صليبيا للتوسع على حساب الشعوب المجاورة، ولقد حظي إمبراطور الحبشة منليك الثاني بدعم القوى المسيحية له، فراح يتوسع على حساب جيرانه من الصوماليين. وفي الربع الأخير من القرن التاسع عشر صار القرن الأفريقي هدفا للقوى الاستعمارية خصوصا بعد انسحاب مصر من الصومال وشرق أفريقيا، واعتبار هذه المنطقة أرضا لا صاحب لها.

بدأ التنافس بين القوى الاستعمارية من أجل تقسيم أملاك الصوماليين بين الإيطاليين والإنجليز والفرنسيين. واستفاد الأحباش من عمليات التقسيم، فتوسعوا على حساب جيرانهم طبقا لقرارات مؤتمر برلين لعام 1884/1885 [2].

وفي هذه المنطقة الملتهبة بالصراعات الصليبية، وفي تلك البقعة من القارة الأفريقية يعيد التاريخ نفسه في القرن التاسع عشر بظهور شخصية الزعيم والمناضل المسلم السيد محمد عبد الله حسن الذي قاد جهاد المسلمين وجنود الموحدين ضد قوى المستعمرين من الأحباش والإيطاليين والبريطانيين، وأعاد أمجاد الشيخ الإمام أحمد بن إبراهيم أو أحمد القرين، أي الأشول. وسوف نعرض لسيرة هذا الزعيم والدور الذي قاده في مقاومة

الاستعمار الأوروبي لبلاده.

أولا- نشأة السيد / محمد عبد الله حسن

في أواخر القرن التاسع عشر كانت الطرق الصوفية قد استقرت في بلاد الصومال، وكانت الطريقة القادرية هي أكثر الطرق شيوعا وانتشارا بين سكان الصومال حتى عام 1880، وكانت الطريقة تتركز في كل من بربرة في الشمال، ومنطقة هود في الأوجادين، وكان يتزعمها الشيخ عبد الرحمن الزيلعي (المتوفى عام 1882). وفي الربع الأخير من القرن التاسع عشر بدأت المنافسة من طرق صوفية أخرى مثل الدندراوتية والأحمدية والرفاعية، وأخيرا الطريقة الصالحية التي صارت تنافس الطريقة القادرية [1].

وكان السيد محمد بن عبد الله حسن زعيم الجهاد الصومالي، وبطل المقاومة الصومالية ضد القوى الأجنبية من أبرز خلفاء شيخ الطريقة الصالحية ويدعى محمد بن صالح [2]

واستطاع السيد محمد عبد الله حسن بعد أن اعتنق مبادئ الطريقة الصالحية أن يكون خليفة لمؤسسها، وأن يقوم بنشرها بين سكان الصومال بدرجة أصبحت تنافس فيها الطرق الصوفية الأخرى، وفي الوقت نفسه قاد هذا الزعيم الصومالي الجهاد لنشر الطريقة في مختلف ربوع الصومال، ثم مقاومة التوسع الإمبريالي المسيحي من جانب الأحباش، والتوسع الأوروبي من جانب البريطانيين والإيطاليين. ومن ثم تفرع جهاده إلى شعبتين: إحداهما حملت الصبغة الدينية لنشر مبادئ الطريقة الصالحية، والأخرى حملت الطابع العسكري والجهاد الحربي للوقوف في وجه القوى الأوروبية. وظل هذا الشيخ يحمل السيف ويقود بلاده من نصر إلى نصر مدة عشرين عاما أو تزيد حتى انتهى كفاحه البطولي في عام 1920.

ويشبه نضال السيد محمد عبد الله حسن لتلك القوى الأوروبية جهاد زعماء المسلمين في بقاع أخرى من أرض القارة الأفريقية إن لم يكن يفوقها جميعا في مقاومته لجبهات مسيحية حبشية، وقوى أجنبية متعددة. فهو شبيه بمقاومة الأمير المراكشي محمد عبد الكريم الخطابي، والأمير عبد القادر الجزائري، والأمير السنوسي عمر المختار، وأيضا زعيم المهدية في السودان محمد أحمد المهدي الذي قاد نضال شعبه ضد القوى الاستعمارية

في الفترة نفسها التي بدأت فيها القوى الأوروبية تتوسع على حساب الأملاك المصرية التي خلت بإجبار مصر على الرحيل منها بعد عام 1885 . ونظرا لتشابه نضال هؤلاء الزعماء الأفارقة فقد عقد بعض المؤرخين مقارنة بين الزعيم الصومالي وهؤلاء الزعماء الأفارقة، بل وصفه البعض بأنه مهدي الصومال تشبها بمهدي السودان [1].

ولد الزعيم محمد بن عبد الله حسن في 17 أبريل عام 1864 بالقرب من بوهوتلي (Bohotle) في شمال الصومال، وكان جده الشيخ حسن نور من قبيلة الأوجادين قد استقر هناك وتزوج من إحدى بنات قبائل الدولباهنت، وهي العشيرة المحلية في بوهول، ولم يعرف إلا القليل عن والد السيد محمد عبد الله، لكنه كان مهتما بتعليم ابنه، وكان ينتمي إلى فرع بهجرى من الأوجادين الجنوبية التي كانت تحت الإدارة الحبشية.

أرسله والده إلى مدارس القرآن الكريم. ومنذ طفولته كان يهوى قيادة الأطفال في ساحة الألعاب الرياضية، ودخل إحدى المدارس الإسلامية في الأوجادين للتزود بالعلوم الشرعية، وما أن انتهى من حفظ القرآن حتى شارك أستاذه في تحفيظ الطلاب لهذا الكتاب الكريم، وبدأت مرحلة جديدة من حياته استهلها بالاتصال بالعلماء والشيوخ المحليين بقصد التزود بالمعارف الإسلامية والعلوم الشرعية والأدبية [1].

استطاع السيد محمد عبد الله بذكائه وسرعة استجابته أن يحقق لنفسه مكانة مرموقة بين أهل الفقه ورجال الدين الذين أخذوا برأيه، ولمسوا فيه التقوى والصلاح. وكان عليه مثل غيره من شباب الصومال أن يبحث عن مهنة يمارس فيها نشاطه، ووجد في الصيد والفروسية والملاحة خير من يساعده على صقل قواه البدنية وتدريبه على مواجهة الكوارث والأزمات، والإصرار على تخطي العقبات والمشكلات [2].

وقبل أن يكمل العقد الثاني من عمره كان رصيده من علوم الدين يؤهله لحمل لقب (شيخ)، وهو اللقب الذي أعطاه حق ممارسة إلقاء الدروس الدينية في المساجد، حيث بدأ ينتقل من مركز إسلامي إلى آخر في كل من هرر ومقديشيو ونيروبي وغيرها، فالتقى بالعلماء وخالط رجال الدين، وهذا ما ساعد على صقل مواهبه، وما أن حصل على هذه الجرعة من خلال تلك الزيارات المستمرة حتى أحس بضرورة الاستقرار، فعاد إلى

بلاده حيث تزوج وهو في سن الخامسة والعشرين، وبدأ يكسب لقمة العيش من خلال ممارسة إلقاء الدروس في المساجد [1].

قدمت إليه وفود الطلاب والمريدين الذين وجدوا فيه العالم المثقف الذي يساعدهم على فهم علوم الدين، فأنسوا به، ووقفوا معه، وكانوا نواة جنوده المخلصين [2].

وفي عام 1885 قرر السيد محمد عبد الله التوجه إلى الجزيرة العربية لأداء فريضة الحج وزيارة الأماكن المقدسة، وصحبه في هذه الرحلة ما لا يقل عن ثلاثة عشر رجلا من المخلصين لدعوته، ومن خيرة أصدقائه، وأتاحت له فرصة الحج التعرف على عدد كبير من الفقهاء والمشايخ حيث قابل الشيخ محمد ابن صالح الرشيدي، وانضم إلى طريقته الجديدة، وصار خليفته [3].

وفي الحجاز وقف السيد محمد عبد الله على حال المسلمين، ومحاولات الشعوب الأوروبية تقطيع أوصال الأمة الإسلامية، كما وقف على جهود رجال البعثات التبشيرية التي تسعى إلى نشر الديانة المسيحية في بلاد عرفت الإسلام منذ زمن طويل. كما أتاحت له فرصة الحج معرفة أخبار الثورة العرابية في مصر، وثورة الزعيم محمد أحمد المهدي في السودان، وكيف توحدت أهداف الثورتين من أجل استخلاص الوطن إلى أبنائه من حكم الدول الاستعمارية التي راحت تبسط سيطرتها هنا وهناك في ديار الإسلام والمسلمين.

لقد كانت كل هذه العوامل سببا في ازدياد روحه الثورية وسعيه لشن حرب جهاد ضد قوى الاستعمار الأوروبي التي بدأت هي الأخرى بالسيطرة على أرض الصومال بالإضافة إلى هدفه الأكبر في نشر الدين الإسلامي بين الشعوب التي عرفت الإسلام اسميا. ناهيك عن مقاومة النفوذ الحبشي الذي يطمع في السيطرة والتسلط على بلاده. وباختصار كانت رحلة الحج بمثابة مرحلة الإعداد لهذه المهمة الكبرى وتلك الأهداف الكبيرة والنبيلة.

وفي عام 1895 قرر العودة إلى بلاده عن طريق عدن، وكانت بريطانيا قد أصبحت صاحبة السيطرة على موانئ بربرة وبلهار وزيلع إثر انسحاب القوات المصرية منها، وعندما هبط أرض عدن أحس بمرارة العداوة للمسيحيين. وما أن التقى بأحد البريطانيين حتى طلب منه هذا الرجل

مشاهدة المظلة التي يحملها في يده، ورفض السيد محمد عبد الله الاستجابة لهذا الأجنبي، وذهب بعيدا عنه، لكن البريطاني تبعه، وحاول أن يريه المظلة بالقوة فما كمان من السيد إلا أن دفعه بيده فسقط الرجل في مياه البحر، وتجمع البريطانيون وكلهم دهشة من هذا الرجل الذي يتجرأ على ضرب أحد الأوروبيين، ولولا تدخل رجال الشرطة في عدن لدخل السيد محمد عبد الله السجن هناك.

ومنذ هذه الحادثة أدرك السيد أن التفاهم مع الأجانب أمر صعب، وأن التعامل معهم سيكون أشد صعوبة وقسوة، فازداد حقدا وكراهية لهم، واستقل الباخرة المتجهة إلى بربرة وقلبه مليء بالمرارة والأسى، فوصلها في الثاني من أغسطس 1895 حيث لقي معاملة قاسية من رجال الجمارك الذي طلبوا منه رسوما جمركية على أمتعته، فكان جوابه ومن الذي أعطاكم تصريحا بالدخول في بلادنا. [1].

واستقر الشيخ في ميناء بربرة كخليفة للشيخ عمد صالح صاحب الطريقة الصالحية، حيث قام بنشر تعاليم الطريقة، وتعليم الأهالي أصول العبادة، وانتقل من مكان إلى آخر يخطب في الناس، ويقدم لهم النصح والإرشاد، بل أقام مسجدا ليكون له مقرا ومستقرا للقاء الأتباع والمريدين. وكان لجهوده المخلصة الفضل الأكبر في نشر الطريقة الصالحية التي ازداد أتباعها يوما بعد يوم حتى صارت تنافس الطرق الصوفية الأخرى في بلاد الصومال. وبدأ السيد محمد عبد الله يحث الناس على الجهاد في سبيل الله ضد الأوروبيين الذين يتربصون بالإسلام والمسلمين.

وذات يوم التقى بمحض الصدفة بمجموعة من الأطفال الصغار وهم في طريقهم إلى مدارس البعثة الكاثوليكية الرومانية في بربرة. وكانت هذه البعثة قد اتخذت لها مقرا في بربرة منذ عام 1891، وبدأت تجمع الأطفال اليتامى وتقوم بتعليمهم مبادئ المسيحية، ولما التقى بهم السيد محمد وعرف حقيقتهم، وأن البعثة تقوم بتغيير أسمائهم إلى أسماء مسيحية، ارتعدت فرائصه وقام على الفور بإرسال شكوى إلى المقيم السياسي البريطاني في بربرة يطالب فيها بإبعاد المسيحيين والمبشرين عن أرض الصومال الإسلامية. وكان مرسومه الذي أصدره في عام 1904 خير دليل على هذا الإحساس بالخطر حيث أعلن السيد محمد عبد الله في هذا المرسوم:

«حاربوا الوثنيين بالسيف، والمنافقين باللسان، ولكن نظرا لأن بلادنا في هذه الأيام قد دخلت تحت حوزة الوثنيين الذين أخذوا أموالنا، ونقلوا عنا أخبارنا، فإن حرب الوثنيين والمنافقين يجب أن يكون بحد السيف» [1].

واستطرد السيد محمد عبد الله فيحذر قومه مطالبا بعدم إطاعة المسيحيين، كما طالب بعدم تعليم الأطفال اللغات الأوروبية، وأنه لابد من تلقينهم مبادئ الدين الإسلامي، وحفظ القرآن والعلوم الشرعية. وبدأ السيد يرسم سياسته على أساس ضرورة جمع كلمة الشعب الصومالي، وتوحيد الصفوف لمواجهة العدو المشترك تحت زعامة دينية واحدة. ومنذ ذلك الوقت دخل السيد في طور جديد من حياته استهله بجمع كلمة الصوماليين على رأي واحد وتحت قيادة موحدة، وهو أمر يستوجب الدخول في منافسات وصراعات مع الزعامات القبلية والمحلية التي لا ترغب في أن يسلب منها السيد محمد عبد الله سيادتها على القبائل، أو تفقد ولاء الناس لها، ومن ثم دخل السيد في حرب داخلية مع هذه الزعامات المحلية التي حاولت القضاء على حركته، وإحباط خططه ومشروعاته، وكان عليه أن يحارب في جبهتين، وأن يوائم بين الجبهة الداخلية والخارجية، وأن يزيد من عدد أتباعه الذين يؤمنون بقضية الجهاد، وأن ينشر تعاليم الطريقة الصالحية على نطاق واسع، وبشكل أعم حتى يقف أمام منافسة الطرق الصوفية الأخرى. لكل هذا أصبح جهاد السيد محمد عبد الله حسن نوعا جديدا من الصراع، كما أن حركته تمثل نمطا من أنماط المقاومة ضد الاستعمار والقوى المحلية الإسلامية والوثنية والمسيحية [1].

بدأ السيد محمد عبد الله حملة ضد الأعمال المنافية للشريعة الإسلامية فطالب بإلغاء استيراد الخمور إلى بلاده، كما طالب بعدم إرسال الأطفال إلى المدارس المسيحية، وجاءت حادثة عارضة لتزيد من اشتعال الموقف الذي أوشك على الانفجار، تلك هي حادثة القس الذي كان يقطن بجوار أحد المساجد في بربرة، وكان الأذان يؤرق مضجعة. فقام بإطلاق النار على المؤذن فأشعل بذلك نار الحقد عند المسلمين، وبدأت طلائع الجيش الثوري ضد الأوروبيين، وظهرت حركة مقاومة رجال التبشير والمبشرين. وقام المسلمون بهدم المركز التبشيري في ديمول (Demoil) ولاحقوا القسيس في محاولة الفتك به، وتحطيم كل المراكز التبشيرية. وكان حادث القسيس قد

ترك أثرا عميقا في نفوس الناس وفي نفس السيد محمد عبد الله الذي أدرك أنه لابد من الصراع معهم، وإنقاذ ديار الإسلام والمسلمين من تسلط الكفار والوثنيين [2].

ولما ازداد الموقف اشتعالا اضطرت الحكومة البريطانية إلى طرد المبشرين. وفعلا قامت بترحيلهم على ظهر باخرة إلى عدن، وتعهدت هذه السلطات البريطانية بعدم السماح لهم بالعودة إلى الصومال، ومنع بناء الكنائس في البلاد، وعدم فتح محلات لبيع الخمور[1].

وجاءت حادثة أخرى جعلت السيد محمد عبد الله حسن يعلن الجهاد، ذلك أنه في 19 مارس عام 1899 هرب أحد رجال الشرطة ويدعى هيرس من بربرة إلى السيد محمد حاملا مسدسه، ولم يعرف السيد ما إذا كان الجندي قد اشتراه أم لا. وما أن سمع القنصل البريطاني في بربرة بتلك الحادثة حتى أرسل إلى السيد محمد عبد الله يطلب منه إعادة المسدس، فكان رد السيد قائلا: أيها الرجل إنني لم أسرق منك شيئا خذ ما تريد من الذي سرقك، وأعبد أي إله اخترته لعبادتك، والسلام [2].

وفي أول ديسمبر 1899 تلقى القنصل البريطاني في الساحل رسالة من السيد محمد عبد الله يتهم فيها البريطانيين بالإساءة إلى الإسلام، ويحتقر كل من يتعاون مع الإدارة البريطانية، وطلب من الإنجليز دفع الجزية إذا رغبوا في السلام، وكان رد القنصل على هذا الخطاب بأن السيد محمد عبد الله من الثوار، وحث حكومته على إعداد حملة كبيرة ضد الدراويش. ومن هنا بدأت حركة من المقاومة والصراع بين المسلمين والبريطانيين.

خرج السيد محمد عبد الله من بربرة واتجه إلى نوجال حيث قام بشراء عدد من البنادق الفرنسية، واستقر به المقام في مسقط رأسه حيث أقام مسجدا وبدأ يعلم الطريقة الصالحية، ولكن في مارس عام 1900 حضر بعض الجنود الأحباش من هرر بقصد جمع الضرائب من السكان الصوماليين في منطقة أوجادين فما كان من أتباع السيد محمد عبد الله إلا أن شنوا هجوما عنيفا عليهم وعلى المعسكر الحبشي في جكجكة واستولوا على عدد كبير من الأسلاب. ولقد اختلفت تقديرات هذا الهجوم على جكجكة حيث وصف قائد الجيش ويدعى جيرازماتشي باني هذه المعركة فيقول:

«في الساعة الثامنة وصلت قوات العدو أمام القلعة، وكانوا كثيري العدد ولم تستمر المعركة أكثر من خمس دقائق قبل هروبهم وخلفهم جنودنا الذين دمروهم» [1].

لكن التقارير الأخرى تشير إلى أن قوات السيد محمد عبد الله قد اقتحمت مواقع الأحباش التي كانت ترتعد من القوات الصومالية التي فضلت الموت على الحياة. ولكن مهما اختلفت الروايات على حادث الهجوم الصومالي فإن الذي يفيد في هذا المقام أن تلك الحادثة وجرأة الهجوم الصومالي على الأحباش تعتبران حدثا فريدا لم يسبق أن واجهه جيش الأحباش، وكانت هذه الواقعة بداية تحالف بين الإمبراطور منليك والبريطانيين من أجل ضرب تلك الحركة الناشئة قبل أن يستفحل أمرها بزعامة الشيخ الصومالي.

كان هذا التحالف بداية مرحلة جديدة من الصراع بين السيد محمد عبد الله والقوى الأوروبية، واعتبر الشيخ تحالف الأحباش مع العناصر الأوروبية بمثابة إعلان الحرب على المسلمين، وبالتالي أحس السيد أن الوقت قد حان لإعلان الجهاد المقدس، وفي خطاب عام طالب السيد محمد بحمل السلاح والإيمان بالله عز وجل، والصبر على الشدائد، وتدريب النفس على الجهاد في سبيل الله والدين والعقيدة [2].

ومن هنا تبدأ حركة جهاد السيد محمد عبد الله حسن ضد القوى الأوروبية. وهكذا صار السيد قائدا سياسيا وزعيما دينيا في منطقة الأوجادين، واستطاع أن يخضع القبائل المجاورة لزعامته، وأدركت سلطات المحمية أنه لابد من اتخاذ إجراء حاسم وسريع ضد هذا المجاهد لأنه لو استمر على هذا المنوال فإن القبائل الموالية للبريطانيين ستضطر في النهاية إلى الاتفاق معه أو الموت جوعا بسبب الحصار. كل هذا جعل العمل المشترك بين الإمبراطور الحبشي والكولونيل البريطاني سواين (Swayne) أمرا محتما. ومن هذا المنطلق نبعت فكرة إرسال الحملات البريطانية ضد هذا الملا المجذوب حسب زعمهم وهو ما سنعالجه بشكل مفصل.

ثانيا: صراع السيد محمد عبد الله ضد البريطانيين

بات واضحا أن الصدام بين البريطانيين والأحباش من جهة، وقوات

السيد محمد عبد الله حسن من جهة أخرى قد صار أمرا محتما، ولذا فإن بريطانيا أعلنت عن إرسال الحملات العسكرية ضد القوى الإسلامية، وأسندت القيادة إلى الكولونيل سواين (Swyane)، كما جهزت الحبشة جيشا ضخما بلغ عدد أفراده حوالي خمسة عشر ألف مقاتل تحت قيادة جابري، وكلفت الحكومة البريطانية السيد همفري تراس التابع لفرقة فرسان الحرس الملكي بالتنسيق بين قوات الطرفين.

وكانت المهمة التي كلفت بها القوات الحبشية هي قطع خطوط الإمدادات عن الدراويش إذا حاولوا الاتصال بالقوات الصومالية الأخرى في أراضي جوبا، أو عندما يقدم شعب الأوجادين المساعدات لهم، كما تم تكليف إيطاليا بالضغط على سلطان ميجرتين لمنع وصول أي مساعدات للسيد محمد عبد الله، وأيضا لمنعه من الهروب للساحل، وبالتالي يمكن الإطباق عليه من كل جانب في عملية واحدة [1].

لكن قائد الجهاد الإسلامي عرف بكل تفاصيل هذه الخطة الأوروبية، فقام بتوزيع قواته ناحية الشرق، واستقر في منطقة بوهوتلي على حدود المحمية البريطانية وذلك في أوائل يناير عام 1900. وبعد ذلك بدأت الاشتباكات بين الطرفين وأظهر المسلمون شجاعة نادرة ورغبة صادقة في الاستشهاد في سبيل الله والوطن، فلقد واصل المجاهدون الحرب على مدى ثلاثة أشهر مما أجبر قوى البغي والعدوان على العودة إلى قواعدها بعد أن تعلمت دروسا كبيرة في النضال والكفاح والصمود، ولقد اكتفت الحكومة البريطانية بعد انسحابها بوضع فرقة عسكرية في برعو، وكانت معها بعض المدافع الرشاشة، كما كونت فرقة من الميليشيات من أجل التنقل والحركة السريعة. حدث كل هذا في الوقت الذي دعم فيه السيد محمد عبد الله قواته، واحتل بعض المواقع المتقدمة، وهو الأمر الذي جعل الحكومة البريطانية تفكر في إرسال حملة ثانية ضد المجاهدين الصوماليين [1].

عهدت الحكومة البريطانية بمسؤولية الحملة الثانية إلى الكابتن سواين، واتصلت بالكابتن كوردو القائم بأعمال القنصل العام لإعلامه بالحملة الجديدة التي توجه ضد السيد محمد عبد الله حسن لما يسببه من إزعاج للسلطات البريطانية. وتحرك سواين في 26 مايو عام 1902 ومعه قوة احتياطية من الكتائب الملكية الأفريقية بقيادة الكابتن أسبورن مع عدد من

الصوماليين يقدر بحوالي خمسمائة فارس بقيادة موسى فارح من هود. وأما قوات المجاهدين فقد تمركزت في إقليم بارن وتقدر بحوالي ثلاثة آلاف مقاتل، واتجهت هذه القوة قبل الاشتباكات نحو الجنوب، ووصل سواين إلى بوهوتلي، وأقام بعض الحصون هناك لحماية آبار المياه ومخازن التموين، واستقر أخيرا في أريجو شمال منطقة مدق [2](Mudug).

وفي 20 يوليه عام 1902 بدأت القوات البريطانية هجومها على جيروى (Gherouey) بهدف تطهير ساحل الصومال من الدراويش، ومع نهاية أغسطس وصلت القوات البريطانية إلى جاعولو [3](Gaolo).



شكل رقم (13)

وفي ذلك الوقت كانت قوات الدراويش قد اشتبكت مع قوات السلطان علي يوسف سلطان هوبيا، ونجحت قوات الدراويش في إيقاع الهزيمة بقوات هذا السلطان، واضطر سواين إلى مساندة هذا السلطان، فطلب إمدادات جديدة، وقام بالهجوم على قوات الدراويش في أريجو في السادس من أكتوبر. وفقد الدراويش عددا من رجالهم لكنهم كبدوا البريطانيين خسائر فادحة، وأمكن قتل ما لا يقل عن مائة جندي من البريطانيين، بالإضافة إلى ما حصلوا عليه من أسلاب وأمتعة.

وبعد هذه المعركة اقتنع السيد محمد عبد الله بضرورة التحول إلى استخدام الأسلحة الحديثة، وضرورة تدريب قواته على النظم الحربية الحديثة حتى يواجه الموقف الجديد، ولذا فقد فضل الانتقال بقواته إلى جالادى على الحدود الإيطالية، كما قرر الدخول في حلف مع السلطان محمد عثمان سلطان ميجرتين. وقدم إليه السيد محمد عبد الله بعض الاقتراحات بشأن الحصول على أسلحة من الساحل. وقد انتهز السيد محمد هذه الفرصة بعد رحيل القوات البريطانية، وبدأ يعيد تنظيم قواته وتزويدها بأحدث الأسلحة استعدادا لمرحلة قادمة مع قوات بريطانيا التي تنوي القضاء على هذا الثائر المسلم رغم فشلها في المحاولتين السابقتين. وكانت كل البوادر تشير في هذه الفترة إلى أن بريطانيا ترتب الأمور لحملة ثالثة ضد قوات المجاهدين المسلمين بقيادة الجنرالماننج.

ونتيجة فشل الحملتين السابقتين فقد رأت بريطانيا أن تستعين بإيطاليا للقيام بعمل مشترك ضد السيد محمد، ودارت مباحثات عسكرية بين الدولتين أسفرت عن تبادل مذكرات رسمية في 16 ديسمبر عام 1952، ووافقت الحكومة الإيطالية على قيام قوات بريطانية من ميناء هوبيا، كما طالبت بريطانيا الحبشة مرة ثانية بقطع الطريق أمام زعيم الجهاد إذا انسحب غربا، كما طالبت بريطانيا أحد رجالها بإجراء الاتصالات المناسبة لاشتراك الحبشة بشكل مباشر في هذه الحملة. ولقد أسفرت كل هذه الجهود عن موافقة الإمبراطور منليك على الاشتراك بخمسة آلاف مقاتل تحت قيادة حبشية بريطانية مشتركة [1]. وكانت الخطة البريطانية تهدف في المقام الأول إلى احتلال واحة مدق التي خرجت منها غزوات السيد محمد عبد الله ضد المحمية البريطانية، وأن يحتل جيش الأحباش وادي

نوج فافان لكي يقطع على المجاهدين احتمالات الانسحاب إلى المحمية الإيطالية. لكن خوفا من وقوع القوة البريطانية تحت رحمة قوات الدراويش فقد صدرت الأوامر إلى القائد مانئج بإخراج السيد محمد عبد الله فقط من واحة مدق وعدم تعقبه في الداخل حتى لا تبتعد القوات عن مواقعها، ويصعب إرسال قوات إضافية لنجدتها عند الضرورة [2].

وبدأت الاشتباكات بين الطرفين بعد وصول القوات البريطانية إلى جاعولو في 15 مارس عام 1903، لكن المجاهد الصومالي انسحب من الموقع، واتجه إلى والوال حيث دارت معركة جمبورو هل (Gumburu Hill) في 17 أبريل، وتمكنت قوات المجاهدين من إنزال الهزائم بالقوات البريطانية، كما قتلت قائد هذه القوة، وبلغت خسائر البريطانيين حوالي تسعة وتسعين قتيلا من البريطانيين، و187 قتيلا من حلفائهم وحوالي تسعة وعشرين جريحا [3]. ويصور أحد شهود العيان هذه المعركة فيقول: إنه عندما اقتربت قوات العدو قسم السيد محمد جيشه إلى أربعة أقسام، ووضع كل قسم في منطقة مستقلة، وبعد فترة جاء الجيش البريطاني إلى جبل صغير. وفي 17 أبريل بدأت المواجهة بين قوات الطرفين. ووقف القائد البريطاني خلف قواته حتى لا تفكر في الهرب أو الانسحاب. وكانت عادة الدراويش ألا يتوقفوا عن الهجوم إلا بعد اختراق صفوف العدو على أمل الاستشهاد في سبيل الله، وقد استمرت المعركة منذ السادسة صباحا حتى الرابعة مساء انتصر الدراويش في نهاية اللقاء للمرة الثالثة، وأجبروا البريطانيين وحلفاءهم على الانسحاب مخلفين وراءهم جثث الجرحى والقتلى والعتاد والأسلحة. وينهي شاهد العيان حديثه بالقول: إنه من الصعب حصر عدد القتلى لأن الدماء كانت تسيل كأنها داخل بحيرة من الدماء لأن عددا كبيرا من الدراويش قد لقي حتفه أيضا في هذه المعركة [1].

وحدث لقاء بين قوات الدراويش والقوة البريطانية في درتوله، ومع القوات الحبشية بورهيلى وأجبرتها على العودة إلى هرر [2]. وهكذا استطاعت قوات الدراويش أن تمنع الاتصال بين قوات المتحالفين من هوبيا وبربرة والحبشة، وبالتالي باءت الحملة الثالثة بالفشل، ولم تستطع تحقيق هدفها في القضاء على الزعيم المسلم أو أسره. لقد كان هدف هذه الحملة الثالثة هو وضع شيخ المجاهدين في الهواء المكشوف حيث لا توجد مياه في

تلك المنطقة الحارة، لكنهم فشلوا في الإيقاع بقوات الجهاد وكان الانهزام حليفهم، واضطرت القوة البريطانية إلى الانسحاب في النهاية إلى الصومال البريطاني [3].

وأمام هذا الفشل الذريع في القضاء على قوات الجهاد الإسلامي قررت الحكومة البريطانية إرسال حملة رابعة بقيادة الجنرال ايجرتون (Egarton) مع دعمه بقوات إضافية من المستعمرات البريطانية، وذلك على أمل القضاء النهائي على قوات الزعيم الصومالي.

حدث هذا في الوقت الذي ارتفعت فيه الروح المعنوية لدى المجاهدين وتحولت من موقف المدافع إلى الهجوم، وازداد عدد الذين انضموا إلى قوات المجاهدين. وكتب السيد محمد عبد الله خطابا إلى الشعب البريطاني تضمن رغبته في حكم بلاده، وحماية دينه، وأكد أنه يحارب من أجل العقيدة، وأن الله يحارب معه، وأنهى خطابه بأنهم إذا رغبوا في الحرب فهو سعيد بهذا، وإذا أرادوا السلام فهو أيضا سعيد، وطالبهم (ذا أرادوا السلام بأن يخرجوا من بلاده [1].

ورغم عروض السلام التي أبداها زعيم الجهاد الإسلامي في الصومال إلا أن الحكومة البريطانية رأت ألا ترضخ لهذه المطالب، وأنها لا بد من أن تلقن هذا الثائر درسا قد يكلفه حياته كلها، ولذا فإنه في 27 يونيه عام 1903 أبحر الجنرال ايجرتون من بومباي ليتولى قيادة الحملة الرابعة التي هدفها الأساسي أسر الزعيم المسلم أو قتله والقضاء على قواته، وغسل عار هزيمة القوات البريطانية في حملاتها الثلاث السابقة.

وضع هذا القائد البريطاني خطة استفاد فيها من الحملات السابقة للقضاء على المجاهد الصومالي، وتتلخص هذه الخطة في احتلال كل آبار المياه من منطقة هوبيا إلى جيرلوجوبى (Gerloguby) مع قطع كل طرق مواصلات قائد الجهاد إذا رغب في الهروب إلى ميجرتين شرقا أو أوجادين غربا، هذا إلى جانب احتلال إقليم مدق مصدر قوة المجاهدين [2].

وطلبت الحكومة البريطانية من الإمبراطور منليك المشاركة في هذه الحملة، وتعهدت بدفع مبلغ خمسة عشر ألفا من الجنيهات الإسترلينية لكي يتمكن من نقل قواته في تلك المناطق الوعرة، وقد وعد الإمبراطور بإرسال جيش من أربعة آلاف جندي مسلح بقيادة فيتورارى جابرى [3].

وفي 19 ديسمبر عام 1903 بدأت الاشتباكات مع قوات الدراويش في جدبالة. وبعد معركة دامت ثلاث ساعات انسحب القائد البريطاني كينا (Kenna) إلى بدوين. وفي أول يناير عام 1904 تجمعت قوات كل من مانج وفاسكن وايجرتون في شمال بدوين، واتجهت هذه القوات جميعا إلى جدبالة حيث بدأت مهاجمة القوات الوطنية الصومالية، واستمرت تلك المعركة يوما كاملا تعرض فيه الدراويش لهزيمة قاسية حيث قتل منهم ما لا يقل عن ألف شخص، كما فقدت بريطانيا عددا من قواتها. وهذه أول معركة تنتصر فيها بريطانيا على قوات الدراويش، إلا أن الهدف الذي شن ايجرتون من أجله الهجوم وهو أسر السيد محمد عبد الله حسن لم يتحقق.

وبعد هذه المعركة اقترحت الحكومة البريطانية على السيد محمد التنازل له عن أجزاء من المحميتين البريطانية والإيطالية، والاعتراف به كرئيس إقليمي مستقل، وذلك مقابل بعض الامتيازات، وعلى أن يودع مبلغا من المال لدى الحكومة الإيطالية كضمان لحسن سيره وسلوكه في المستقبل، ولكن السيد محمد عبد الله رفض أن يسلم أحد أبنائه كرهينة أو نزع سلاح أتباعه [1].

وفي تلك الفترة اقترح السير أرنولد فرستر على اللورد لانسدون الاتصال بالجنرال ايجرتون لمعارضة هذه الشروط لأنها غير كافية، وأحس السيد محمد عبد الله بخطورة الموقف فطلب من سلطان ميجرتين تقديم المساعدة له لنقل قواته وماشيته إلى سهل دارود لتغذية الحيوانات. وكان السلطان على وشك عقد اتفاق مع السيد محمد عبد الله لكنه لم يتمكن من إجابة طلب الدراويش بسبب إنذار الإنجليز إياه باحتلال بلاده إذا تعاون مع الدراويش، وإزاء هذا الموقف اتجه السيد محمد عبد الله إلى الساحل حيث منطقة أليج لأن البحر سيكون أمامه ويمكنه الحصول على السلاح من شبه الجزيرة العربية، وحيث توجد المياه العذبة من خلفه، واستقر السيد محمد في هذه المنطقة، وبدأ يقيم الحصون والقلاع لحماية قواته ودوابه من الهجوم سواء من الداخل أو من ناحية البحر. ففي برقية من السير ايجرتون في أول فبراير عام 1904 أفاد بأن الملا (السيد محمد عبد الله) ربما يحاول اللجوء ناحية الشمال، وبالتالي يحصل على مساعدات كبيرة، ولذا لا بد من اتخاذ إجراءات فعاله ضده من خلال القبائل في

المحمية الشمالية [1].

ولذا فإنه بمجرد أن علم ايجرتون بالتحصينات التي يقيمها السيد محمد عبد الله في أليج حتى قرر تحطيمها بحملة عسكرية، ولهذا الغرض تحرك الأسطول البريطاني أمام مياه أليج ونزلت قوة بريطانية في مياه الميناء في 31 مارس 1904 بعد الاتفاق مع الحكومة الإيطالية [2].

ولما شعر السيد محمد عبد الله بهذه الاستعدادات بدأ يتجه بقواته نحو قلعة جاريسا (Garesa). وفي 21 أبريل عام 1904 قرر ايجرتون ضرب القلعة، ودافع الدراويش بكل بسالة وإقدام. وبعد معارك دامية سقط هذا الحصن في أيدي القوات البريطانية، ورفع العلمان البريطاني والإيطالي عليه. لكن رغم هذا فقد انتهت هذه الحملة دون أن تحقق أهدافها شأن الحملات السابقة، وتكبد البريطانيون الخسائر التي بلغت حوالي ثمانية ضباط قتلى، وعشرين من صف الضباط الوطنيين0 و16 صوماليا غير نظامي. أما خسائر الدراويش فكانت أشد من الحملات السابقة نتيجة تحالف الإيطاليين مع البريطانيين حيث بلغت حوالي ألفي قتيل، كما أسر منهم حوالي 304 رجال، واستولى البريطانيون على 473 مسدسا وبندقيتين، وحوالي 24376 عيارا ناريا، و223 حصانا، و36415 من الماشية والماعز. لكن بريطانيا مقابل هذه المكاسب قد تحملت حوالي خمسة ملايين جنيه إسترليني كتكاليف لهذه الحملة بالإضافة إلى خسارتها في الأرواح والمعدات الحربية [3].

ويلاحظ أن هذه الأرقام عن الخسائر لكلا الطرفين غير دقيقة، وفيها الكثير من المبالغة حول خسائر الدراويش، ولكن الذي يهمنا في هذا المقام هو أن خسائر السيد محمد عبد الله هذه المرة كانت تفوق الخسائر السابقة، وكانت سببا في ضياع جزء كبير من قياداته ومؤنه، وهو الأمر الذي جعله يميل إلى ناحية السلام والمهادنة بعض الوقت حتى يسترد الأنفاس، ويستعد لمرحلة جديدة من الكفاح والنضال ضد قوى الاستعمار والإمبريالية.

لكن رغم كل هذه الخسائر في قوات السيد محمد عبد الله إلا أن بريطانيا فشلت في تحقيق الهدف الكبير نحو القضاء على هذا الثائر الصومالي. وكانت خسائر الطرفين دافعا لأن يقبل السيد محمد عبد الله الرغبة في السلام، وقبول وساطة إيطاليا لعقد صلح مع البريطانيين والأحباش، وهو ما أطلق عليه اتفاق بستالوزا وذلك في عام 1905 [1].

ثالثا: مفاوضات السلام مع السيد محمد عبد الله

باءت جميع المحاولات البريطانية ضد زعيم المجاهدين في الصومال بالفشل على طول الحملات المستمرة برغم الاستعانة بالقوات المحلية والقوى الداخلية ممثلة في الأحباش وقوى حليفتها إيطاليا. ورغم ما أصاب المجاهدين من خسائر مع تضييق الخناق على تحركاتهم إلا أن الجهاد اتخذ شكلا أشد صلابة وأكثر مناعة، وارتفعت مكانة الزعيم بين ذويه ومواطنيه، وصار بحق بطل القومية الذي يدافع عن الدين والوطن أمام تكالب المستعمرين، وأطماع الأحباش المسيحيين. لكن الزعيم كان في حاجة إلى فترة من الوقت يسترد فيها أنفاسه، وشيد بناء قواته، وما أن تدخلت إيطاليا في محاولة لعقد اتفاق سلام بين الطرفين المتحاربين حتى أعلن السيد محمد عبد الله حسن عن رغبته في عقد الصلح، واستجابت الحكومة البريطانية لهذا المسعى الإيطالي.

وقبل أن نحلل هذا الاتفاق بين الطرفين يدور التساؤل حول السبب في قيام إيطاليا بدور الوسيط في مباحثات السلام وهي طرف في هذا الصراع وحليف للبريطانيين.

لعل الإجابة عن هذا السؤال تكشف تلك الروح الاستعمارية تجاه المجاهد الإسلامي، ويمكن أن نحدد أهداف إيطاليا من وراء هذه المساعي في النقاط الآتية:

أولا: إحساس إيطاليا بعجز البريطانيين عن قمع حركة الجهاد بعد ازدياد نفوذ السيد محمد عبد الله، وتجمع القبائل الصومالية خلفه، وهو الأمر الذي جعله بطلا قوميا تمتد أهدافه وآماله نحو أمة صومالية واحدة، قد تتعرض إيطاليا بسبب هذه الأيديولوجية القومية إلى هجوم من رجال الجهاد على المناطق التي بدأت إيطاليا تستقر فيها على أرض الصومال.

ثانيا: لاحظت إيطاليا خلال حملات البريطانيين ضد السيد محمد عبد الله أن مناطق نفوذها قد صارت مسرحا لبعض العمليات العسكرية بين قوات الطرفين، وأن قوات المجاهدين تعاود الكر والفر في مناطق المحمية الإيطالية، وبالتالي وقوفها عاجزة عن الذود عن محميتها.

ثالثا: إدراك الإيطاليين أن بريطانيا ربما تفكر في الانسحاب إلى الساحل تاركة الداخل لجهود المناضلين المسلمين، وبالتالي تصبح إيطاليا هدفا أمام

قوات الدراويش التي تزداد قوة يوما بعد يوم في الوقت الذي تعجز قواتها في المحمية عن صد هذا الهجوم الذي دوّخ البريطانيين طوال أربع حملات.

رابعا: محاولة إيطاليا الاستفادة من جهود هذا الزعيم المسلم واستخدامه كوسيلة لإخضاع سلطنتي هوبيا وميجرتين اللتين تقعان في مناطق نفوذها. لكنهما تتمتعان باستقلال داخلي، وكانت إيطاليا تأمل في أن تستفيد من الزعيم الصومالي في الحد من نفوذهما.

خامسا: رغبة إيطاليا في أن تؤمّن جانبها من وراء هذا الصلح. حتى تتفرغ للتوغل في الداخل لفرض سيطرتها، وتوسيع مجال عملياتها في محاولة للسيطرة على الجزء الأكبر من الصومال، ولن تتحقق هذه الأماني إلا بعد عقد صلح مع زعيم الجهاد الإسلامي في الصومال.

وباختصار رأت إيطاليا في هذا الصلح بداية مرحلة جديدة من توسعاتها في القرن الأفريقي خصوصا بعد أن قامت بريطانيا في عام 1905 بتعديل بنود الاتفاقية التي عقدت بينها وبين سلطان زنجبار، وصار ساحل بنادر تابعا لإيطاليا بشكل نهائي بعد أن كان مؤجرا من قبل. فأعطاها هذا الأمل في التوسع وربط مستعمراتها وإخضاع قبائل الصومال الثائرة، ولن يتأتى ذلك في ظل ثورة إسلامية يقودها السيد محمد عبد الله حسن.

من أجل هذه الأسباب بدأت إيطاليا عن طريق ممثليها في الصومال اتصالات سرية مع السيد محمد عبد الله على أمل الوصول إلى اتفاق معه، وعلى أساس التوصل إلى تفاهم مع السيد محمد عبد الله سواء شارك حلفاؤها من البريطانيين أو الأحباش أم لا، وبدأت إيطاليا تعرض عليه كافة المساعدات في مختلف المجالات حتى تنال رضاه، وتحصل على اتفاق يحقق لها ما ترنو إليه. وأدرك محمد هذه المساعي الحثيثة، وتلك المحاولات الملحّة من جانب الإيطاليين أعداء الدين فتعمد التباطؤ في الرد عليهم حتى يكون في موقف الند للند بعد أن يكون قد جمع قواه، وأعاد الجيش إلى حالة من الاستعداد والقوة [1].

وما أن وقف المجاهد الإسلامي على أرض صلبة حتى بدأ يستجيب لدواعي الإيطاليين، فأرسل أحد الأنصار ويدعى عبد الله شجارى إلى ممثل إيطاليا في أرتيريا لمعرفة أهداف الصلح وإمكاناته، وبعد اللقاء مع الإيطاليين علم مندوب السيد محمد عبد الله أن الاتفاق يمكن أن يكون

عاما، وشاملا لكل من الإيطاليين والأحباش والبريطانيين.

وأرسلت إيطاليا قائد السفينة الحربية السنيور بلاتي بيبرى لإجراء المباحثات التمهيدية، وأرسل هذا السنيور خطابا إلى زعيم الجهاد أعلن فيه عن رغبة الدول الثلاث في عقد هدنة عامة بعد إيقاف القتال على كافة الجبهات [1]. ولما وجدت الحكومة الإيطالية استجابة من شيخ الدراويش لعقد الصلح قامت بتعيين جوليو بستالوزا (Guilio Pestalza) رئيسا لوفد المفاوضات بعد أن أخذت رأي الحكومة البريطانية التي وافقت على إجراء الصلح بشروط تتضمن:

أولا: عدم تدخل السيد محمد عبد الله حسن في شؤون القبائل الصومالية التي تحت الحماية البريطانية.

ثانيا: عدم شراء الدراويش السلاح أو تقوية الجيش.

ثالثا: تحديد أماكن الدراويش في نطاق إقليم معين.

رابعا: أن يرفع الحصار المفروض على السيد محمد عبد الله ويسمح له باستيراد كل شيء ماعدا السلاح.

ولما أحست إيطاليا أن هذه الشروط يمكن أن تعرقل المباحثات اتفقت مع بريطانيا على أساس التفاوض نيابة عنها في هذا المجال، وعلى هذا الأساس سافر بستالوزا لمقابلة السيد محمد عبد الله في أليج، ووصل بستالوزا إلى بندر قاسم، وأرسل لقائد الدراويش رسالة في 12 سبتمبر عام 1904 أخبره فيها بأنه رسول الحكومة الإيطالية المكلف بإجراء الصلح معه، وطلب منه شروطه للصلح حتى يتسنى عرضها على حكومته.

ورد السيد محمد عبد الله حسن مبديا رغبته في الصلح، وأظهر حسن الاستعداد للترحيب به وبمن يرغب من البريطانيين في تقديم مقترحات الصلح، وعلى هذا وصلت سفينة إيطالية إلى ثغر أليج في 15 أكتوبر. وفي اليوم التالي بدأت المفاوضات الرسمية وسط استعراض عسكري أقامه السيد محمد عبد الله من فرقة الفرسان والمشاة حملة الرماح والدروع، وكان لهذا العرض مغزاه العسكري حيث حاول السيد محمد عبد الله أن يشعر الإيطاليين وحلفاءهم بأنه يفاوض من مركز القوة. وأن قواته العسكرية ما زالت قادرة على تحقيق ما تعجز المفاوضات السلمية عن إنجازه [1]

وكان لهذا العرض أيضا مغزاه لدى السيد محمد عبد الله حيث وافق

بستالوزا على الكثير من مطالب السيد التي حددها بأربع نقاط:

(1أن تحدد له إقامة دائمة في منطقة النفوذ الإيطالي بين رأس جاراد ورأس جابي.

(2 أن يتولى حكم أتباعه بنفسه.

3) حرية التجارة مع شعوب المنطقة والساحل باستثناء تجارة السلاح.

(4 أن يتمتع هو وأتباعه بالحرية الدينية (2).

وقام السيد بستالوزا بعرض هذه المقترحات على الأطرف المعنية وعلى سلطان هوبيا وسلطان ميجرتين، وحكومة لندن التي اتصلت بدورها بالكولونيل سواين للقاء بستالوزا في عدن، وتم اللقاء في 14 و15 من نوفمبر عام 1904 حيث وافقت بريطانيا على شروط السيد محمد عبد الله. وعاد بستالوزا إلى أليج والتقى بالسيد محمد عبد الله في 5 مارس عام 1905 لتوقيع الاتفاق الذي نص على البنود آلاتية:

أولا: عقد صلح وسلام بين السيد محمد عبد الله وحكومات كل من إيطاليا وإنجلترا والحبشة.

ثانيا: أن يكون مقر السيد محمد عبد الله في الإقليم الإيطالي في نوجال وفي البقعة بين سلطنتي هوبيا وميجرتين، كما ترسو سفنه على الساحل بين رأس جاراد ورأس جابي.

ثالثا: أن يتولى السيد محمد الله حكم أتباعه وله حرية التجارة الكاملة ماعدا الاتجار بالسلاح أو الرقيق.

رابعا: تنازل الدراويش لسلطان هوبيا عن جميع أراضي مدق وجالكعيو.

خامسا: إبلاغ الدراويش للحكومة الإيطالية بكل الأمور التي تعرض أمنهم للخطر.

سادسا: تشكيل لجنة لتنفيذ بنود هذا الاتفاق من جميع الأطراف المشتركة في المعاهدة.

وإذا استعرضنا ما تم الاتفاق عليه نهائيا، وما قدمه السيد محمد عبد الله من نقاط للسيد بستالوزا لوجدنا أن بنود الاتفاق قد احتوت على كل المطالب التي أرادها السيد محمد عبد الله، وبالتالي فالاتفاق قد حقق ما يتمناه السيد من فترة السلام والأمان التي كان يسعى إليها من وراء هذا الاتفاق.

وبهذا الاتفاق الذي وافقت عليه بريطانيا في 26 مايو عام 1905 تبدأ مرحلة جديدة من كفاح المسلمين ضد هذه القوى، خصوصا وأن الأوروبيين قد وقعوا المعاهدة الثلاثية بين إيطاليا وفرنسا وإنجلترا في ديسمبر عام 1906 لتحديد مناطق نفوذ كل منهم بعد رحيل الإمبراطور منليك، وحتى تظل منطقة الحبشة متماسكة وموحدة بعيدة عن التنافس الاستعماري (1).

وهكذا قبل السيد محمد عبد الله أن يظل في سلام مع إيطاليا وبريطانيا والحبشة، وأن يقبل الحماية الإيطالية لأنه استقر في المنطقة بين سلطنة الميجرتين وهوبيا في الجنوب، ورغم أنه ترك محمية الصومال البريطاني حسب الاتفاق بين الحكومتين الإنجليزية والإيطالية إلا أن الدراويش حصلوا على منطقة لرعي الماشية داخل المحمية بين أبار حالين (Halin) وهودين (Hudin) وتوجال (Togale) وتوناد. (2)(Tonad).

ولن نخوض في تفاصيل وتحاليل نتائج هذا الاتفاق لأن ما يعنينا هو دراسة آثار هذا الاتفاق على حركة الجهاد وما إذا كانت قد حققت السلام المنشود بين زعيم مسلم يدافع عن شرف دينه وأرضه وسط القوى الأوروبية والحبشية التي تتربص به من كل جانب (1). ومما لا شك فيه أن السيد محمد عبد الله قد استفاد من هذا الاتفاق فائدة جمة حيث كان السيد في أمسّ الحاجة إلى فترة من الراحة يسترد فيها أنفاسه، ويستعيد بناء قوته التي كانت على وشك الانهيار أمام الحملات المتلاحقة من البريطانيين وحلفائهم. وجاءت الفائدة الكبرى عندما بدأت الأسلحة تتدفق عليه عبر المستعمرة الإيطالية، وانتعشت تجارته، وصار ميناء أليج مفتوحا أمامه، كما انفتح الساحل من رأس أرسانجالى وميناء أليج أمام رجاله دون معارضة من السلطات الإيطالية.

واستقر السيد محمد عبد الله في المنطقة التي خصصت له. وتعلم رجاله الزراعة بدلا من الرعي، وقاموا بتصدير المنتجات الزراعية من ميناء أليج المفتوح أمامهم، وظل السيد يحافظ على هذا الاتفاق الذي أعطاه الفرصة لإعادة بناء قواته وتحصيناته داخل المنطقة الإيطالية، واستمر السلام قائما بين الطرفين حتى عام 1908، والسيد محمد يحترم نصوص الاتفاق ويستغل الفرصة لإعادة بناء القوات، وكان يساعده عدد كبير من الجواسيس والوكلاء في المحمية البريطانية الذين كانوا ينقلون إليه الأخبار

عن تحركات القوى المعادية، وفي الوقت نفسه كانوا يعملون على جذب القبائل والعشائر إلى صف السيد محمد عبد الله. وباختصار استفاد الدراويش من هذا الاتفاق استفادة كبيرة استردوا فيها أنفاسهم، واستعدوا لمرحلة جديدة من الجهاد والنضال.

وعلى الجانب الآخر كانت بريطانيا تحاول الحفاظ على الاتفاق وشروطه، لكنها دأبت على تكوين المليشيات العسكرية والقبلية من أجل الوقيعة بين الصوماليين بعضهم وبعض. ولما أحس السيد عبد الله بتلك المحاولات التي تدعو للفرقة والوقيعة بين أبناء الشعب الواحد اتصل بالسيد كوردو (Cordou) مساعد القنصل البريطاني في عدن، وأخبره برغبته في استمرار السلام، كما حذره من أن البريطانيين يحرضون القبائل الموالية لهم على الاعتداء على الدراويش، بالإضافة إلى محاولات تشويه العلاقات بين الإيطاليين والأحباش وبين الدراويش. [1].

وكان تضييق الخناق على الدراويش قد ترك أثرا عميقا في نفوس أتباع السيد محمد عبد الله لدرجة أن أقرب الناس إليه مثل والده وأولاده وأعمامه ومستشاره نور أحمد عمر، والشيخ عبد الله سلطان أوجادين طلبوا منه الخروج من نوجال واستئناف الجهاد ضد المسيحيين خصوصا وأن عدد الأتباع قد زاد بشكل كبير. وكان موقف السيد محمد عبد الله هو معارضة هذه المطالب حتى لا يخل بشروط الاتفاق مع القوى المعادية له، وحتى لا يعصف بفرص السلام التي تتيح له المناخ المناسب لاستعادة بناء قوته ونشر مبادئ الطريقة الصالحية بين الدراويش.

ولما عجزت هذه الزعامات الصومالية عن إقناع السيد محمد عبد الله بعدم الاستمرار في التعايش السلمي مع القوى الأوروبية قررت مغادرته والانتقال إلى الداخل. وعندئذ بدأ التغير في موقف الزعيم المسلم حيث أرسل خطابا شديد اللهجة إلى كوردو يطالبه بإعادة تجارة الدراويش وإطلاق حرية رجاله ونسائهم الذين لا يزالون تحت حصار الإنجليز في عدن وبربرة، كما طالبه بسحب قواته من جدباله، وأنهى خطابه بأنه في حالة رفض تنفيذ هذه المطالب فإن ذلك يعني عدم الرغبة في الاستمرار في السلام[2].

وبدأت العلاقات تدخل في طور جديد خصوصا وأن النزاع قد دب بين السيد محمد وسلطات هوبيا، وانتهزت بريطانيا الفرصة وراحت تدعم

مواقعها الأمامية في شرق المحمية خوفا من اعتداء الدراويش عليها. وأرسل كوردو إلى حكومته تقريرا أشار فيه إلى الاعتداءات المتكررة على المحمية البريطانية، وعلى القبائل الصومالية الموالية لهم. ومن هنا بدأت الحكومة البريطانية تدرس الموقف من جديد، ولم يكن أمامها إلا أحد أمرين: إما إعادة تنظيم الحملات المسلحة ضد السيد محمد عبد الله، وإما الانسحاب الكامل من الداخل وترك المنطقة له. ولم تنس الحكومة ما كانت تعانيه من مصاعب وأهوال وتكاليف عسكرية في حملاتها السابقة. فكان قرارها عدم التورط في حروب أخرى مع الدراويش، وكان رد الحكومة على تقرير كوردو أنها لا تحبذ قط فكرة تجدد القتال مع أنصار الجهاد الصومالي.

لكن بريطانيا أحست بزيادة قوة هذا الزعيم المسلم بين قبائل الصومال التي التفت حوله، ووقفت بجانبه تبايعه على الجهاد في سبيل الله، ففكرت في حيلة بارعة للتقليل من شأنه، وللتشكيك في قياداته الدينية، فطلبت من قنصلها في القسطنطينية السعي لدى السلطان العثماني للاتصال بالجهات الدينية في مكة لإصدار إعلان تنكر فيه زعامة المهدى على القبائل في الصومال. لكن فشلت هذه الفكرة[1].

لم ينفد صبر الحكومة البريطانية في محاولاتها للتهوين من مكانه السيد محمد عبد الله الدينية بين الصوماليين، وذلك بمحاولة الاتصال بشيخ الطريقة الصالحية في الحجاز، وقد نظم القنصل الإيطالي في عدن هذه العملية بأن شكل وفدا من بعض زعماء الصومال، وذهب الوفد إلى مكة في يوليه عام 1908، وتقدم بشكوى إلى شيخ الطريقة الصالحية، اتهم فيها السيد محمد عبد الله بالقيام بأعمال منافية لنهج الطريقة الصالحية. كما قام القنصل الإيطالي بتنظيم رحلة لممثلي الشيوخ الكبار وعلى رأسهم الحاج عبد الله شجارى أخلص أتباع السيد محمد عبد الله ورفيق سلاحه وممثله في مفاوضات أليج ولكنه انقلب عليه فطرده من حركته. وما كان منه إلا أن قبل رئاسة الوفد إلى مكة، وهناك صادق شجارى على شكوى الوفد (1). فأرسل الشيخ محمد صالح خطابا إلى السيد محمد عبد الله، وانتهز الإنجليز الفرصة وقاموا بطبع الخطاب وتوزيعه على نطاق واسع بين الصوماليين، فكانت الرسالة ذات أثر سيئ على الدراويش لأنها زعزعت الثقة في هذا الزعيم المسلم الذي كان عليه أن يواجه هذه الحملة المسعورة

ضده، والتي تسعى للتشكيك في مكانته وجهاده وهو سلاح أخطر من البنادق والمدافع، وكان عليه أن يتحرك في كل مكان، وأن ينشر الرسائل التي تدحض هذه الادعاء. وأصدر فعلا رسالة بعنوان «قمع المعاندين» أرسل صورة منها إلى شيخ الطريقة الصالحية في مكة، وصورة إلى السلطان العثماني في الآستانة [2].

لكن رغم محاولات السيد محمد عبد الله القضاء على هذه الإشاعات إلا أن الرسالة تركت أثرها العميق في نفوس أتباعه، حيث حدث الانقسام بين القيادات الرئيسة لحركة الجهاد، واشتدت العداوة في معسكر المجاهدين، وقد نظم بعض الدراويش اجتماعا سريا لم يحضره السيد محمد عبد الله تحت شجرة ضخمة، وقرر المجتمعون اتخاذ بعض الإجراءات ومنها: إما إعدام السيد محمد عبد الله وانتخاب خليفة له لمواصلة الجهاد، وإما عزله لفشله في مقاومة الاستعمار، وإما حل حركة الدراويش وإنهاء الجهاد. ولا أظن أن هناك أخطر من هذا الموقف الذي أوشك أن يقوض الحركة من أساسها بعد هذه الحرب الباردة التي شنتها بريطانيا وربيبتها إيطاليا ضد قوى المسلمين. فكانت هذه المحاولة وما ترتب عليها قد جعلتا موقف السيد محمد عبد الله بالغ الخطورة، وكان عليه سرعة التحرك لمجابهة هذه الحالة التي وصلت إليها أحوال المجاهدين وتآمرهم عليه. فما أن علم بمؤامرة الشجرة حتى أسرع إلى هناك، وقبض على رجال القيادة، وأمر بإعدام من تزعموا هذه الحركة، وأصيب السيد محمد عبد الله بخيبة الأمل من أقرب الناس إليه، وانتابته حالة من القنوط واليأس. لكن الأثر العكسي جعله يسعى لمواصلة الجهاد ضد أعداء الدين.

وهكذا نجحت بريطانيا في فترة الهدوء النسبي بين الطرفين في أن تجند القبائل، وأن تحدث خلخلة في نفوس المجاهدين، وأن تفرق بين جماعات الموحدين باستخدام أسوأ أساليب التآمر والخيانة [1].

رابعا: المرحلة الأخيرة من الصراع مع القوى الأوروبية

انتهزت بريطانيا فرصة الخلافات التي وقعت داخل صفوف الدراويش ومحاولة السيد محمد عبد الله إعادة بناء قواته بعد فترة التمزيق التي انتابت جموع الموحدين، وبدأت ترقب الموقف عن كثب، ووجدت أن السيد

محمد عبد الله تحدوه الرغبة في عقد اتفاق سلام جديد مع بريطانيا بدلا من اتفاق بستالوزا الذي فقد روحه ونصه، فشجعت هذه الفرصة الذهبية بعد وصول خطاب من السيد محمد عبد الله بهذا الخصوص، وقامت على الفور بتكليف السيد ريجنالد وينجت بالسفر إلى الخرطوم في أواخر عام 1959. وقام وينجت فعلا مع وفد ضم رودلف ستالين لتقصي الحقائق، وفوضته حكومته بأن يعرض على شيخ الدراويش مساعدة مالية شهرية قدرها خمسون ألفا من الجنيهات مقابل حسن السير والسلوك [2].

وأرسل وينجت رسالة من بربرة إلى السيد محمد عبد الله شرح فيها رغبة بريطانيا في عقد صلح جديد معه، كما طلب منه إرسال وفد للتفاوض. وجاء رد السيد محمد عبد الله مفيدا: القبض أولا على الصوماليين الذين شوهوا العلاقات بينه وبينهم، وأن ترد بريطانيا السفن التي استولت عليها مع إيطاليا عام 1908، وأن تدفع له تعويضا عن رجاله الذين استشهدوا في نوجال بالإضافة إلى تسليم عدوه عبد الله شجاري [1].

وتعثرت المباحثات بسبب عدم الرد البريطاني على هذه المطالب، وأحس وينجت بفشل مهمته فعاد إلى بلاده وكتب تقريرا سريا شرح فيه سوء نية السيد محمد. وبناء على هذا التقرير كان قرار الحكومة البريطانية إخلاء الصومال من الإدارة، وتركيز سلطاتهم في المدن الساحلية الثلاث بربرة وبلهار وزيلع مع إشراف القبائل الصومالية الموالية لهم على الداخل بعد تدعيمها بالأسلحة والعتاد.

وقامت بريطانيا بنقل كوردو من الصومال إلى أوغنده، وأحلت محله السيد وليمماننج (Manning) الذي وصل إلى مقر عمله الجديد في يناير عام 1910 بقصد تطبيق سياسة الإخلاء من الداخل والتمركز على الساحل. وكان قرار الإخلاء قد أحدث تصدعا داخل البرلمان البريطاني الذي عارض هذه الفكرة من أساسها.

وترتب على سياسة الإخلاء أن اندفع الدراويش نحو أعوان البريطانيين من الصوماليين وفتكوا بهم، ونكلوا بأجسادهم، وعمت الفوضى، وارتبكت الطرق التجارية مع الداخل، وتدمرت طرق القوافل، وتحولت المراعي ألي ساحات للقتال والاقتتال بين أبناء الشعب الواحد، وعمت الحرب الأهلية ربوع الصومال بعد أن أغرتها بريطانيا بالسلاح والمال.

وانتقل السيد محمد عبد الله من مناطق المحمية الإيطالية إلى مناطق النفوذ البريطاني، خصوصا في منطقة دولباهنت، وبدأ في بناء عدد من الحصون والقلاع وكان أهمها على الإطلاق حصن تاليح (Taleh)، ذلك الحصن الذي ظل مقرا له حتى عام 1920. وشيد السيد محمد قلاعا أخرى في جيد علي ومديشي (Medishe). وكان بناء حصن تاليح يعني اتخاذه حاضرة للدولة الإسلامية الناشئة في الصومال. وتقدم الدراويش نحو قلب الصومال، واحتلوا المعسكرات البريطانية القديمة، واضطرت بريطانيا إلى تغيير القيادة في الصومال، فحل الجنرال بيات (Byatt) محلماننج في عام 1911. وعلى الفور أعد القائد الجديد تقريرا عن الأوضاع السيئة في الصومال، وأوصى بضرورة إعادة النظر في الموقف البريطاني تجاه الصومال. وطالب في نهاية التقرير بتكوين قوة من الشرطة تكون مهمتها المحافظة على النظام في الإقليم، وقبلت حكومة لندن هذا الاقتراح، وتشكلت بالفعل القوة الجديدة بقيادة ريتشارد كورفيلد (R.Corfield) الذي تم استدعاؤه من نيجيريا لتولي القيادة [1].

وفي أول يناير عام 1913 أرسل السيد محمد عبد الله خطابا إلى السلطات البريطانية في بربرة تضمن الشكوى من البريطانيين وسوء معاملاتهم لرجاله، وأعرب عن حسن نيته في عقد اتفاق سلام معهم، واستعداده لرد الغنائم التي سبق الاستيلاء عليها من معسكراتهم. وكان رد القائد بيات سريعا أعرب فيه عن الشك في نوايا السيد محمد الذي يطالب دائما بمقاومة المستعمرين لأنهم كفرة ومشركون [2].

وفي تلك الفترة التي كانت تدور فيها مفاوضات بين البريطانيين والدراويش انتهزت إيطاليا الفرصة، وأرسلت قوة بزعامة الضابط الإيطالي مارتينى إلى مقر مقديشيو لتولى القيادة العسكرية، وليضيق الخناق على الدراويش في الجنوب خصوصا عند مركا. ولما أحست إيطاليا بأن الدراويش قد يشنون حربا عليها بادرت وأصدرت الأوامر إلى سلطات ميجرتين بالهجوم على الدراويش، وأطبق الجيش المشترك على جيش المسلمين في بران، لكن قائد الدراويش حقق نصرا عليهم في 15 أغسطس عام 1911 في موقعة هبرهنيل، وتولى سلطان هوبيا (يوسف بن علي) في العام نفسه، وتولى بعده ابنه على بن يوسف الذي وقع معاهدة مع الإيطاليين تضمنت دفع

جيش الدراويش بعيدا عن هوبيا، والاشتراك مع الإيطاليين في حربهم ضد الدراويش. وهكذا دخل السيد محمد عبد الله في حرب جديدة مع القوات المحلية والقوات الإيطالية في الوقت الذي يسعى فيه لعقد صلح سلام مع البريطانيين. وكل هذا يوضح صلابة جهاد هذا الزعيم الذي يحارب في أكثر من جبهة وضد أكثر من قوة [1].

وسارت إيطاليا على نفس منوال البريطانيين في تدعيم القبائل بالسلاح لمحاربة الدراويش، كما قامت بتحريض القبائل ضده، لكن السيد محمد كان قد ثبت مركزه، وقضى على الفتنة، واتخذ من حصن تاليح مقرا له، وبدأ يعرض على البريطانيين استعداده لعقد الصلح، لكن كورفيلد أفسد هذه المخططات عندما سمع بقدوم قوات الدراويش لاحتلال المواقع بين أودين وبرعو، فأرسل إليه خطابا وصفه بأنه رجل مجنون، وطالبه بالعودة قبل أن تقع المصيبة ويندم على أعماله السيئة [2].

وكان رد السيد عنيفا حيث تضمن عدم الاستسلام رغم كل الظروف وأنه لن يكون عبدا للشرك. واعتبر كورفيلد هذا الرد بمثابة إهانة شخصية له، وطلب من قواته في كل مكان القيام بهجوم شامل على المراكز التي يسيطر عليها الدراويش، وقرر تولي العمليات العسكرية بنفسه، وأن يخوض معركة نهائية ضد الدراويش ليضع فيها نهاية للسيد محمد عبد الله في مدينة تاليح.

وفي 9 أغسطس عام 1913 استعجل كورفيلد اللقاء مع الدراويش، والتقى الجيشان في معركة لم تشهدها المنطقة من قبل حيث سالت الدماء أنهارا، وأظهر الدراويش ملحمة بطولية من القتال ضد القوى الأوروبية. وفي خلال ست ساعات كان الدراويش قد أطبقوا على القوات البريطانية، وقضوا عليها قضاء يكاد يكون تاما، وكلف هذا العمل الطائش من جانب كورفيلد حياته حيث لقي مصرعه على أرض الصومال ومزق جسده شر تمزيق، وهرب من تبقى من قواته، ونشرت الصحف البريطانية في لندن أخبار المعارك تحت اسم «كارثة مروّعة لقواتنا في الصومال»، وخلد السيد محمد عبد الله هذه الحادثة في قصيدته بعنوان «مصرع ريتشارد كورفيلد»[1].

وعاد الدراويش بعد هذا النصر الرائع في سبيل نصر كلمة الله ضد

الكفرة والمشركين إلى مقرهم في تاليح بعد أن صلوا الظهر والعصر على أرض المعركة وقد حصلوا على الكثير من الغنائم والأسلحة والحيوانات [2].

وفي الحقيقة فقد رفعت هذه المعركة في دولمادوبي من روح المجاهدين وقوّت من عزم الموحدين، رفعت قائد الجهاد إلى أعلى عليين، وتعلقت به الآمال لتخليص الصومال من الكافرين، ومن وراءهم من المستعمرين الأوروبيين، واعتبر الصوماليون هذه المعركة بداية النصر المبين، وانتشرت الأخبار في كل أنحاء الصومال، وتطايرت أنباء النصر وهزيمة البريطانيين، وصارت قوات الدراويش أكثر حرية في حركتها داخل الصومال، وانضم إليها عدد كبير ممن كانوا في حماية أعداء الدين. وارتعدت فرائص الإيطاليين من هذا النصر المبين، وتغير ولاء عدد كبير من القبائل التي انضمت إلى جانب المسلمين. وباختصار كان النصر بداية مرحلة جديدة في الصراع الإسلامي ضد القوى الأوروبية ارتفعت فيها هامات المجاهدين، وارتفعت كلمة الموحدين، وأعادت القبائل الموالية للأوروبيين حساباتها، وتزود السيد محمد عبد الله بجرعة جديدة أكسبته ثقة وشجاعة وإيمانا بالنصر القريب بإذن الله.

كانت الهزيمة للقوات البريطانية بداية مرحلة من الانتشار والتوسع لقوات المجاهدين حيث استولوا على برعو في 5 من سبتمبر عام 1913، وكانت برعو مركزا استراتيجيا هاما طالما تطلع إليه الدراويش منذ عام 1950، وتحقق حلمهم بعد هزيمة البريطانيين في موقعة دلمادوبي [1].

وفي 14 يناير عام 1914 وجه قائد الجهاد خطابا إلى البريطانيين حذرهم فيه من سوء العواقب إذا ما أقدموا على أي عمل لا يوافق عليه، وفي الوقت نفسه وجه قوة من الدراويش إلى بربرة، ونجحت في الاستيلاء عليها في 13 مارس، وانتاب حاكمها البريطاني موجة من الذعر والقلق، وخشي من سقوط المدينة بأسرها تحت أيدي الدراويش، وأحست بريطانيا بخطورة الموقف، فأرسلت قوة نجحت في التغلب على الدراويش، لكنها لم تحقق النصر الكامل بسبب اندلاع الحرب العالمية الأولى وانشغال إنجلترا في أوروبا.

ودخلت عوامل جديدة في هذا الصراع الدائر بين الدراويش والبريطانيين، فلقد تولى حكم الحبشة ليج ياسو في ديسمبر عام 1913،

وحول مقر إقامته من دير دوا (Dire Dwa) إلى هرر حيث توجد الجماعات الإسلامية، وحيث يجد المجال لإنشاء إمبراطوريته الإسلامية بعد أن اعتنق الدين الإسلامي. وكان يأمل في مساعدة الأتراك والألمان له، ودخل ليج ياسو في علاقات مع السيد محمد عبد الله حسن، وأرسل إليه المساعدات المالية والأسلحة، كما أرسل إليه أحد الفنيين الألمان، ويدعى إميل كيرش (Emile Kirsch) لإصلاح الأسلحة الأوروبية في تاليح [2].

كل هذه المواقف كانت في صالح السيد محمد عبد الله الذي قام بالاتصال بالألمان والأتراك في جنوب الجزيرة العربية، بل أرسل مبعوثا إلى القائد التركي على سعيد باشا في عدن في عام 1916، وقد وافق هذا القائد على الاعتراف بالسيادة العثمانية للخليفة محمد الخامس رشاد، لكن السيد محمد عبد الله لم يوقع المعاهدة، ولم يشاهد بنودها لأن الإيطاليين استولوا عليها قبل أن تصل إليه [1].

ولما علمت بريطانيا بمحاولات الدراويش طلب الحماية من الأتراك بدأت توجه الضربات ضد الأتراك، وبعد أن أبعد ليج ياسو عن الحكم أرسلت إلى السيد محمد عبد الله تطالبه بالعدول عن طلب مساعدات الأتراك وبالكف عن القتال، بل التقدم بطلب الصلح، لكن السيد محمد عبد الله أرسل ردا قاسيا حمّلهم فيه تبعة ما حدث، وأنهم هم الذين ضيقوا عليه الخناق، وتحكموا في طرق التجارة، وعرضوا شعبه للموت والهلاك والدمار، وطالبهم إذا كانوا يرغبون في السلام حقا بضرورة العمل على إزالة آثار النار التي أشعلوها مع فتح الطرق التي أغلقوها، والبحث عن اتفاق يرضي الطرفين [2].

وواصل السيد محمد احتلاله المواقع الحصينة منتهزا فرصة انشغال بريطانيا في حربها ضد الألمان والأتراك. ولما أحست بريطانيا أن ميزان الحرب قد تحول لصالحها، وأن الألمان والأتراك يتكبدون الخسائر يوما بعد يوم أرسلت قوة حربية من الهند للحفاظ على موانئ الصومال في بربرة ولاسيما قرى ومدن برعو وهرجيسة حيث دارت مذبحة مروعة بين الدراويش والقوات البريطانية بقيادة فورت بروك، وقد خسر الدراويش مالا يقل عن 170 قتيلا، واضطروا إلى الانسحاب بعيدا في الهضاب جنوب هذا الميناء، وانتهز البريطانيون الفرصة ووزعوا السلاح والذخائر على

أعوانهم لتبدأ المرحلة النهائية من جهاد الدراويش ضد البريطانيين.

خامسا: نهاية حركة المقاومة الصومالية

بعد أن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها، واطمأن البريطانيون إلى تحقيق النصر على أعدائهم، كان قرار الحكومة البريطانية وضع حد نهائي لذلك الثائر المسلم الذي صمد كثيرا وحقق انتصارات عديدة على البريطانيين، وكبدهم من الخسائر مالا تطيق الخزانة البريطانية تحمله، فكان القرار وضع النهاية لهذا المجاهد بأي وسيلة، وبأي تكلفة حتى تستطيع بريطانيا أن تنفذ سياستها في القرن الأفريقي بعد الحرب، وحتى تستعيد كرامتها التي دنسها هذا المجاهد المسلم. ومن هذا المنطلق كانت الحملات العسكرية البريطانية القادمة ضد السيد محمد عبد الله أشد عنفا، وأكثر ضراوة، وتهدف أساسا إلى ضربه في الصميم، والقضاء على حركته التي سببت لها الكثير من المتاعب.

قامت الحكومة البريطانية بتكليف الجنرال هوسكنز بالتوجه إلى بربرة لوضع تقرير عن الموقف العسكري، كما وافقت الحكومة على خطة الهجوم وعلى أساس تدخل القوات الجوية لأول مرة مع القوات البرية والبحرية، وأن تشترك الفرقة الجوية المعروفة باسم وحدة زد (Z) بقيادة الكابتن غوردون، وذلك بقصد قصف مواقع الدراويش وتهديدهم وتشتيتهم في مجموعات مبعثرة يسهل تعقبها والقضاء عليها.

وتضمنت الخطة أيضا أن تقوم القوات البحرية بإرسال ثلاث سفن حربية لمحاصرة الساحل، وضرب مواقع الدراويش، وقطع إمكانية أي اتصالات مع الساحل وإمكانية تزويده بالأسلحة من البحر، وقد تكتمت الحكومة البريطانية أخبار هذه الحملة حتى تكون مفاجأة للدراويش، ورغم كل هذه السرية فقد علم السيد محمد عبد الله بهذه الاستعدادات. فأخذ يعيد تنظيم صفوفه ويجمع قواته، وقام بنقل مركزه من قلعة تاليح إلى مديشى (Medishe) التي تبعد حوالي عشرين كيلومترا شمال غرب جيد علي.

وقبل أن تبدأ عمليات المعركة الأخيرة، طالبت الحكومة البريطانية من ممثلها في بربرة ويدعى آرثر ضرورة التنسيق مع الحكومة الإيطالية في

مقديشيو ومع الزعماء الموالين لهم حتى تكون الخطة كاملة ومحكمة. وأرسل السير آرثر إلى سلطان ميجرتين يحثه على الاستعداد لقتال السيد محمد عبد الله يوم 21 يناير وذلك في آخر محاولة للفتك به والتخلص منه. كما أن بريطانيا قد قررت منح خمسة آلاف روبية هندية لمن يسلم السيد محمد عبد الله حيا أو ميتا. وكان رد السلطان في ميجرتين الاعتذار عن هذا العمل المفاجئ، لكنه وعد بالتعاون مع القوات البريطانية.

وفي 21 من يناير عام 1920 بدأت الطائرات الحربية بقصف مواقع الدراويش في مديشي، وقد انفجرت إحدى القنابل في خيمة السيد محمد عبد الله نفسه انتهت باستشهاد عمه الشيخ حسن نور وبعض زعماء الحركة. لكن السيد محمد قد ترك هذا المكان، واعتصم في إحدى الخنادق على بعد عشرين كيلومترا في الشمال الغربي من مديشي. ومن هذا المكان أعلن الحرب فورا بعد أن وضع خطة للرد على تدخل الطيران في المعارك. واستمر القصف الجوي لمدة ثلاثة أيام بالإضافة إلى المدفعية التي أحرقت قلاع الدراويش في مديشي، وأدت هذه العمليات الحربية إلى تفكك القيادة الإسلامية، ودب الرعب في نفوس الناس من جراء هذا القصف الوحشي وانغلاق الطريق أمام المجاهدين إلى المحمية الإيطالية [1].

وأمام هذا الضغط المكثف جوا وبحرا قرر السيد محمد عبد الله الانسحاب إلى تاليح (Taleh). لكن عندما علم الإنجليز بانتقاله إلى هذا المكان أمطروه بوابل من النيران، وقاذفات الطائرات التي كبدت الدراويش خسائر فادحة، ومات عدد كبير من قوات المجاهدين، وأحرقت بعض الأوراق الخاصة بقائد الجهاد.

وفي 4 من فبراير بدأت ثلاث طائرات حربية من قاعدة عفاروين هجومها الشامل على قلعة تاليح، واستطاعت هذه الطائرات وهي تحلق على ارتفاع منخفض إحراق كل أماكن استحكامات الدراويش، ولم يجد السيد محمد عبد الله بدا من ترك المكان كليا حيث غادره مع حوالي ستين رجلا من فرسانه يرافقهم ابنه الأكبر مهدى، واتجهوا نحو الباب الجنوبي للقلعة وسط ستار ضخم من الدخان في طريقهم إلى أوجادين حيث استقر بهم المقام في منطقة باخيري (Bagheri) التي تقع بين الوالوال ونهر شبيلي.

وسقطت أسرة السيد محمد عبد الله في الأسر ومعها بعض زوجاته

وبناته وبعض رجال الحركة، واندفع البريطانيون خلف السيد محمد عبد الله على أمل القبض عليه ولكن باءت المحاولة أيضا بالفشل. وهكذا انتهت هذه الحملة الخامسة دون أن يتحقق الهدف في القضاء على السيد محمد عبد الله، ورغم تدخل الطيران وما أحدثه من تغير كبير في سير المعارك والتدمير الشامل لكل أماكن السيد محمد، وقطع خطوط إمداداته وتموينه إلا أنه نجح في الخروج من هذا المأزق بعد تلك الهجمة الشرسة.

ورغم ضياع الأرض والمال والأهل والعشيرة وأسرته لم يتخل السيد محمد عبد الله عن جهاده وعن صراعه مع قوى البغي حتى النهاية، ولم يترك قيادة شعبه في محاولاته الأخيرة لتحرير وطنه من الأجانب، ولم يلق السلاح، بل على العكس أقسم على استمرار النضال حتى يقضي الله أمرا كان مفعولا، وحتى يحرر الوطن أو يهلك دونه، أو تكتب له الشهادة في سبيل نصرة الدين وحماية الوطن من عبث العابثين من تلك الحفنة من الكافرين.

ومن هذا المنطلق واصل السيد تحركاته حتى استقر أخيرا في جوار هي وهناك انضم إليه من بقي على قيد الحياة من المخلصين حتى بلغ عددهم أكثر من ألف مقاتل، ومعهم بعض الأسلحة الحديثة. وبدأت الاستعدادات من جديد لخوض غمار معركة أخرى. خشيت بريطانيا من استفحال أمر هذا الثائر العنيد، ورأت أن تهدده قبل أن يستفحل شره من جديد، فقامت بمبادرة أخرى أعلنت فيها عن رغبتها في إنهاء الحرب إذا قبل شروط البريطانيين. ونجح الحاكم آرثر في إرسال خطاب إليه في أواخر مارس عام 1920 عن طريق إحدى زوجات السيد محمد، وقد جاء في هذه الرسالة ما يفيد أنه قد فقد قواته وثروته ونساءه وأطفاله وقلاعه، وأنه إذا استسلم في خلال أربعين يوما فسوف يمنح الأمان، وسوف يسمح له بالعيش في مكان آمن حسب طريقته الخاصة، ويمارس عقيدته الدينية. كما طالب الحاكم السيد بالحضور قبل مضي المدة المحددة لفترة السلام إذا كانت لديه الرغبة في ذلك [1].

وفي 25 مارس أرسل السيد محمد عبد الله خطابا مع السيد علي جوهر يتضمن رد السيد محمد وشروطه، وجاء فيه تفنيد كامل لكل ادعاءات البريطانيين عن الدراويش، وطلب فيه تطبيق العدالة في هذه القضية،

وأنه يرغب في استرداد حقوقه كاملة.

وجاء رد حاكم الصومال البريطاني ويدعى آرثر بأن قدم له بعض شروط الصلح ومنها:

أولا: أن يحدد له مكانا في الجانب الغربي لرعي الماشية، وأن يستقر السيد فيه ويؤسس طريقته، وسوف تعاد إليه أسرته بعد أن يسجل أسماءهم مبعوثون من طرفه مثل الشيخ علي جوهر وعثمان بن الشيخ حسن.

ثانيا: إن الماشية التي يحضرها السيد محمد عبد الله هي ملك له، وإذا لم تكن كافية فسوف تعيد إليه بريطانيا عددا آخر يكفي متطلبات رجاله وأتباعه، ولن تتدخل بريطانيا في شؤونه الدينية، كما لن تعارض رغبته في الذهاب إلى مكة لأداء فريضة الحج.

ثالثا: ليس من اختصاص السيد تنظيم القبائل وحكمها. فهذا من اختصاص الحاكم البريطاني.

رابعا: في حالة نشوب صراع بينه وبين القبائل فإن الأمر سيحال إلى الحكومة التي ستتولى الحكم بالعدل في مثل هذه الشكاوى.

وفي نهاية الخطاب طلب آرثر من السيد عبد الله قبول هذه الشروط أو رفضها. وفي حالة القبول عرض عليه الحضور مع وفد خلال أربعين يوما[2].

ومن الاستعراض السريع لهذه الشروط البريطانية يظهر لنا رغبة بريطانيا في مسالمة هذا الثائر بأي وسيلة، ومحاولة إرضائه بأي شكل من الأشكال، وأنها تفضل أن يواصل جهوده في النواحي الدينية، وأن يمارس طريقته الصالحية بعيدا عن شؤون الحكم والسياسة مع إعطائه الأمان وتحديد المكان الذي يمارس فيه هذا النشاط الديني، كما أنها عرضت عليه في ثنايا الشروط عدم معارضتها لسفره إلى مكة لعله يجد في هذا الاقتراح هوى وقبولا فيترك البلاد ويهاجر إلى الأراضي المقدسة بعد أن خسر كل شيء. لكن البطل الذي تخطى مرحلة الوعظ والإرشاد، ونشر الطريقة الصالحية قد أصبح في نظر قومه بطلا سياسيا، وأملا في تحرير بلاده من الاستعمار. ومن هنا لم تجد الشروط استجابة، ولم يفكر السيد في الرحيل بل قرر مواصلة النضال حتى النهاية. ورغم كل هذه العروض فقد قابل السيد الوفد البريطاني الذي يحمل آخر شروط السلام وظل الوفد ضيفا عليه، وبعد عدة أيام كان رد السيد محمد عبد الله الذي

تضمن قبول الشروط لكنه يرغب في تحقيق ما يلي:

أولا: أن تعاد إليه ماشيته وأغنامه وفرسانه وأسلحته ومجوهراته والعملة الذهبية التي قدرها على النحو التالي:

1-العملة الذهبية مائة ألف جنيه إسترليني

2- النقود ثلاثمائة ألف جنيه إسترليني

3- الدولارات عشرون ألف دولار

4- خمسة صناديق من الماس بالإضافة إلى ألف لؤلؤة.

ثانيا: عودة جميع الأسرى الذين وقعوا في أيدي البريطانيين.

ثالثا: عودة المباني والمنشآت الخاصة به.

وعاد الوفد إلى الحاكم البريطاني وهو يدرك فشله في تحقيق هذه المطالب.

وبعد أن غادر الوفد تحرك السيد محمد إلى المنطقة الحبشية في 10 أكتوبر عام 1920 حيث التقى أحد الضباط وقال: إنه قد جاء من منطقة الصومال البريطاني بعد أن فقد كل شيء، وأنه قد جاء طالبا الحماية، وأرسل في الوقت نفسه إلى القائد الحبشي لأقرب موقع ويدعى فيتوراري أربع بنادق ومسدس كهدية، وطلب بعض المؤن مقابل ذلك. لكن قبض على رجاله وكبلوا بالسلاسل. وقد حل المرض وربما الأنفلونزا بمعسكر هذا البطل. وبعد ستة أيام من المرض مات السيد محمد عبد الله في 23 نوفمبر عام 1920، ودفنه أتباعه في كوخ ومقبرة صغيرة في إيمى. ولما علم تلاميذه بأن الإنجليز يبحثون عن جثته ليمثلوا بها انتقاما لمصرع كورفيلد قاموا بفتح القبر من جديد ودفنوه في مكان مجهول.

وهكذا انتهت قصة هذا البطل المسلم الذي ظل يكافح طوال ثلاثة عقود من الزمان امتدت من عام 1899 حتى عام 1920، حارب فيها قوات ثلاث دول هي بريطانيا وإيطاليا والحبشة ناهيك عن القبائل المحلية والعشائر التي تحالفت مع القوى الأوروبية ضده، وهذا ما جعل نضاله يحمل طابعا خاصا، ويتسم بلون جديد ربما يختلف عن بقية نضال الأبطال المسلمين في القارة الأفريقية في الفترة الزمنية نفسها. فكان السيد بطلا قوميا ومعلما، وشيخا لطريقة إصلاحية صوفية، وكان يجاهد بالسيف والقلم، يعلم مبادئ الطريقة الصالحية التي ضارعت ونافست أقوى الطرق في المنطقة، وكان

يصارع ضد قوى البغي والعدوان حيث صار جهاده رمزا لكفاح شعب تمزق وتفرق، وتوزع على القوى الأوروبية بشكل لم يسبق له مثيل في القارة الأفريقية.

ناضل السيد محمد عبد الله، وظل رابط الجأش، قوى الإيمان، واسع الحيلة، عبقريا ذكيا دبلوماسيا، تارة يجنح للسلم، إذا كان في ذلك مصلحة المسلمين، وتارة يجنح للسيف إذا كان الوقت مناسبا لتلقين الأعداء درسا في النضال والجهاد. لقد عرضوا عليه الكثير وأغروه بالمال والمناصب فما لان ولا استكان ولا انحنى للأوروبيين ولا تأثر بكل ما قدموه من عروض دنيوية زائفة، بل أجبرهم على المثول بين يديه طالبين رضاه، عارضين عليه شروط السلم والأمان فكان يفاوض من مركز القوة، ويتفاوض بالحق واليقين. لم يفرط في وطنه أو دينه، وفضل الآخرة على الدنيا، وجاهد وناضل جنود أقوى الدول الاستعمارية في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وحطم معنوياتها وشكك في قدراتها على هزيمته مهما أرسلت من حملات، ومهما غيرت من قيادات. لقد جعل هذه الدولة القوية بريطانيا تستعين بإيطاليا على أمل الوساطة لدى السيد محمد عبد الله طلبا للصلح بعد أن فشلت كل السبل للقضاء على هذا المناضل الوطني الإسلامي. لقد تحالفت بريطانيا مع الحبشة ومع إيطاليا والكل يهدف إلى القضاء على هذه الحركة الإسلامية، لكن النصر كان حليف المسلمين، وفشلت الحملات الخمس التي وجهت للقضاء على حركته، وخرج منها السيد محمد منتصرا وأشد قوة وبأسا.

لعل هذه الوقفة البطولية الجريئة أمام المتآمرين قد جعلت منه بطلا قوميا محنكا، ورغم خسارته لكل شيء حتى أبنائه وأسرته، ورغم خسارته الأرض والمال، والأمن والأمان إلا أنه لم يفقد الشجاعة والعزم على المضي حتى النهاية وحتى الشهادة في سبيل الله، فلم يفرط في دينه وعقيدته، وظل حتى النهاية هدف المستعمرين الذين رصدوا الأموال الضخمة مقابل القبض عليه حيا أو ميتا، لكنهم عجزوا حتى النهاية عن العثور عليه، وفي كل مرة يحكمون الدائرة عليه كان يخرج منها سليما أشد صلابة من المرة السابقة، وأكثر عزيمة على المضي قدما نحو هدفه النبيل في مقاومة الاستعمار وعودة الديار إلى المجاهدين المسلمين، ونشر طريقته الصالحية

بين سكان الصومال. لقد ظل ثابت الخطى، قوي العزيمة، عالي الهمة، شامخ الهامة واضعا نصب عينيه هدفه الكبير ألا وهو تحرير الصومال من المستعمرين حتى سقط صريع المرض. لقد كان صموده وجهاده آية في النضال تحتذى، وصارت وقفته أمام الأوروبيين نموذجا لكفاح شعب طويل، فلم يتوقف الجهاد برحيل البطل بعد هذا الكفاح المشرف، لكنه استلهم من روحه البطولة والإقدام، وظل الشعب الصومالي يناضل على مدى أربعين عاما حتى تحقق استقلاله، ورحل المستعمر من أرض الصومال ومن ديار الإسلام والمسلمين.

ومهما يقال عن حركة جهاد السيد محمد عبد الله إنها فشلت في طرد المستعمرين إلى البحر، بل زادت من توسعاتهم في بلاده فإن الحركة رغم هذا الكفاح المستمر قد تركت وعيا صوماليا ونموذجا للوطنية صارا نبراسا لبني الوطن استلهموا منهما روح النضال والإصرار على تخليص الوطن من ربقة الاستعمار والتحكم الأجنبي [1].

وسيظل الشعب الصومالي يذكر هذا المجاهد كبطل قومي ومؤسس للقومية الصومالية أكثر منه شيخا لطريقة صوفية. فلقد كانت أمنية هذا البطل الصومالي بناء حركة قومية تسمو فوق الانقسامات العشائرية أو النعرات القبلية، وكان يعدل من خططه الحربية لكي تتلاءم مع واقع الحياة الصومالية. واستطاع بحنكة سياسية، وأيد بارعة أن يستخدم الوسائل التقليدية، كما استعان بوسائل القربى والنسب من عشيرة والده مع التزاوج من مختلف العشائر في خلق روح قومية تسمو فوق الاختلافات القبلية، وأعاد للمنطقة وحدة لم تشهدها من أيام الإمام أحمد بن إبراهيم في القرن السادس عشر.

ويبقى التساؤل الأخير قبل أن ننهي سيرة هذا البطل القومي الصومالي وذلك الزعيم الديني.. ما هي العوامل التي أدت إلى فشل هذه الحركة القومية في طرد القوى الأجنبية؟

لعل أسباب ذلك ترجع إلى العوامل الآتية:

أولا: استخدم السيد محمد عبد الله حسن أسلوب العنف في بعض الأحيان مع القبائل المتمردة من الصوماليين، الأمر الذي جعل هذه القبائل تقف في وجه حركته، وتأخذ منها موقف العداء بدلا من مؤازرتها والانضمام

إلى صفوفها. ثانيا: ظهور السيد محمد عبد الله في وقت لم يكن الوعي قد نضج بعد بين الصوماليين الذين عاشوا جماعات قبلية متنافرة تسعى كل منها وراء العشب والكلأ والماء، وهي أمور تحتاج إلى الصراع والتكالب بدلا من التعاون والتكاتف.

ثالثا: صراع السيد محمد عبد الله ضد قوى أوروبية قوية، وفى منطقة صارت أكثر أهمية في طرق المواصلات العالمية، وفي فترة التكالب على القارة الأفريقية بشكل عام، والقرن الأفريقي بشكل خاص. وكان هذا الصراع الأوروبي لا يقبل بوجود قوة تعرقل تحركات قواته فيما سماه الأوروبيون الأرض التي لا صاحب لها (Res Nellius). يضاف إلى ذلك أن جهاد السيد محمد عبد الله جاء في فترة اتحاد الحبشة بعد فترة طويلة من الصراع بين مختلف الرؤوس. وتعارضت أهداف المجاهدين مع آمال منليك الثاني إمبراطور الحبشة الذي يسعى للتوسع في أرض الصومال ومؤازرة القوى الأوروبية له حتى تظل الحبشة القوة المسيحية القوية في القارة.

رابعا: كانت الظروف كلها ضد حركة السيد محمد عبد الله حسن، ففي الوقت الذي بدأ يجد الحليف للوقوف في وجه القوى الأوروبية، يصاب هذا الحليف بالطرد أو الهزيمة. فالإمبراطور الحبشي ليج ياسو اعتنق الدين الإسلامي وبدأ يسعى للتحالف معه لتكوين قوة ضاربة ضد المستعمرين. لكن سرعان ما أقصى هذا الحاكم ففقد السيد محمد عبد الله حليفا هو في أمسّ الحاجة إليه. وفي الوقت نفسه بدأ يسعى للتحالف مع الأتراك حماة الإسلام في المنطقة، ووجد فيهم عونا له في مرحلته الأخيرة، لكن الأتراك انهزموا في الحرب العالمية الأولى وخسر السيد هذا التأييد التركي.

خامسا: كثرة هزائم البريطانيين أمام جيوش المسلمين خلال كل الحملات السابقة جعلتهم يفقدون الوعي ويتناسون القيم والمثل العليا ويستخدمون أبشع الوسائل المدمرة. وكان استخدام الطيران لأول مرة لقمع الحركات الوطنية، وتعقب المجاهدين العزل المثل الحي لهذا الحقد الدفين الذي أعمى عيون المستعمرين، فكبدوا شعب الصومال من الخسائر مالا يحتمل، واضطر السيد في النهاية إلى الانسحاب بعيدا عن مناطق الدمار والخراب حتى يجد ملاذا في أرض الأوجادين استعدادا لجولة جديدة من الصراع

والنضال، لكن المرض لم يمهله فسقط مريضا وراح ضحية هذا المرض بعد أن أدى الواجب وحمل الأمانة، ولقن المستعمر دروسا في التضحية والفداء.

وأخيرا كان من أسباب فشل هذه الحركة الصومالية هو عجز السيد محمد عبد الله عن جمع شمل كافة القبائل الصومالية للوقوف يدا واحدة أمام عدو واحد مشترك، ولقد عرف شعب الصومال هذا المغزى بعد رحيل البطل الذي وضع لبنات القومية فوق كل اعتبار، ووضع أسس النضال على أساس قومي بعيدا عن القبلية والعشائرية. وفهم شعب الصومال أن الفرقة والتشيع لا تفيد إلا المستعمر، فالتف حول قياداته الجديدة التي استلهمت روح النضال من بطل القومية الصومالي حتى تحقق الاستقلال، وعادت أجزاء الصومال التي كانت تحت السيطرة الأوروبية الإيطالية والبريطانية تحت لواء دولة واحدة، ويسعى شعب الصومال إلى جمع بقية الأجزاء التي ضاعت إبان فترة التكالب الاستعماري على أراضيه [1].

الخاتمه

عندما وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها كانت عملية تقسيم القارة الأفريقية بين الدول الاستعمارية قد استقرت، وصارت خريطة أفريقيا السياسية موزعة بين الدول الأوروبية بعد خروج ألمانيا وتوزيع مستعمراتها على كل من فرنسا وبريطانيا وبلجيكا، وكانت عمليات التقسيم قد بدأت في أواخر القرن التاسع عشر واستمرت حتى الحرب العالمية الأولى. لكن إذا كان الأوروبيون قد وزعوا هذه المناطق حسب هواهم دون اشتراك دولة أفريقية واحدة في هذه الغنيمة فإن زعماء المسلمين في القارة وقفوا أمام هذه الغزوة الاستعمارية خصوصا في حزام أفريقيا جنوب الصحراء-تلك المنطقة التي تمتد من السنغال غربا حتى الصومال شرقا.

لقد شهدت هذه المنطقة من أفريقيا جنوب الصحراء في أوائل القرن التاسع عشر عدة حركات إصلاحية هدفها الأساسي الرجوع بالدين الإسلامي إلى بساطته الأولى، ونشره بين السكان الوثنيين في غرب القارة، ولقد استهل هذه الحركات الإصلاحية الشيخ عثمان بن فودي في شمال نيجيريا حيث أنشأ خلافة إسلامية استمرت قرنا من الزمان طبق المسلمون فيها الشريعة الغراء، وأقاموا نظاما إسلاميا قويا، ودخل الناس أفواجا في دين الله، ونشر الشيخ عثمان الطريقة الصوفية

القادرية. ولم يتوقف نشاط هذا الداعية المسلم عند حدود دولة سوكوتو، بل امتد أثره إلى مناطق أخرى من غرب القارة، وتأثرت كل حركات الإصلاح بتلك الحركة الفولانية، ومن أبرز الزعماء المسلمين الذين زاروا سوكوتو، وتأثروا بالحركة الفولانية ذلك المجاهد الحاج عمر الفوتي التكروري الذي عاش فترة في سوكوتو بعد عودته من رحلة الحج، ثم انتقل إلى بلاد فوتاتور في غرب القارة لنشر الطريقة التيجانية، ولتأسيس دولة إسلامية في منطقة بلاد السنغال، وقد ساعد هذا على نشر الدين الإسلامي، وتشجيع المجاهدين على القيام بحركات إصلاحية جديدة في تلك المناطق الشاسعة، فظهر الحاج محمد الأمين، كما ظهر الإمام ساموري توري الذي بذل كل ما في وسعه لبناء دولة إسلامية بعد أن قضى على النظم المحلية الوثنية، وساعدت هذه الحركات على إحياء مجد الخلافة الإسلامية في تلك المناطق من القارة الأفريقية. وامتد النشاط الإسلامي إلى قلب القارة حيث منطقة تشاد التي كانت منذ زمن مركزا للدين الإسلامي. فظهر زعيم آخر هو رابح فضل الله الذي حاول بناء دولة إسلامية، كما حاول التنسيق مع الدولة المهدية في السودان. ولم يتوقف المد الإسلامي عند هذا الحد بل ظهر في السودان حيث الحركة المهدية، وأخيرا في شرق القارة حيث ظهر الزعيم والمجاهد السيد محمد عبد الله حسن الذي حمل الطريقة الصالحية إلى هذه المنطقة، وقام بنشرها حتى صارت تضارع الطريقة القادرية، ونجح في تأسيس مجتمع إسلامي في هذه المنطقة. لكن لسوء حظ هذه الحركات أنها تزامنت في قيامها مع الموجة الاستعمارية التي اجتاحت القارة الأفريقية في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، وبعد أن وضع الأوروبيون في مؤتمر برلين أسس التقسيم، وضرورة الاحتلال الفعلي. فكان ذلك السباق المحموم بين الأوروبيين، وكان ذلك الصدام مع زعماء المسلمين، وكان ذلك الصراع الدائر بين الحضارة الإسلامية الراسخة في هذا الجزء من القارة وحضارة أوروبية وافدة مع هذه الغزوة الاستعمارية التي لم تتوقف إلا بعد القضاء على زعماء الجهاد الإسلامي من الناحية العسكرية. لكن إذا كانت القوى الأوروبية قد نجحت في القضاء على الزعامات الإسلامية التي استشهدت في سبيل الحق والعقيدة فإن الأثر الديني والثقافي ظل كامنا في النفوس، وظل الناس يمارسون عقائدهم في ظل الاستعمار الأوروبي،

وقاوم المسلمون كل محاولات التبشير بالمسيحية في غرب القارة، وتكونت كتائب التحرير من المسلمين الأوفياء لعقيدتهم الإسلامية، واستمر نضالهم حتى تحقق الاستقلال الكامل لدول القارة، وعادت أفريقيا مرة ثانية إلى حكم أبنائها بعد تلك الغزوة الاستعمارية التي كانت تستهدف في المقام الأول ضرب الإسلام والمسلمين.

ومن العرض السابق لزعماء الجهاد الإسلامي ضد القوى الأوروبية يمكن أن نحدد أبرز الملامح الرئيسة لتلك الحركات الإسلامية، والتي يمكن أن نوجزها على النحو التالي:

أولا: إن أغلبية زعماء هذه الحركات الإصلاحية الإسلامية قد قاموا بأداء فريضة الحج، وعادوا إلى بلادهم متأثرين بالحركة الوهابية التي نادت بالرجوع بالدين إلى بساطته الأولى، فأعلن هؤلاء الزعماء الجهاد في سبيل الله وتكوين دويلات إسلامية تطبق الشريعة في كل منحى من مناحي الحياة، ويشترك كل زعماء الجهاد في هذه السمة، ويخالفهم فقط الشيخ عثمان بن فودي الذي قام فعلا بإعلان الجهاد وقيام الدولة الإسلامية، لكنه لم يذهب إلى مكة ولم يقم بأداء فريضة الحج. ورغم أن كثيرا من المؤرخين قد زعموا أنه ذهب إلى مكة وتأثر بالمذهب الوهابي إلا أن هذا غير صحيح، وإن كان قد قام بالإصلاح ونشر الطريقة القادرية بين سكان الإمبراطورية التي وضع أسسها في دولة سوكوتو والتي استمرت قرنا من الزمان، وقاومت الاستعمار البريطاني في أوائل القرن العشرين حتى سقطت هذه الدولة في عام 1903.

ثانيا: إن زعماء الجهاد اعتنقوا الأفكار الصوفية، وصار كل قطب يحاول نشر إحدى هذه الطرق بين المسلمين، فمنهم من أيّد الطريقة القادرية التي كانت أكثر الطرق شيوعا في القارة، ومنهم من طبق الطريقة التيجانية، ومنهم من ساعد على نشر الطريقة الأحمدية أو الطريقة الصالحية. ورغم اشتراك معظم هذه الطرق في أسس جوهرية إلا أن بعضها انحرف عن الطريق السليم، وكان هذا التشتت في هذه الطرق سببا في عدم التفاف المسلمين حول طريقة واحدة، وبدلا من الالتفاف حول زعامة إسلامية موحدة كان أعوان كل طريقة يدخلون في صراعات مع أتباع الطريقة الأخرى، ووجد هؤلاء تأييدا من الساسة الأوروبيين الذين ضربوا الطرق بعضها

ببعض، فحلت الفرقة محل الوئام والالتحام، وبدأ الصدام بين زعماء الإسلام في وقت كانوا أحوج ما يكونون إلى الاتحاد أمام عدو يتربص بهم من كل جانب. إلا أننا لا يمكن أن ننكر دور الطرق الصوفية في مقاومة الاستعمار، ونشر الدين الإسلامي وحمل عبء التعليم والثقافة في ظل الإدارة الاستعمارية.

ثالثا: حاول زعماء الطرق الصوفية وقواد الجهاد الإسلامي بناء دول إسلامية تطبق الشريعة الغراء على حساب الدول المجاورة، فكان ذلك بداية الصراع مع القوى المحلية التي كانت من عوامل ضعف وتفتيت جهود المجاهدين المسلمين في وقت تحتاج القوى الإسلامية إلى التعاون بعضها مع بعض، فالحاج عمر دخل في صراع مع مسلمي ماسينا واعتبروه غازيا أجنبيا، ووقفوا له بالمرصاد وحاصروه حتى استشهد وهو يدافع عن دولته ضد القوى المحلية المسلمة. وينطبق الشيء نفسه على الشيخ محمد الأمين الذي واجه إمبراطورية الحاج عمر الإسلامية، والتي وقفت ضده، وتحالف زعماؤها مع الفرنسيين من أجل القضاء عليه. وأيضا واجه الزعيم ساموري توري القوى المحلية التي ضيّعت الكثير من جهوده من أجل إخضاع هذه الجماعات المحلية. وواجه الزعيم رابح فضل الله الموقف نفسه حيث تحالفت القوى الإسلامية المحلية مع القوى الأوروبية ضده، وعقد سلطان وادای وسلطان باجرمى معاهدات حماية مع الفرنسيين من أجل حمايتهم من هذا الزعيم المسلم، وكان حريا بهذه الزعامات الإسلامية أن تساند وتؤيد وتعضد زعيما من بني جلدتهم يحافظ على العقيدة الإسلامية التي يعيشون في كنفها. ولا يختلف السيد محمد عبد الله حسن في الصومال عن هؤلاء المجاهدين في غرب القارة حيث وقفت الإمارات المحلية ضده، ووجد مقاومة من أمير هرر أو أمير هوبيا وسلطان ميجرتين. وبعبارة أخرى وجدت حركات الجهاد الإسلامي مقاومة محلية أشد ضراوة من القوى الخارجية.

رابعا: إن حركات الجهاد الإسلامي ظهرت في وقت لم تفهم فيه شعوب القارة الأفريقية بعد معنى القومية والوطنية، ومفهوم الدفاع عن الأوطان ضد الغزاة الأجانب. ولذا أصبحت كل حركة تجاهد من أجل نشر الدين الإسلامي بين الوثنيين، والحكام المحليين الذين وقفوا للمجاهدين بالمرصاد خوفا على زعامتهم وعلى هيبتهم، ولذا بدأ الشقاق بين المجاهدين والزعماء

المحليين، ولقي المجاهدون مقاومة عنيفة من القوى المحلية، وكان على هذه القيادات المحلية أن تنسق جهودها مع الزعماء المسلمين للوقوف يدا واحدة ضد هذا الغازي الأوروبي الذي استهدف حضارتهم الإسلامية، ولم تدرك هذه الشعوب وزعامتها المحلية أهمية هذا التنسيق إلا بعد فوات الأوان، وبعد ضياع الأرض ومن عليها، وسقوط هذه المناطق تحت السيطرة الاستعمارية المباشرة.

خامسا: رغم أن حركات الجهاد الإسلامي في أفريقيا جنوب الصحراء قد تزامنت تقريبا مع الربع الأخير من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، إلا أنه لم يحدث تنسيق بين هذه الحركات، بل عاشت كل حركة بذاتها، ولم تحاول الاقتراب والتلاحم والتحالف مع الحركات الأخرى للوقوف يدا واحدة ضد عدو مشترك يستهدف حضارتهم. ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل إن زعماء بعض الحركات الإسلامية قد تحالفوا مع العدو ضد القوى الإسلامية. وكان هذا كله سببا في عدم وجود جبهة إسلامية واحدة أمام عدو عرف كيف ينسق خطواته، وكيف يستغل هذه الحركات لضرب بعضها ببعض، ثم يتفرغ بعد ذلك للقضاء على القوة الباقية، وكان هذا في الحقيقة من أهم أسباب سقوط هذه القيادات بعد فترة قصيرة، ومن صمد منها طويلا فإنه استعان ببعض القوى المحلية التي ساندته وناصرته.

سادسا: تشابهت حركات الجهاد والمقاومة الإسلامية في أفريقيا جنوب الصحراء في أنها رفضت جميعها الحماية الأجنبية، وإن كان بعضها قد عقد معاهدات مع بعض القوى الأجنبية فإن ذلك لم يكن يعني الحماية فقط، بل لجأت هذه الزعامات الإسلامية إلى عقد صلح مع الأوروبيين حتى تسترد الأنفاس وتبدأ مرحلة جديدة من النضال والكفاح. والمثل الحي لهذا النوع من مهادنة الأجانب جاء في حركة السيد محمد عبد الله حسن في الصومال حيث عقد صلحا مع الإيطاليين والبريطانيين لكي يعيد تنظيم قواته، وبعد أن أحس بعدم احترام هذه الشروط قام بإلغائها ودخل في صراع جديد مع هذه القوى. وينطبق الشيء نفسه على الإمام ساموري توري، والحاج عمر الفوتي.

سابعا: اتضح من دراسة كل حركات الجهاد الإسلامي في أفريقيا جنوب

الصحراء أن زعماء هذه الحركات رفضوا جميعا الاستسلام للقوى الأوروبية رغم كل العروض المادية والمعنوية التي عرضها الأجانب عليهم، وفضلوا القتال والصمود حتى النهاية، وكبدوا الأوروبيين خسائر فادحة في الأرواح والمعدات، وأجبروهم على تغيير القيادات أكثر من مرة، وبالرغم من قلة ذخيرتهم وعدم مجاراتها للأسلحة الأوروبية الحديثة، وبالرغم مما أصاب زعماء هذه الحركات من خسائر فقدوا فيها أبرز قوادهم، وأشجع رجالهم إلا أنهم آثروا الاستمرار في القتال، ورفضوا بكل إباء وشمم أن يقبلوا شروط الاستسلام والخضوع، وفضلوا الاستشهاد في سبيل كلمة الله، وفي سبيل إحياء الشريعة الإسلامية، فلقد استشهد الخليفة محمد الطاهر الأول في دولة سوكوتو في معركة بورمي، واستشهد الحاج عمر الفوتي وهو يدافع عن عقيدته، واستشهد رابح فضل الله، والحاج محمد الأمين، والسيد محمد عبد الله حسن الذي قدم نموذجا رائعا للنضال والكفاح المشرف، ورفض كل العروض، وقاوم كل الحملات التي وجهتها بريطانيا ضده، وحتى بعد استخدام الطائرات لأول مرة في حروب القارة الأفريقية لم يستسلم، وظل يقاوم ويناضل حتى سقط شهيدا دون أن ينال منه الأعداء شيئا. وبعبارة أخرى كانت السمة الغالبة على كل زعماء حركات الجهاد الموت والاستشهاد في سبيل الله، والمقاومة حتى آخر لحظة من العمر، فسجلوا بحروف من نور أمجاد وبطولات لابد من أن تعيها الأجيال الحالية في كفاحها ضد الإمبريالية والاستعمار والغزو الصليبي الذي يهدد ديار الإسلام والمسلمين في هذه الأيام.

ثامنا: انتهت هذه الحركات الجهادية جميعها بعد أن بسط الأوروبيون نفوذهم على تلك المناطق الإسلامية. ولم يكن القضاء على هذه الحركات بسبب التقاعس أو التخلي عن حمل الأمانة، أو التقصير في أداء الرسالة، لكن الذي حدث هو أن هذه الزعامات ظهرت في مناطق متفرقة من القارة، وكان عليها أن تحارب في جبهتين، جبهة محلية وثنية، وجبهة خارجية أوروبية، وبالتالي لم تتمكن القيادات الإسلامية من أن تكرس جهودها في جبهة واحدة، ذلك لأن المستعمر كان يقف لها بالمرصاد، ويقوض كل بنيان تشيده هذه القيادات التي اضطرت إلى مهادنة هذا الطرف أو ذاك، لكن الأوان لم يكن مهيأ لفهم طبيعة الغزو الأوروبي الذي استغل هذه القوى

المحلية، وراح يفرض عليها الحماية ويجندها ضد بني وطنها، فكانت هذه الروح سببا في عدم تلاحم أبناء المنطقة الواحدة لتقف سدا منيعا أمام عدو مشترك، كما لم تدرك هذه القيادات المحلية أبعاد هذا التوسع الاستعماري، ولم تفهم الدرس إلا بعد فوات الأوان، وبعد أن ابتلعت القوى الاستعمارية المنطقة بأسرها، كما كان سر القضاء على هذه الحركات نابعا من استخدام الأسلحة الحديثة ضد القوى الإسلامية التي تستخدم أسلحة تقليدية لا يمكن أن تجاري هذه الأسلحة الأوروبية. ولم يجد زعماء الإسلام من وسيلة سوى الاستمرار والكفاح بهذه الموارد المحدودة، واستطاعوا أن يلحقوا بالأوروبيين خسائر فادحة في الأرواح والأسلحة، وكان الإيمان بالله والاستشهاد في سبيل العقيدة هما السلاح الأخير الذي حملوه حتى استشهادهم.

ولا تزال القارة الأفريقية بحاجة إلى المزيد من الدراسات حول القيادات الإسلامية ودورها في النضال الأفريقي ضد الاستعمار الأوروبي. وكلما نقلب الصفحات ونعود إلى الوثائق التي تزخر بها دور الوثائق الأفريقية والأوروبية نجد معينا لا ينضب من صور الكفاح والنضال المشرف لزعماء الإسلام والمسلمين. والأمل معقود على أبناء القارة الأفريقية وهم يعيدون الآن كتابة تاريخهم بعد هذه الحقبة الاستعمارية التي ركزت كل الاهتمام ووجهت الأنظار نحو تمجيد الدور القيادي الأوروبي في نشر الحضارة المسيحية بين سكان أفريقيا، ونسيت هذه القوى أن القارة كانت مهدا للإسلام ولا تزال حتى يومنا هذا.



شكل رقم (14)



شكل رقم (14)

المصادر

أولا: وثائق أصلية باللغات الأجنبية

1.C.6701 Salisbury to Dufferin, 3 March, 1893 (LVI)

2. C.O.446/16 & 22 & 31 & 32.

3. C.O. 537/11 Africa No. 2.

4. C.O. 537/11 William Evrett: A Short History of Rabeh Zubeir. (Secret).

5. F.O. 2/675 and 2/907.

6. F.O. 101/84.

7. F.O. 403/340 Various correspondence concerning the Mullah Mohd. Abdulla Hassan.

8. S.A.D. 125/3 and 125/4 and 125/7 Documents Concerning the Intelligence Diary.

9. A.O.M. Senegal I.41.b-42.b-43.a-46.a.56.b 61.c gg.a.

10. A.O.M. Senegal IV. 44.a-45.e. 52.e 73.c.

11. ANS (Archives Nationales du Senegal), (Dakar) ID- 81- ID 85- 13G, 240- 13G. 244- ID 51- 52-ID-81- 93.

12. ANSOM (Paris), (Archives Nationales Section d'outre Mer). Senegal, 1/73/a Senegal, IV/84/b Senegal, IV/85/a Senegal, IV/18/b.

13. 13. Official History of the Operations in Somaliland (1901- 1904) Vol. I, General Staff, War Office, London, 1907.

14. Hertslet, E.: The Map of Africa by Treaty, 3 Vols. London, 1909.

15. Lugard's Reports, 1904.

ثانيا: مصادر أصلية باللغة العربية

1- الشيخ عثمان بن فودي: تنبيه الإخوان على أحوال أرض السودان (14 صفحة)، سجل رقم 71، مظروف رقم 1.

- سراج الإخوان في أهم ما يحتاج إليه في هذا الزمان، ص 377- 414، مجموعة كنديل، سجل رقم 4، مظروف 11.

- الأمر بموالاة المؤمنين والنهي عن موالاة الكافرين، ص 140- 151، مجموعة كنديل، مجلد 4 رقم ٥.

- تنبيه الغاذفلين، ص 427- 438، مجموعة كنديل، مجلد 4، رقم 13.

- نصيحة أهل الزمان لأهل السودان من الأعراب والأعاجم في جميع البلدان، ص 152- 183، مجموعة الأستاذ محمد أحمد الحاج، مجلد رقم 4، نمرة 37.

- أصول الولاية وشروطها، ص 112- 119، مجموعة كنديل، سجل ٥، مظروف 9.

2- الشيخ عبد الله بن فودي:
- ضياء الحكام، ص 1- 174 بتاريخ 1221هـ، مجموعة كنديل مجموعة 3 رقم 1، تحقيق وترجمة شيخو ياموس، ماجستير بجامعة أحمد بلو-طبع زاريا، 1956.
- تزيين الورقات بجمع بعض مالى من الأبيات، ص 1459- 1501، مجموعة متحف جس، مجلد 3، رقم 59، نشره وترجمه هسكيت أبادان، 1963.
- مطية الزاد، ص 225- 304، مجموعة كنديل، مجلد 3، رقم 3.
- نيل المرام من شيخ الكرام، 17 صفحة. سجل رقم 127، مظروف رقم7.
3- الشيخ محمد بلو بن عثمان:
- وثيقة إلى جماعة المسلمين، ست صفحات، سجل رقم 86، مظروف رقم 4.
- شفاء الأسقام في ذكر مدار الحكام، 66 صفحة، سجل رقم 10، مظروف رقم 251.
- تنبيه الصاحب على أحكام المكاسب، ص 193- 201، مجموعة متحف جس، سجل 1، مظروف رقم 6.
4- الحاج عمر الفوتي التكروري:
- كتاب الرماح حزب الرحيم، القاهرة، 1926.
- إجازة في ورد التيجانية، صفحتان، سجل 71، رقم 3.
- منظومة في إصلاح ذات البين، (مخطوطة بباريس).

ثالثا: رسائل جامعية

- عمر فضل صالح: العلاقات بين حكومة المهدية وسلطنات غرب السودان-رسالة دكتوراه غير منشورة بمعهد البحوث والدراسات الأفريقية، القاهرة، 1978.

رابعا: المراجع العربية

1- إبراهيم صالح يونس: تاريخ الإسلام وحياة العرب في إمبراطورية كانم وبرنو، الخرطوم 1970.
2- إبراهيم طرخان: إمبراطورية البرنو الإسلامية، القاهرة 1973.-
3- أبو المحاسن، يوسف تغرى بردى الأتابكى: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، الجزء الخامس، القاهرة 1935.
4- الإصطخري: أبو أسحق إبراهيم بن محمد الإصطخرى: المسالك والممالك، القاهرة، 1961.
5- إسماعيل سرهنك: حقائق الأخبار عن دول البحار، القاهرة 1324هـ.
6- السير أحمد العراقي: نظام الحكم في الخلافة الصكتية، الخرطوم، 1983.
7- السيد رجب حراز: التوسع الإيطالي في شرق أفريقيا، وتأسيس مستعمرتي أرتيريا والصومال، القاهرة، 1960.
8- تمام همام تمام: تطور حركة الجهاد الصومالي 1900-1960، القاهرة، 1983.
9- جامع عمر عيسى: تاريخ الصومال في العصور الوسطى والحديثة، القاهرة، 1965.
10- حسن إبراهيم حسن: انتشار الإسلام في القارة الأفريقية، القاهرة، 1963.
11- حسن أحمد محمود: الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا، جـ1، القاهرة، 1963.

12- حسن عيسى عبد الظاهر: الدعوة الإسلامية في غرب أفريقيا وقيام دولة الفولاني، الرياض، 1981.

13- زاهر رياض: استعمار أفريقيا، القاهرة، 1965.

14- سعد الدين الزبير: الزبير باشا، رجل السودان، القاهرة، 1965.

15- سعد الدين الزبير: إمبراطورية رابح الزبير، القاهرة، 1951.

16- سعيد عثمان جوليد: يوميات صومالية، عام، 1969.

17- شوقي الجمل: تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها، القاهرة، 1980.-عبد الرحمن زكي: الإسلام والمسلمون في غرب أفريقيا، القاهرة، (من دون تاريخ).

18- عبد الرحمن عمر الماحي: تشاد من الاستعمار حتى الاستقلال القاهرة، 1982.

19- عبد الصبور مرزوق: ثائر من الصومال: الملا: محمد عبد الله، القاهرة، 1964.

20- عبد الغني خلف الله: مستقبل أفريقيا السياسي، القاهرة، 1961.-

21- عبد الله عبد الرازق إبراهيم: الإسلام والحضارة الإسلامية في نيجيريا، القاهرة، 1984.

22- عبد الملك عودة: السياسة والحكم في أفريقيا، القاهرة، 1969.-

23- عبده بدوي: شخصيات أفريقية، القاهرة 1974.

24- عثمان بن فودي: إحياء السنة وإخماد البدعة، القاهرة، 1962.-

25- علي إبراهيم عبده: مصر وأفريقيا في العصر الحديث، القاهرة، 1962.-

26- محمد المعتصم سيد: مهدى الصومال، بطل الثورة ضد الاستعمار. القاهرة، (من دون تاريخ).

27- محمد مصطفى صفوت: مؤتمر برلين وآثاره في البلاد العربية، القاهرة، 1957.

28- هربرت فشر: تاريخ أوروبا في العصر الحديث، تعريب أحمد نجيب هاشم ووديع الضبع، القاهرة، 1974.

29- هوبير ديشان: الديانات في أفريقيا السوداء، ترجمة أحمد صادق حمدي، القاهرة، 1956.

خامسا: مقالات ودوريات وصحف عربية

1- تمام همام تمام: المقاومة الوطنية ضد التوسع الفرنسي في أعالي النيجر، مجلة الدراسات الأفريقية، العدد الثامن، 1979.

2- عثمان أحمد إسماعيل: حركتا الشيخ عثمان بن فودى ومحمد أحمد المهدى،-دراسات أفريقية، العدد الثاني، الخرطوم، 1986.

3- جريدة الأهرام: العدد 1581، في 10/ 1899/11.

سادسا: المراجع الأجنبية

1. Abun Nasr Gamil: The Tijaniyya, a sufi order in the Modern World, London, 1965.

2. Adeleye, R.A.: Power and Diplomacy in Northern Nigeria, London, 1971.

3. Ba and Daget, J. I. L'Empire Peul de Macina, I (1813- 1853) Centre du sudan, IFAN, 1955.

4. Boniface, Obichere: The African Factor in the Establishment of French

Authority in West Africa 1880-1900, in France and Britain in africa, U.S.A., 1965.

5. Burns, Alan: History of Nigeria, London, 1972.
6. Carrera, F. and Holle, P.: De La Senegambie Francasie, Paris, 1855.
7. Crowder, Michael: The Story of Nigeria, London, 1962.
8. Crowe, S.E.: The Berlin West african Conference, 1884- 1885, London, 1942.
9. Delafosse, M:: Le Pays, Les Peuples-Haut-Senegal Niger, (Soudan Francais) Ser. I. 1912.
10. Dubois, F., Tomboctu, La Mysterieuse, Paris, 1899.
11. Emil gentil: La Chute de L'Empire de Rabeh, Paris, 1899.
12. Fage, J.D: A History of West Africa, London, 1972.
13. Faidherbe, L: Le Senegal, La Frace Dans I'Afrique Occidentale, Paris, 1889.
14. Fife, Christopher: Sierra Leone Inheritance, London, 1972.
15. Filix chapiseau: Au Pays de L'esclavage, Paris, 1904.
16. Flint, John: Sir George Goldie and the Making of Nigeria, London, 1960. The Cambridge History of Africa. Vol. 5, London, 1976.
17. Frey, Henry: Campagne dans le Haut Senegal et dans le Haut Niger, 1885- 1886, Paris, 1888.
18. Gann, L. H. and Peter Duignan: Colonialism in Africa, London, 1963.
19. Gallieni, J. S: Mission d'exploration du Haut Niger, Voyage au Soudan Francais (1879- 1881) Paris, 1885.
20. Gatelet, L. C.: Historie de la conquete du Soudan Francais, 1878- 1879, Paris, 1901.
21. Griffeth, R.: Samori Toure, Essays from Tarikh, Published in Leadership in 19th Century Africa, London, 1982.
22. Hargreaves, John: Prelude to the Partition of West Africa, London, 1966. West Africa, Partitioned, vol. I, London, 1973.
23. Hiskett, M: The Sword of the Truth, London, 1973.
24. Hugh Clapperton: Journal of a Second Expedition in the Interior of Africa, London, 1829.
25. Ikime, Obaro: Groundwork of Nigerian History, Nigeria, 1980.
26. Jardine, Douglas: The Mad Mullah of Somaliland, London, 1965.
27. Johnston, H: A History of Colonialism in Africa, London, 1913.
28. Johnston, H.A.S: The Fulani Empire of Sokoto, London, 1967.
29. Kanya Forstner: Mali-Tukulor in West African Resistance (ed) Michael Crowder, London, 1978.
- The Conquest of the Western Sudan, London, 1975.
30. Keltie, John, Scott: The Scramble after years of Preliminary Activity, Compiled by Betts in the Scramble for Africa, London, 1895.
31. Kirke Greene: Adamawa, Past and Present, London, 1958.
32. Ki Zerbo Joseph: Histoire de L'Afrique Noire, Paris, 1972.

33. Last, M: The Sokoto Caliphate, London, 1968.

34. Le Chatelier, A.: L'Afrique Occidentale, Paris, 1899.

35. Legendre, P: La Conquete de la France Africaine, Paris, n.d.

36. Lewis, M: The Modern History of Somaliland, London, 1965.

37. Mage, E: Voyage dans le Soudan Occidentale Senegeambie-Niger, 1863- 1866, Paris, 1877.

38. Martin, B. G: Moslem Brotherhoods in 19th Century Africa, London, 1976.

39. Meek, C. K: The Northern Tribes of Nigeria, London, 1925.

40. Meniaud, J: Les Pioniers du Soudan, 2 Vols. Paris, 1931.

41. Mevil, A: Samori, Paris, 1899.

42. Muffett, D.J.M: Concerning Brave Captains, London, 1964.

43. Oloruntimehin, B. O.: The Sequ-Tukolor Empire, Ibadan, 1976.

44. Oliver Ronald and Antony Atmore: Africa Since1800, London, 1967.

45. Palmer, H. R: Bornu, Sahara and Sudan, London, 1936.

46. Panikker, Madhu: The Serpent and the Crescent Bombay, 1963.

47. Paul Bory: Le Chad, Paris, 1962.

48. Perham Margery, Lugard: The Years of Authority, 1898- 1945, London, 1961.

49. Person, Y: Histoire de L'Afrique. Noire (ed). H. Brunschwig, Paris, 1970.

- Samori and Islam, in Studies in West African Islamic History Vol. I (ed.) John Ralf Willis, London, 1979.

- Samori, une Revolution Dyula, I Dakar, 1968.

- Guina-Samori, in Michael Crowder, West African Resistance, Lagos, 1978.

- Samori et la Sierra Leone, in Cahiers d'Etudes Africanines, Paris, 1967, (No. 25).

50. Peroz, E: Au Soudan Francais, Paris, 1891.

51. Porch Douglas: The Conquest of the Sahara, London, 1984.

52. Richard Greenfield: An Historical Introduction to Refugee Problem in Somali Democratic Republic-Somalia and the World, Vol. II, Mogadishu, 1980.

53. Robinson David, Chiefs and Clerics 1853- 1891, London, 1975.

54. Robinson, R, and J. Gallagher: Africa and the Victorians, New York, 1969.

55. Samantar, Nicole: Mohammed Abdulle Hassan, Paris, 1979.

56. Seligman, Charles: Races of Africa, London, 1970.

57. Smaldone, J.P: Warfare in the Sokoto Caliphate, London, 1960.

58. St. Martin, Y. J: L'Empire Toucouleur de La Francais, (1846- 1893) Dakar, 1967.

59. Triminglam, S: History of Islalm in West Africa, London, 1970.-Islam in Ethiopia, Oxford, 1952.

60. Wilks, Ivor: The Transmission of Islamic Learning in the Western Sudan, in G. Goody (ed) Literary Traditional Societies, Cambridge, 1968.

61. Willis, Ralf: The Writings of Al Haj, Umar Al-Futi, in Studies in West African Islamic History,

Vol. I, London, 1979.
62. Yousuf Hilmi: African Arab Relations, U.S.A., 1986.
63. Ziadeh, N: Sanisiyah: A Study of a Revivalist Movement of Islam, London, 1965.

سابعا: دوريات أجنبية

1. Abdullah, Smith: The Islamic Revolutions of the 19th Century, Journal of the Historical Society of Nigeria, 2, 1961.
2. Amadou Kouroubari: Histoire de L'Imam Samori, BTFAN, 21. Serie B. No. 3- 4 (1959).
3. Fisher, H. J: The Early Life and Pilgrimage of Al Hajj Al Amin, the Soninke, J.A.H. 1970, II, I.
4. Hisikett, Mervyn: Materials Relating to the State of Learning among Fulani before their Jihad, Bulletin of the School of Oriental and African Studies, 19, London, 1957.
5. Hrbek Ivan: The Early Period of Muhamed Lamin's Activities, in studies in West African Islamic History, London, 1979.
6. Lartique, R: Le Rapport sur les Operations de la Colonne du Sud prise de Samory, Bulletin du Comite de L'Afrique Francaise, Renseigments Coloniaux, VII, 1899.
7. Martin, Legasik: Firearms, Horses and Somorian Army Organization 1980-1898, Journal of African History, VII, I, 1966.
8. Newbury, C.W. and A. S. Kanya Forstner: French Policy and the Origins of the Scramble for West Africa, Journal of African History, X, 1969.
9. Nyamberza, Danial: Le Marabout El-Hadj: Lamine d'apres Les archives francaise, in cahiers d'Etudes Africaines 33, Vol. IX, No. I. 1969.
10. Willis Ralf: Jihad fi Sabil Allah, Its doctrinal basis in Islam and some aspects of its Evolution in the 19th Century West Africa, Journal of African History, VIII, 1967.

الهوامش

(1) زاهر رياض: استعمار أفريقيا، الماهرة 1965، ص 130.

(2) هربرت فيشر: تاريخ أوروبا في العصر الحديث، تعريب أحمد نجيب هاشم ووديع الضبع، القاهرة 1974، ص 386.

(3).Tull, G. And P. Britain and the World in the 20th Century. 5.London, 1971, p

(4) أنظر خريطة شكل (1).

(5) محمد مصطفى صفوت: مؤتمر برلين 1878 وآثاره في البلاد العربية، ص 8.

(6) عبد الملك عودة: السياسة والحكم في أفريقيا، القاهرة، 1969، ص 93, (3)139 .Gann, L. H. and Peter Duignan: Colonialism in Africa 1870- 1960, p

(7).OLiver Ronald and Antony Atmore: Africa Since 1800, London, 1967, p110

(8) عبد الغني خلف الله: مستقبل أفريقيا السياسي، القاهرة 1961، ص 25.

.25. Compiled by Betts in the Scramble for Africa, p (1). Keltie, John Scott: The Scramble After Years of Preliminary Activity

(9) علي إبراهيم عبده: مصر وأفريقيا في العصر الحديث، ص 116.

(10).Robinson, Ronald and John Gallaghar: Africa and the Victorians. pp. 165- 163

(11) شوقي عطا الله الجمل: تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها، ص 409.

(12) Crowe. S.E.: The Berlin West African Conference. 1884- 1885. London. 70- 50. 1942, pp

(13) انظر تفاصيل هذه الجلسات في . 120- 80. Crowe, S.E.: op. Cit. pp

(14) .63. Crowder, M.: West Africa under Colonial Rule, p

(15) .130. Crowe. S.E.: op. cit. p

(16) .335. Hargreaves. J.: Prelude to the Partition of West Africa. P

(17) (2). 903. Hertslet. E.: Map of Africa by Treaty. Vol. 111. P

(18). Flint. J.: Sir John Goldie and the Making of Nigeria. London, 1960, pp

(19). 112. Oliver Ronald and Atmore: op. Cit. p

(20) انظر خريطة هذه التقسيمات، رقم (2).

(21) .778. Salisbury, to Dufferin. 3 March 1892. C. 6701)1892(LVI

(22) نصر رشوان: دولة ساموري في غرب أفريقيا 1872- 1898- رسالة دكتوراه غير منشورة بمعهد البحوث والدراسات الأفريقية بجامعة القاهرة 1978، ص 293.

(23) .258- 250. Flint. John: op. cit. pp

(24).301. Robinson and Gallaghar: op. Cit. P

(25).221. Johnston, H.: Colonialism in Africa, p

(26) .21. Hertslet, E.: Map of Africa by Treaty. Vol. III p

(27) شوقي الجمل: مرجع سابق، ص 492.

(28)935. Hertslet, E.: Op. cit. Vol. III, p

(29) السودان الغربي يعني كل بلاد السود أي أصحاب البشرة السوداء في هذا الحزام الممتد في قلب القارة من الغرب إلى الشرق، وصار اسم السودان الغربي قاصرا على المنطقة شبه الصحراوية، والتي انتشر فيها الإسلام، والتي تعرف الآن بغرب أفريقيا. وظل اسم السودان الغربي شائعا حتى القرن التاسع عشر، ويضم ممالك مالي، وسوكوتو، وبرنو، وكانم، وبراجرمى، ووادا‌ي، ودارفور. ويقول الإصطخري: «وبلاد السودان بلدان عريضة.. وليس هم بنوبة ولا بزنج ولا بحبشة ولا من البجة إلا أنهم جنس على حدة أشد سوادا من الجميع وأصفى»

الإصطخري: أبو إسحاق إبراهيم بن عمد الإصطخري: المسالك والممالك، القاهرة 1961، ص 34.

(30) انظر عن دولة المرابطين: حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين، القاهرة 1957.

(31) إبراهيم طرخان: دولة مالي الإسلامية، ص 52- 59.

(23)لمزيد من الدراسة عن انتشار الإسلام في أفريقيا: انظر: حسن أحمد محمود: انتشار الإسلام في القارة الأفريقية، القاهرة 1963.

(4). 3- 152. Dubois, F.: Tomboctu La Mysterieuse, pp

(5). 96. Seligman, Charles: Races of Africa, P

(33) لمزيد من الدراسة حول الفولاني: انظر: عبد الله عبد الرازق إبراهيم: الإسلام والحضارة الإسلامية في نيجيريا، القاهرة، 1984.

(34) انظر خريطة توزيع هذه الإمارات. (شكل رقم 3).

(35) تحدث الشيخ عبد الله بن فودي عن الجهاد ومراحل تكوين الدولة الإسلامية في كتاب تزيين الورقات بجمع مالي من الأبيات. نشره وترجمه هيسكت أبادان 1963.

(36) انظر سيرة هذا المجاهد في: حسن عيسى عبد الظاهر: الدعوة الإسلامية في غرب أفريقيا وقيام دولة الفولاني، المملكة العربية السعودية، 1981، جامعة الإمام محمد بن سعود.

(37) عبد الله عبد الرازق إبراهيم: مرجع سابق: ص 53- 63.

(38)Martin, B.G.: Muslim Brotherhoods In 19th Century Africa, London. 13- 1. 1976, pp

(1) محمد بلو: إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور. وزارة الأوقاف، القاهرة، 1964. ص 57- 59.

(39) .44. Hiskett M. The Sword of the Truth. P

(40) عثمان سيد أحمد إسماعيل: حركتا الشيخ عثمان بن محمد بن فودي ومحمد أحمد بن عبد الله المهدي وآثارهما: مجلة دراسات أفريقية بالخرطوم، العدد الثاني، أبريل 1986، ص 35- 53.

(41) محمد بلو: مرجع سابق، ص 96.

(42) بلغت الكتب التي ألفها الشيخ عثمان أكثر من خمسين كتابا عالجت شتى فروع العقيدة الإسلامية. وقد عكف على هذه المؤلفات بعد عام 1812 حتى وفاته عام 01817 انظر تفاصيل مؤلفاته في حسن عيسى عبد الظاهر: مرجع سابق. ص 208- 210.

(43).80-60. Adeleye. R.A.: Power and Diplomacy in Northern Nigeria, 1804- 1906. pp

(44) حسن عبد الظاهر: مرجع سابق، ص 150.

(45)361. Ki, Zebro, Joseph: Histoire de L'Afrique Noir, p

(46).175. Panikkar, K. Madhu: The Serpent and the Crescent, p

(47).46. Last, Murray: The Sokoto Caliphate, London, 1867, p

(48) عثمان بن فودي (وثيقة أهل السودان) تحقيق:

235. Bivar, A. D. H.: Journal of African History, Vol. II, 1961, p (3). 22. Trimingham, J.S.: History of Islam in West Africa, p

(49) عبد الرحمن زكي: الإسلام والمسلمون في غرب أفريقيا، القاهرة (من دون تاريخ)، ص 92.

(50) انظر مواقع هذه المدن على الخريطة (شكل رقم 4).

(51).8. Webster. J. B.: The Revolutionary Years, West Africa, Since 1880, p

(52),.Abdullah Smith: The Islamic Revolution of the 19th Century. J.H.S.N. 2. 2. 1961. P

(53).100. Meek. C.K.: The Northern Tribes of Nigeria, Vol. 1, p (4)

(54) عبد الله عبد الرازق إبراهيم: مرجع سابق، ص.62 -54

(55) السير سيد أحمد العراقي: نظام الحكم في الخلافة الصكتية، الخرطوم 1983، ص 12.

(56) .150. Fage, J. D.: A History of West Africa, p

(57).238- 230. Muffett. J. M. D.: Concerning Brave Captains, pp

(58)70- 250. Flint. J. E.: Sir George Goldie and the Making of Nigeria, London, 1969, pp

(59) .159. Last. M.: op. cit. p

(1)انظر تفاصيل النظام الحربي في:. 220. Adeleye. R. A., op. cit. p

(2) السير سيد أحمد العراقي: مرجع سابق، ص 58.

(3) الرباط وهو ما يربط به الخيل وهو الحصن أو المكان الذي يرابط فيه الجيش، وظهر اسمه المرابطين من كلمة الرباط أي الخلوة التي اتخذها عبد الله بن يسن في جزيرته بالسنغال، ويعنى الرباط أيضا حراسة الحدود حيث كان المخلصون للدين يرابطون لمساعدة حامياته. انظر: حسن إبراهيم حسن: انتشار الإسلام في القارة الأفريقية، ص

19- 20. (4). 220. Adeleve. R. A., op. cit., p

(1).57. Kirke Greene: Admawa, Past and Present, p

. (1). 234. Adeleye. R. A., op. cit., p

(2) انظر مراحل الغزو البريطانية للدولة في الخريطة، (شكل رقم 5).

(3) .280. Johnsto. H.A.S.: The Fulani Empire of Sokoto. London, 1967. P

(1) .186. Kime, Obaro: Groundwork of Nigerian History. P

(1) .247. Adeleye. R. A., op. cit. p

.252. Adeleye. R. A., op. cit., p

(1).1991 C.O. 446/16 Wallace to C.O., 2 August

(2).256. Adeleye, R. A., op. cit., p

(3).1902. C.O. 446/24 Lugard to C.O., 20 Sept

(4) .43. Muffett, D.J.: Concerning Brave Captains, p

(1) .257. Adeleye. R., op. cit., p

)1(.282. Johnston: op. cit., p.

)2(108. Perham, M.: Lugard, The Years of Authority. P

)1(.1903 C.O. 446/30 Lugard to C.O., 15th January.

194. Ikime, Obaro: op. cit., p(2)

(1) .203. Kime. Obaro: op. cit., p

(1).C.O. 446/31, Translation of Caliph‘s Letter to Morland Encl. NO. 1 in Lugard to C.O., 22 March.

204. (2) Ikime, Obaro: op. cit.,

p. 192. Burns, Alan: History of Nigeria, p

(1) .176. Last. M.: op. cit. p

(1). 1903 C.O. 44/31. encl., in Wallace to C.O. No. 183, on 20 May

(1).296. Adeleye. R. A.: op. cit., p. 207.

)2(Ikime, Obaro: op. cit., p

(1) .198. Muffet. D. J.: op. cit., p

(1) C. O. 446/32 Wallace to C. O. No. 328 of Sept. 1903 encl. 2.

(1) Ikime. Obaro: op. Cit., p. 288.

.200. Muffet. D. J.: op. cit., p)2(

(1) هوبيبرديشان: الديانات في أفريقيا السوداء، ص 127.

(2) انظر تفاصيل انتشار الإسلام في غرب أفريقيا في:

حسن أحمد محمود: الإسلام والثقافة العربية في أفريقية، الجزء الأول، القاهرة، 1963، الفصل الثالث، ص 217- ا 30.

(1) Abun-Nasr. Gamil: The Tijanyya. P. 106.

(1) أسس الطريقة التيجانية في القاهرة الشيخ أحمد التيجاني (1737- 1815). وكان أصلا أحد أعضاء الطريقة الخلواتية، ثم غادر الشيخ التيجاني القاهرة إلى شمال أفريقيا حيث أقام أول زاوية له في قرية أم ماضي التي صارت مقر الطريقة الجديدة. ومن هذا الطريق انتشرت الطريقة رويدا رويدا إلى السودان الغربي، والسنغال وموريتانيا، ويرجع الفضل إلى انتشار الطريقة إلى جهود الشيخ محمد الحافظ بن مختار الحبيب وهو أحد اتباع الشيخ أحمد التيجاني. انظر.

Abun-Nasr. Gamil: The Tijanyya. A Sufi Order in the Modern. 1956, World London

(2)Willis, John Ralf: The Writings of Al Aajj Umar al Futi. In Studies in. 178. West African Islamic History. Vol. I. p

(1. Martin, B. G.: Moslem Brotherhoods in the 19th Century Africa 69. London, 1976, p

(2) الحاج عمر الفوتي: تذكرة الغفلان وكبح اختلاف المؤمنين منظومة في إصلاح ذات البين، مخطوطة بباريس تحت رقم 05609 انظر:

.Ms. No. 5609 Bibliotheque Nationale. Paris, fols 20 a-b

(3) Hugh Clapperton: Journal of a Second Expedition in the Interior of. 249. Africa, London, 1829. P

الحاج عمر: الرماح، الفصل الأول، ص 183.

(1) .223. Mage, E.: Voyage dans le Soudan Occidentale. Paris, 1868. P

(1)Ba and Daget. J.: L‘Empire peul du Macina. I,(1818- 1853)IFAN en. 247- 245. Sudan. 1955. pp

(2) .110. Abun Nasr, Gamil: op. cit., p

(3) (3).Wilks. I.: The Transmission of Islamic Learning in the Western Sudan. 174. in G.

Goody(ed.)Literary Traditional Societies. Cambridge 1968. P

(4).157. Person. Y.: Samori. Une Revolution Dyual. I. Dakar, 1968. P

(1)الحاج عمر: كتاب الرماح (الفصل الأول)، ص 197.

(2)انظر هذه المواقع شكل (6)

(3).112. Abun Nasr. Gamil: op. cit., p

(1) .7- 176. Le Chatelier: L'Islam dans L'Afrique Occidentale. pp

(2) (2). (Kanya. Fostner: Mali-Tukulor. In West African Resistance.) Ed Michael Crowder. London. 1978, p. 57.

(1).Faidherbe to Minister of Marine and Colonies. 19 July 1857. Section. Outre Mer des Archives Nationales Senegal. I, 43/a. 150- 148. Mage, E.: Voyage. Pp)2(

(3)شوقي الجمل: تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها، القاهرة، 1980، ص 508.

.157. Abun Nasr. Gamil: op. cit., p (4)

(1) St. Martin, Y. J.: L'Empire Toucouleur et la France) 1846- 1893(Dakar. 76. 1967, p

(2) .138. Carrere, F. and Holle. p.: De La Senegambie Francaise, Paris, 1855 p

(1) ANF. O.M. Senegal. 4,440) Copy of a letter of 3 October (1955, Faidherbe. to the Commandants of Upper Senegal

(2) .42. Robinson. David: Chiefs and Clerics 1853- 1891. London, 1975, p

(1) .4- 163. Faidherbe. L.: Le Senegal. 1889, pp

AOM(Archives d'Outre Mer)Senegal. I. 41. B (1)

.116. Abun Nasr, Gamil: op. cit., p (2)

.AOM Senegal. I. 42. B(3)

(1),Morel to Minister of Marine and Colonies 13 August 1856, AOM. Senegal 1. 42. B

Faidherbe to Min. of Marine and Colonies, 19 July 1857, AOM, Senegal. I. 42. B

(1) .7- 156. Mage, E.: Voyage, pp

(2) Faidherbe to Min. of Marine and Colonies 17 Sept. 1859, AOM (2)وانظر خريطة شكل رقم (6).. Senegal. 1. 46. A

(3) انظر مواقع هذه المدن على الخريطة رقم (6)

(1) .AOM, Senegal IV. 45e

(1) (Delafosse, M.: Le Pays, Les Peuples Haut Senegal Niger,) Soudan. 312. Francais (Ser. I.of 1912, 3 Vol. 11, p

(1) .122. Abu Nasr, Gamil: op. Cit. p

(1) تشير المصادر الشفوية إلى أن الحاج عمر قد انتحر حيث يشير أحد الحدادين الذين رافقوا الحاج عمر في ساعاته الأخيرة إلى أنه تسلق إلى أحد الأسطح حاملا برميلا من البارود، وبعد الصلاة لآخر مرة جلس على هذا البرميل وأطلق النار على نفسه فانفجر البارود، وقطع الحاج إلى قطع صغيرة. St. Martin: op. cit. p .75

انظر خريطة شكل رقم (9).

(1) حسن أحمد محمود: مرجع سابق، ص 299

(1) .80. Growder, Michael: West Africa Under Colonial Rule, p

(2) .226. Oloruntimehin, B. O.: The Segu Tukulor Empire, Ibadan, 1976, P

(1) .120. Mage, E.: Op. cit., p

(1).56.6.Valiere to Minister of Marine, 15 March 1872, AOM, Senegal I

(2) .Biere de L'Isle to Minister of Marine, 5 June 1878, AOM, Senegal I.61. C

(3) (3) انظر خريطة شكل رقم (6)، وأيضاً. 132 . Abun Nasr Gamil: op. cit., p

(4) Newbury C.W. and A.S. Kanya Forstner: French Policy and the Origins. 1969, of the Scramble for West Africa Journal of African History, X

(1) .4- 3 Kanya Forstner: The Conquest of the Western Sudan, Chapters

(2) (2).52. AOM, Senegal IV

(3).Biere de L'Isle to Min. Of Marine, 5 June 1878, AOM, Senegal I.61. C

(1) Galliene, J.S.: Mission d'exploration du Haut Niger, Voyage au. 365- 360. Soudan Francais, 1879- 81, Paris, 1885, pp .

Galliene, J.S.: Mission d'exploration du Haut Niger (2)

(1) .1885, Voyage au Soudan Francais, 1879- 81, Paris

(1) .Lannaux to Min. Of Colonies, 8 July 1881, AOM, Senegal I.99. A

(2) .Ahmadu to Biere de L'Isle, received 12 May 1881, Senegal IV, 73/C (3)

(3) انظر شكل رقم (7). وأيضا خريطة رقم (6).

(١) انظر نص المادة (34) في:, Hertslet, E.: Map of Africa by Treaty. 486- 468. The Berlin Act. Vol. II, London, 1909, pp

(2) انظر خريطة شكل رقم (6).

(3).311. Olorunthimhen, B.O. op. cit., p

(1) .6- 80.AOM, Senegal I

(1) .312. Oloruntimhen, B.O.: op. Cit. p

(١) انظر خريطة شكل (7).

(1) .334. Delafosse, M.: Op. cit., II, p

,Fisher, H. J.: The Early Life and Pilgrimage of Al Haj Al Amin(1) The Soninke, J.A.H. 1970, II. I. 159 .

Flint, John: The Cambridge History of Africa, p. 133(2)

.Hargreaves, J.D.: France and West Africa, p(3)

(1).1970, Frimingham, J. S.: History of Islam in West Africa, London. 239- 235. pp. 23.

Yousuf Hilmi: African Arab Relations, U.S.A. 1986, P(2)

(1) .329. Oloruntimhin, B. O. op. cit., p

(1) Hrbek, Ivan: The Early Period of Mahmadu Lamin's Activities, in. 211. Studies in West African (6) (1) Frey, Henri,انظر خريطة رقمIslamic History Vol. I(ed.)John Ralf Willis, p (2) (2) Campagne dans le Haut-Senegal et dans le Haut-Niger. 250. 1885- 1886(, Paris 1888, p) (2) .216. Le Chatelier: L'Islam dans L'Afrique Occidentale, (Paris 1899), p (3). 212. Hrbek, Ivan: op. cit., p (1)

Boniface Obichere: The African Factor in the Establishment Of French Authority in West Africa 1880-1900, in France and Britain in (2) (2).21- 420. General Faidherbe: Le Senegal (1889), pp .86. Crowder, Michael: West African Resistance, p. 216(1) . (2)Frey, H.: Op. cit., pp. 250- 26, and also le Chatelier: op. cit. , p. 400. (3)Willis, J. R.: Jihad fi Sabil Allah. J.A.H. VIII, 3, 1967, P (1).131. Ziadeh, N.: Sanisiyah, A Study of a Revivalist Movement of Islam, p (1) .114. Rancon: Le Bondou, (8). (3) .91. Legendre, P. La Conquete de la France Africaine, pانظر خريطة شكل رقمp (2) (2) (1) .215. Hrbek, Ivan: op. cit., p (1) .88. Crowder, M.: Op. cit., p

(2) انظر الخريطة شكل رقم(6)

.216. Hrbek, Ivan: op. cit., p(1) (1).266- 256. Frey: Campagne, pp (2),Archives Nationales du Senegal (ANS) ID 81/4- 5 Modi Diamato Governor. 1886. 15 Oct (3) ,1885, 12 ANSOM, Senegal 1/73/a Governor of Senegal to MMC, December (1) .219. Hrbek, Ivan: op. cit., p (2).ANS 15G 67/30 Surakhe the Leader of Mussala to Combes S.D (3).1885 ANS 13 G 2- 40/80 Frey to District Officers, 28 November (1) ANS 13G 240 Commandant Bakel to Moh. Lamin, 11 Dec. 1885, and. 1886. 13G 186/68 Commandant Bakel to Houry, 13 Jan ANS 13G 186/68 Report to Commandant Bakel on the affairs of. 1886, Mohmadu Lamin, 13 Jan (1) .94. Crowder, M.: Op. cit (2) .416. Faidherbe, L: Le Senegal, p (3) .222. Hrbek Ivan: op. cit., p (1) .240/80 ANS 13 G (2) (2).472. Boniface Obichere: op. cit., p (3) .1886 ANS 15G 51/887 Houry to Frey, 4 February 1886, and 18 February (1) .1886. ANS 15 G 15/96 Houry لم يتم العثور على أصل هذا الخطاب، لكن محتوياته قد أشار إليها هوري فيto Frey, 20 Feb (1) برقية إلى فري، أنظر:1886 ANS 15 G 51, 20 February (1) ..274. Frey: Campaigne, p , 1886, 28. Frey. to Governor of Senegal, February 2, 1886, and Feb. 84/6/ANSOM, Senegal, IV (2)

.472. (1)Boniface Obichere: op. cit., p. 84- 283. (2)Frey: Campaigne, pp, (3) ANSOM: In Senegal IV, 84(b)Commandant Superieur a Gouverneur. 1886 St. Louis, 18 April (1) Nyambarza, Danial: Le Marabout El Hadj Lamine d'apres les, 1969 archives Francaise, in cahiers d'Etudes Africaines 33, Vol. IX, No. I

(2) انظر خريطة رقم (6). 473.

(1)Boniface, Obichere: op. cit., p. 97. Crowder, M.O op. cit., p (1) ANSOM, In Senegal IV, 84 (b) Telegramme Commandant. 1886 Superieur a Gouverneur St. Louis, April (2) (2).95. Crowder, M.: op. cit. p (3) ANSOM. In Senegal IV, 84,(b)Telegramme Commandant. 1886 Superieur a Gouverneur St. Louis Colonne, 13 May (1),1889- 1878, Galelet, L.C.: Histoire de la Conquete de Soudan Francais. 93. Paris, 1901, p (1) .3- 442. Frey, E.: Op. cit., pp (2) (2). 7- 1886 ASAOF, ID go, Rapports du Lt. Col. Gallieni Pendant la Campagne (3) .273. Oloruntimehin, B.O.: The Segu Tukulor Empire, London, (6). (2) ,Gallieni, J. S.: Deux Campagnes au Soudan Francais,انظر خريطة شكل رقم1976, p (1) 1886- 1888, Paris. 185- 179. 1891, pp (1) .101- 97. Gatelet, L. C.: op. cit., pp. 1886, 22 (2) ANSOM, (1) لقد تعارضت الآراء حول نهاية الشيخ محمد الأمين. منهمSenegal, IV/85/a Frey, Rapport, June من يرى أنه قبض عليه، ومنهم من يرى أنه قتل، ومنهم من يرى أنه جرح في فخذه وأنه مات متأثرا بجراحه، لكن المهم أن الرجل لم يستسلم للفرنسيين، ومات وهو يدافع عن شرف الإسلام والمسلمين. وتشابه في ذلك مع رابح فضل. انظر:, Frey, E.: Campaign, pp. 283- 84, and Crowder .

Michael, C.: Op. cit., p . 94

(1) Griffith, R.: Samori Toure, essays from Tarikh, published in. 43. Leadership in 19th Century Africa, London, 1982, p. 112. Crowder, M.: West African Resistance, Lagos, 1978, p (2) (1).344. Page, J.D.: (9) (2) , Person, Y.: H.انـظـر خـريـطـة شـكـل رقـمA History of Africa, London, 1978, p Brunschwing(ed.)Histoire de L'Afrique Noire. II. 120- 109. pp 4 . 14. Hargreaves, J.: West Africa 509 (1) Person,شوقي الجمل: تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها، صPartitioned, Vol. I.p (1) (2) Yves: Samori and Islam, in Studies in West African Islamic. 265. History, Vol. I, Ed.(John R. انظر خريطة شكل رقم (1). 273. (9)Willis)London, 1979, p. 46. (2) (2)Griffeth, R.: op. cit., p د (1) انظر مواقع هذه المدن عل Person, Y.: Samori: Une Revolution Dyula, I,(Dakar 1968), p(2) الخريطة رقم (9). (2) .57. Hargreaves, John: West Africa Partitioned, Vol. I, p (1) الفاما (Faama) تعنى الرجل الذي يحمل السيف، وتطورت لتعنى الرجل الذي يستولي على السلطة من خلال الغزو العسكري، وكان المنافسون لساموري يطلقون على أنفسهم لقب الفاما إشارة إلى القوة، واتخذ ساموري اللقب نفسه عام 1867 دون أن يربطه بالأهمية الدينية. (2) انظر خريطة شكل رقم (9). 271 . Person Y.: Op. cit., p (3) .240. Boniface(4) The Cambridge History of Africa, Vol. 6, p Obichere: The African Factor in the Establishment of. 474. French Authority in West Africa. 1880- -108. (1) Hargreaves, J.H.: France and West Africa, p . 139 . Peroz: Au Soudan, p . 383. (1) 1900, p (1) .254. Meniaud, J.: Les Pioniers Tome (2) Crowder, M.: Op. cit., p . 123 . Frey: Campagne, pp . 107 I. p Martin, Legasuck: Firearms, Horses and the Samorian Army. 115- 95. Organisation, 1890-1898, (9). (1) .70. Nevil, A.:انظر خريطة شكل رقمJ.A.H. VII, I. 1966, pp (1).345. Fage, J. D.: op. cit., p (2) Samori. Paris, 1899, p (1) .230- 225. Peroz, E.: Au Soudan Francais,(1891), pp . (2) 54. Griffeth, R.: op. cit., p. Person, Y.: Samori, Une Revolution Dyula, and Vol. I, Dakar, 1968, pp. 685- 683 (1) .105/ (10). (2) .307.انظر خريطة شكل رقمFrey to Tournier, 23 March 1886, (ANSOM) Senegal, IV لمزيد من الدراسة عنDelafosse: Haut-Senegal, Niger, 2, p (3) .120- 117. Frey, E. Campagne, pp (1) المعاهدة، انظر: Lartigue, R.: Le Rapport Sur les Operations de la colonne du sud Prise de, Samory, Bulletin du comite de l'Afrique Francaise Rensiegments Coloniaux. 1899, VII

(1).Amadou Kouroubari: Histoire de l'Imam Samori BIFAN, 21 Serie B. (551. No. 3- 4)1959, p. 240- 196. (2)Martin, Legaski: op. cit., pp

.476. Boniface Obichere: op. Cit. p. (1) (2)77. Hargreaves, J.: op. cit., p (1) .1888 ANSOM, Senegal Hargreaves, J.: West . (11) انظر الخريطة شكل رقم (1)VI/18/b, Gallieni to Governor 120, 30 April (1) Meniaud, Jacques: Les Pioniers du Soudan, Tome, II, P . 180. (2) Africa Partitioned. 198. p Person, Person, Yves: Guinea-Samory, in Michael Crowder, M.: West African. 137. Resistance, p Yves: Samori ET la Sierra Leone in Cahiers d'Etudes. 1967, 25 (2).Africaines, Paris, No (1).80-20. Crowe, S. E.: The Berlin West African Conference, London, 1942, p (2). 52. Griffeth, R.: op. cit., p (2) (9) (1) .178. Person Yves:انظر خريطة شكل رقم.77. Hargreaves, J.: West Africa Partitioned, p (1) تمام همام تمام: المقاومة الوطنية ضد(1)Guina-Samori, p. (2) 478.Boniface Obichere: op. cit., p

التوسع الفرنسي في أعالي النيجر، مجلة الدراسات الأفريقية، العدد الثامن، 1979، ص 159.
Fyfe: Christopher: Sierra Leone Inheritance, London, 1964, . 196 -240. (2) Griffeth: op. cit., p . 62. (1)
pp إلهام محمد ذهني: التغلغل الفرنسي في النيجر وموقف الوطنيين 1884- 1904، ص 171.
Lt. Col. . 73. (3) Forstner, Kanya: The Conquest of Western Sudan, Cambridge. 218.p ,1969,(2)
Bartier: A Travers L'Afrique Paris 1912, p
(1) يطلق على رابح فضل الله أحيانا لقب رابح الزبير نسبة إلى الزبير باشا رحمت أحد تجار الرقيق الذين ذهبوا إلى السودان. وقد اتخذ لنفسه مكانة خاصة، وكوّن جيشا كبيرا زوّده بأحدث الأسلحة، وحارب القبائل المجاورة، واستتب له الأمن في منطقة واسعة من بحر الغزال، واتخذ من «ديم الزبير» عاصمة له. ولما التقى مع رابح فضل الله أعجب به وبشجاعته، فضمه إليه وكان قد بلغ الثالثة والعشرين من عمره، واقترن اسمه بالزبير باشا حتى صار يلقب برابح الزبير. (1) ولمزيد من الدراسة عن الزبير باشا انظر: سعد الدين الزبير: الزبير باشا رجل السودان، القاهرة، 1951. وانظر: إبراهيم طرخان، دولة البرنو الإسلامية، القاهرة، 1975، وأيضا عبد الله عبد الرازق إبراهيم: الإسلام والحضارة الإسلامية في نيجيريا، القاهرة، 1984 وأيضا عمر فضل صالح: العلاقات بين حكومة المهدية وسلطنات غرب السودان. رسالة ماجستير غير منشورة بكلية الآداب-جامعة القاهرة، 1975 , (2) .255. Palmer, H. R.: The Bornu Sahara and Sudan, London,
1936, p (1) انظر تفاصيل هذه المراسلات في محمد بلو: إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور، القاهرة، 1964 , (2) عبد الرحمن عمر الماحي: تشاد من الاستعمار حتى الاستقلال، القاهرة، 1982، ص 116 , (1) عبده بدوي: شخصيات أفريقية-مقال عن السلطان رابح فضل الله، مكتبة الأنجلو، ص 22 , (2) William Everett: A Short History of Rabih Zubeir (Secret) C.O 537/11 Africa.
(3) No. 2, 19 December 1989, Written for the Intelligence Division. of the War Office, p. I سعد الدين الزبير: إمبراطورية رابح الزبير، القاهرة 1953، ص 25- 27 , (1) سعد الدين الزبير: الزبير باشا رجل السودان. القاهرة، 1951، ص 49 (2) William, Everett: op. cit., p . 2. (2) بدأ غوردون تفريق جيش سليمان، وتعيين قيادات له، فغضب سليمان لهذا التصرف وهبّ يدافع عن كيانه، فأرسل إليه غوردون حملة حربية بقيادة القائد الإيطالي روميلو جيسي الذي هزم سليمان، فهرب بقواته شمالا مع بقايا قواته، وفي منطقة جهارا Gharra تقابل مع بعثة من قبل جيش جيسي الذي وعد بالإبقاء على حياته وحياة الهاربين إذا استسلموا. وكان رابح ضد فكرة الاستسلام . 2. William
Everett: op. cit., p (1) .170. Adeleye, R. A.: Power and Diplomacy in Northern Nigeria, p (2) انظر الخريطة رقم (10)، وأيضا د. شوقي الجمل: تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها، ص 511. .2. (3)
William Everett: op. cit., p (1) .235. Emile Gentil: La Chutte de L'Empire de Rabeh,)Paris 1902(, p.
(1) F.O. 101/84 Africa No. 7 From Justin Alvriz to F.O., 3 April 1894)3(يعتبر نهر شاري من الأنهار الكبرى في قلب أفريقيا الوسطى حيث ينبع من المرتفعات الواقعة بين بحيرة تشاد والنيل والكونغو، ثم يجري ببطء في اتجاه الجنوب لمسافة قصيرة، ثم يغير اتجاهه نحو الشمال الغربي حيث سهل كبير، وأخيرا يصب في جنوب بحيرة تشاد. وهذا النهر صالح للملاحة في أكثر أجزائه رغم اعتراض بعض الجزر والسدود الرملية (2) .سعد الدين الزبير: مرجع سابق، ص (3) .79 بعد أن هزم رابح سلطان واداى استقر في منطقة تابعة لسلطان برنو، ولذا فإن سلطان واداى يوسف كان من المقرر أن يأخذ تصريحا من حاكم البرنو قبل بدء الهجوم، ولقد انزعج السلطان هاشم، وارتعدت فرائصه لاقتراب رابح من دولته، وبدأ بالهجوم بنفسه على رابح، وتقدمت قوة بقيادة

محمد طاهر على أمل إنهاء المغامرة بسرعة، لكن رابحا قطع خطوط إمدادات هذه القوة، ووقع
طاهر أسيرا .انظر: William Everett: op. cit., p (1).1894 F.O. 101/84. Africa, No. 8. Justin Alvares .3
to F.O., 3 April (2).1894 F.O. 101/84, Africa. No. 7. Justin Alvarez to F.O., 3 April (1).1894 F.O. 101/
84 Africa No. 7. Justin Alvarez to F.O., 3 April (2) إسماعيل سرهنك: حقائق الأخبار عن دول
البحار، ص 335. 39. Lugard, Reports 1904, p وأيضا، 17- 216. Perham, Margery: Lugard, The Years .
of Authority, pp (4) .3. William Everette: op. cit., p .4. Ibid: p. (1) 1989 Daily Chronicle, 20 August(2)
(3)C.O. 101/84 Africa No. 11, Mr. Justin Alvarez to C.O., 30 December. (1894)Secret (1).9- 198.
Hiskett, M.: The Development of Islam in West Africa, pp (2). 183- 182. Filix Chapiseau: Au pays de
l'esclavage, pp (3) إبراهيم صالح يونس: تاريخ الإسلام وحياة العرب، ص 166- 170. (4). 4. William
Everett: op. cit., p (1) .1989, 10 F.O. 101/84 Inclosure I in Mr. Jago's No. 2 Africa, April (2، سعد
الدين الزبير: مرجع سابق، ص 103. (2) .5. William Everett: op. cit., p (1) .1989, 10 F.O. 101/84 Mr.
Jago, No. 2 Africa, April (2) .5. William Everett: op. cit., p (3) .1989 F.O. 101/84, 19 July (4) (4). 1895
101/84, Africa, No. 2, Jago to F.O., 15 April (5) .178. Adeleye, R. A.: op. cit., p (6). 223. Crowder, M.:
The Story of Nigeria, p (1) .1894 F.O. 101/84. Africa. No. 11. Justin Alvarez to F.O., 30 December.
(Secret) (2) .1897 M. Jago, No.2. Africa. 25 March (3) .7. William Everett: op. cit., p (1) .C.O. 537/11
Lugard to the Secretary of State for Colonies, 8. Feb. 1899, No. 143L (1) 25 Archives Nationales
Section d'Outre. Mer, Paris, Africa. 3 File. 1897. Instructions Politique Ministre des Colonies to Capt.
Cazemagou. 22 Fev (1) ولد إميل جنتيل في فرنسا عام 1866، ثم خدم في البحرية الفرنسية حتى
صار رئيسا للبعثة الفرنسية التي اتجهت إلى الكونغو لكي تمهد الطريق لضم المناطق الواقعة بين
الكونغو وبحيرة تشاد، وبدأت بعثته الأولى في عام 1898. ولما حققه من نتائج باهرة فقد صار
ضمن الأبطال الكبار، فأرسل في بعثة ثالثة عام 1899، وهى البعثة التي نجح فيها في القضاء على
رابح فضل الله، وأدخلت منطقة تشاد تحت الحكم الفرنسي (2) .انظر الخريطة رقم (10). 40. Paul
Bory: Le Chad, p (3) . 87. Emile Gentil: La Chute de L'Empire de Rabeh, p العدد 1581 الصادر في
10/ 11/ 1899، في مقال بعنوان «السلطان» (1) جريدة الأهرام رابح (1) .سعد الدين الزبير: المرجع
السابق، ص-164. (1) (2) 125- 130.. 193. Adeleye, R. A.: Power and Diplomacy in Northern Nigeria, p
163. Emile Gentil: op. cit., pp (1) كانت الحملات الثلاث بقيادة كل من القائد لامى وولاند وحملة
جنتيل في كوسيري، وكان لامى هو القائد الأعلى للجيش الفرنسي (1) .سعد الدين الزبير: المرجع
السابق 125. (2).201. Porch: Douglas: The Conquest of the Sahara, London, 1984, p (3) سعد الدين
الزبير: المرجع السابق، ص (1) .129 تقع مدية كوسيري على الشاطئ الغربي لنهر لوجون عند
التقائه مع نهر شاري. وفي عام 1900 كانت مدينة كبيرة يحيط بها سور مرتفع من جوانب ثلاثة.
ويحدها من الجهة الرابعة مستنقعات مائية، وكان معظم سكانها يعملون بالصيد، ولم تكن المدينة
مجهزة للدفاع لأن الأسوار كانت قد أهملت ويسهل اختراقها (2). 201. Porch, Douglas, op. cit., p
انظر مواقع هذه المدن على الخريطة، (شكل رقم 10). (1) .203 .Porch, Douglas, op. cit., p (1) سعد
الدين الزبير: مرجع سابق، ص 138 , (1) Porch, Douglas, op. Cit. P . 203 , (1) .237 . Adeleye. R. A.:
Hiskett, .200 (2) . Porch. Douglas, op. cit., p .205. (1) Emile Gentil: op. cit., p .220. (1) op. cit., p
M.: The Development of Islam, p (1) .1901 F.O. 2/675 Encl. No. 3, From Fadl Allah to Mr. Hewby, 25
March (2) (2). 1901 F.O. 2/675 Encl. No. 3, 26 May (3) .F.O. 2/675 L. 41/1901. A Copy from the Letter

of F. Lugard to F.O (1) .1901 F.O. 2/675. A cable received on 15 August (2) 12). F.O. 2/675 From Fadl Allah to Mr.Walace, 19 Rabeh Awal 1219 H. (1901. Oct (3) .F.O. 2/675 N.5, 30 October 1901, The (2) .200. Hiskett, M.:، سعد الدين الزبير: مرجع سابق ص 150Letter of R. Antrobus to F. Lugard (1) Op. cit., p (3) 3) . F.O. 2/675, The Acting High Commissioner of Northern) Nigeria to Mr.. 1901. Chamberlin, received at Colonial Office, 1 1st Nov (4) F.O. 2/675 Mr. Walace to Mr. Chamberlain, Telegram received at. 1901. Colonial Office, 15th Nov (1) .10. William Everett: op. cit., p

(2) Trimingham. S. Islam in Ethiopia, p .65. (1)شوقي الجمل: تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها، ص (1) .72 -71حسن أحمد محمود: الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا، ص .448 انظر تفاصيل هذا الجهاد في حسن أحمد محمود: مرجع سابق، ص (2) .495 -488 انظر تفاصيل المؤتمر في:,Crowe S.E.: The Berlin West African. 1942, Conference, (1884- 1885), London (1)عن الطرق الصوفية في أفريقيا يمكن الرجوع إلى1976, Martin, B. G.: Moslem Brotherhoods in 19th Century Africa. London .

(2)اشتقت الطريقة الصالحية اسمها من زعيمها الشيخ محمد بن صالح الراشدي (1854- 1919). وهو من السودانيين الذين اعتنقوا المذهب المالكي، وكان خليفة للشيخ إبراهيم بن الراشد الدويحي (المتوفى سنة 1874) والذي جاء من دنقلة. وكان إبراهيم ابن الراشد تلميذا لأحمد بن إدريس الفاسي (758 ا- 1836) ودرس معه في مكة واليمن، وكان الفاسي من أنصار المذهب الوهاب لا الطريقة القادرية التي تنسب إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني الذي ولد في مدينة جيلان (وراء طبرستان) عام 1077 م، وانتقل إلى بغداد واتصل بعلماء الصوفية هناك. انظر: ابن تغري بردي، أبو المحاسن، يوسف بن تغري بردي الاتابكي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، الجزء الخامس-القاهرة، 1935، ص (1) .372 -371 لقد ورد أمم السيد محمد بن عبد الله حسن في المؤلفات الأوروبية والعربية مقرونا ببعض الصفات التي تقلل من هيبته، وتحط من قدره ومكانته في أعين رجاله وعشيرته، ووصل الأمر ببعضهم إلى اتهامه بالجنون، وصدرت مؤلفات أوروبية حاملة اسم المجنون تجنيا على زعيم جهاد مسلم قاد بلاده طوال عشرين عاما من النضال المستمر ضد قوى البغي والعدوان. ووصفه البعض تارة أخرى بأنه المهدي المنتظر. ونقل المؤرخون العرب عن هؤلاء الأجانب تلك الصفات دون التحري عن مدى دقتها، والمقصود من وراء إطلاقها، وصارت المؤلفات العربية تصدر حاملة لقب مهدي الصومال أو الملا المجنون، وكلها ألفاظ تقلل من قدر هذا المناضل الإسلامي الكبير الذي وضع منذ بداية إعلانه الجهاد خطته، وحدد هويته في وثيقة أمكن العثور عليها مترجمة في وثائق وزارة الخارجية البريطانية، وفيها يقول السيد محمد عبد الله حسن بأنه من الدراويش، والني تعني العبد الفقير، وأنه ليس المهدي المنتظر كما أنه لا يعرف وقت ظهوره. وتشير كافة المصادر الصومالية إلى أنه وصف نفسه باسم «السيد»، وعرف به في جميع ربوع الصومال، كما أطلق على كل أتباعه لقب الدراويش. انظر وثيقة المهدي حول هويته في:F.O. 403/340, Sir Elliot to Marquess Lansdowne received on 5 Feb. 93- 92. inclosure 2, Manifesto:,. by the Mullah, pp (1)Richard Greenfield: An Historical Introduction to the Refugee problem. 371. in Somali Democratic Republic and the World. Vol. II. P (2)محمد المعتصم سيد: مهدي الصومال، بطل الثورة ضد الاستعمار، ص (1) .21 كان أهل المنطقة التي يستقر بها أحد الشيوخ يقومون بجمع الأموال وإهدائها للشيخ وكانت تسمى زيارة، وكان معلمو القران يحصلون على أموال معلومة من كل طفل يعلمونه على فترات معينة (2) .تمام همام تمام: تطور حركة الجهاد الوطني في الصومال 1900-1960، القاهرة، 1983، ص,Jardine Douglas: The Mad Mullah of Somaliland, London .39. (3) .28

29. (1) (1). 93- 92. F.O. 403/340: op. Cit. p (1)تمـام هـمـام تمـام: مـرجـع سـابـق، ص(1) 1923, p (1)
تمام.179&168. Martin, B. G.: op. cit., pp (2) .93- 92. F.O. 403/340. The Manifesto by the Mulla, p (1)
همام تمام. مرجع سابق، ص ا (2) .3 انظر نص الوثيقة في:.46. (1) Jardine. D.: op. cit., pp 40 -42 .
عبد الصبور مرزوق: ثائر من الصومال، ص (1) .43 تمام همام تمام: Jardine, D.: Op. cit., pp (2)
مرجع سابق، ص (2) Samantar, Nicol: Mohammed Abdulla Hassan, p .83. (1) .39 انظر خريطة رقم
(13). 72. Jardine, D.: Op. cit., p (1) Ibid. p. 90. (2) (2)انظر خريطة رقم (3) (13) تمام همام تمام:
مرجع سابق، ص (1) .46 جامع عمر عيسى: تاريخ الصومال في العصور الوسطى والحديثة،
القاهرة، 1965، ص (2) .75 انظر خريطة رقم (1) Martin, B. G.: op. cit., p .185. (3) (13) انظر نص
الخطاب في: (2) Jardine, Douglas: op. cit., pp 122 -123. تمام همام تمام: مرجع سابق، ص(3) 50
.Official History of the Operation in Somaliland (1901- 1904), Vol. I. 252- 251. General Staff. War
Office. London, 1907, pp (1) ,F.O. 2/907, The Campaign against Mullah, (6166/3868), I, 1st January.
1904 (1) ,1 F.O. 403/340, Telegram from Sir Egerton to Colonel Swane, received. 1904, 19. Feb (2)
السيد رجب (1).152- 149. Jardine, D.: Op. cit., pp (1) .S.A.D. 125- 4, 294/7/09. Intelligence Diary
حراز: التوسع الإيطالي في شرق أفريقيا وتأسيس مستعمرتي أرتيريا والصومال، القاهرة، 1960،
ص 514- 520, (2) تمام همام تمام: مرجع سابق، ص 61, (1) انظر نص المفاوضات في عبد
الصبور مرزوق: ثائر من الصومال الملا محمد بن عبد الله حسن، القاهرة، 1964، ص 69- 77, (2)
(1) انظر هذا الاتفاق في:. Lewis, M.: The Modern History of Somaliland, London, 1965, p .71.
Lewis, M.: Op. cit., pp . 149 -152. (2) Hertslet, E.: Map of Africa by Treaty Vol. II, London 1908,
(1) انظر تحليل المعاهدة عند تمام همام تمام: مرجع سابق. ص 59- 72, (1) .146 . Samantar, N.
Jardine, D.: op. cit., p (1) .1909, S.A.D. 125/ (2) , 170 . L. Mohammed Abdulla Hassan, Paris, 1979. P
(1) 3, Foreign Office to C.O. 16, April محمد المعتصم سيد: مرجع سابق، ص (2) .54 يقال إن الشيخ
محمد صالح رفض قبول الاتهامات الموجهة ضد السيد محمد عبد الله ورفض الكتابة إليه، لكن
الوفد نجح في إقناع مريد الشيخ محمد صالح في كتابة الخطاب، واستغلوا فرصة خلع الشيخ
للخاتم عند الوضوء وقاموا بختم الرسالة وإرسالها إلى الصومال مع الوفد (1) .تمام همام تمام:
مرجع سابق، ص 47. (2) Jardine, D.: cit. P. 180. (1) ,S.A.D. 125/7, Annex I, Letter from Mullah to Sir
R. Wingate, 12 June. 1909 (1) .77. Lewis. M.: op. cit. p. (2) 165. Samanter, N. L.: op. cit. P (1) عبد
الصبور مرزوق: مرجع سابق، ص 134, (2) محمد المعتصم سيد: مرجع سابق، ص 46, (1) .77.
(2) سعيد عثمان جوليد: يوميات صومالية، عدن، 1969، ص 49, (1) .172. Lewis, M.: Op. cit., p
. 179. (2) Martin, B. G.: op. cit. p . 78. (1) Lewis, M.: Op. cit. p . 78 (2) . Samanter, N. L.: op. cit. p
Samanter, N.L.: op. cit. P (1) .267. Jardine, D.: Op. cit. P (1) .8- 287. Jardine: D.: Op. cit. pp. 267.
(1) هذه الأقاليم تشمل الأوجادين والإقليم Jardine, D.: op. cit. p (1) .84. Lewis. M.: op. cit. P
الشمالي الشرقي من كينيا (انفدى) الذي أجرت فيه بريطانيا استفتاء عام 1963، ورغم أن أغلبية
الشعب هناك قبلت الانضمام إلى الصومال إلا أن بريطانيا ضمّت الإقليم إلى كينيا عند استقلالها
في عام 1963، وأيضا هناك إقليم جيبوتي (الصومال الفرنسي سابقا) الذي استقل في عام 1977
تحت اسم جمهورية جيبوتي.

المؤلفات في سطور

د. عبد الله عبد الرازق إبراهيم.

* ولد بجمهورية مصر العربية-محافظة الشرقية-عام 1939.

* حصل على دكتوراه في الفلسفة عام 1982.

* أمين عام الجمعية العربية للتكامل الثقافي.

* عمل بمعهد البحوث والدراسات الأفريقية بجامعة القاهرة.

* اشترك في عدة مؤتمرات وحلقات وندوات دراسية وعلمية.

* شارك في الإشراف على عدد من الرسائل الجامعية بمعهد البحوث والدراسات الأفريقية.

* له عدة مؤلفات منها:

الإسلام والحضارة الإسلامية في نيجيريا: مصر وحركات التحرر الوطني في شمال أفريقيا.

* يعمل حالياً أستاذاً مساعداً بجامعة قطر.



نتملّك أو نكون

تأليف: آريك فروم

ترجمة: سعد زهران

مراجعة: د. لطفي فطيم



هذا الكتاب المسلمون والاستعمار الأوروبي لأفريقيا

يعالج هذا الكتاب قصة الصراع بين المسلمين والدول الاستعمارية التي تكالبت على أفريقيا في أواخر القرن التاسع عشر. وهي فترة تزامنت مع قيام حركات الجهاد الإسلامي لبناء دول تطبق الشريعة الإسلامية. وكان من الطبيعي أن يحدث التصادم بين الطرفين، وكان على المسلمين أن يحاربوا في جبهتين إحداهما داخلية لنشر الدين الإسلامي بين الوثنيين، والأخرى خارجية لمقاومة التوسع الأوروبي على القارة الأفريقية. ويتناول الكتاب كذلك حياة كفاح الزعامات الإسلامية التي عالجها المستشرقون بشكل عاجل وبعيد عن الموضوعية لتقليل دورهم، وإجهاض كفاحهم. والهدف من هذا الكتاب تصحيح هذه النظرة الاستعمارية، وإعطاء صورة لأبناء الأمة الإسلامية عن كفاح أبطالهم الذين وقفوا بحزم ضد المخططات الاستعمارية، وقدموا أرواحهم فداء للدين الإسلامي أمام هذه الموجة الاستعمارية. إنه باختصار بداية محاولة لإعادة كتابة تاريخ جهاد المسلمين ولإلقاء الضوء على جهود زعماء الإسلام داخل إطار من الموضوعية، والتحليل الواقعي، والدراسة المقارنة بين حركات الجهاد في أفريقيا جنوب الصحراء والتي تشابهت في أسلوب جهادها رغم عدم التنسيق بينها.